لجنة التأليف والترجمة والنشر

أشهر الرسائل العالمية

من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر



اختارها وترجمها

محمد بدران

الجزء الثاني

من أول القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أشهر الرسائل العالمية

من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر

اختارها وترجمها

محمد بدران

الجزء الثاني

من أول القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تقديم



هذا هو الجزء الثانى من « أشهر الرسائل العالميــة » ، ننشره وفاء بالوعد الذى قطعناه يوم أصــدرنا الجزء الأول منها ، واستجابة لرغبة الأصدقاء والقراء الذين طالبونا بالوفاء به .

والرسائل التى يحتويها كتبت كلها تقريبا فى الفترة المحصورة بين بداية القرن التاسع عشر والوقت الحاضر ، وقد راعينا فى اختيارها ما راعيناه فى سابقاتها ، فحرصنا على أن تمثل أكثر ما يمكن تمثيله من ألوان الأدب ، وأن تلقى أكثر ما يمكن إلقاؤه من الضوء على أهم حوادث التاريخ ، وجعلناها منوعة بقدر المستطاع ، وشرحنا الأحوال التى كتبت فيها كل رسالة وما كان لها من أثر .

ونرجو أن يجد فيها القراء من الفائدة أو اللذة ما يعوضنا عما بذلناه فى اختيارها وترجمتها من جهد .

القاهرة فى مارس سنة ١٩٤٨

محمد بدران

رسائل ناپليون بوناپرت

وهى سلسلة من الرسائل بينه و بين الإمبراطورة چوزفين[1]
والكونته مارى ولوسكا[2] والإمبراطورة مارى لويز[3]

كتبت بين عامى ١٧٩٦ ، ١٨١٤

كلمة عامة

إن ما كتب عن ناپليون بوناپرت ليعدل ما كتب عن شيكسپير أو يزيد عليه ؛ وقد أحصى ما فى مكتبات العالم من كتب وأبحاث عن ناپليون فإذا هو لا يقل عن ثلاثين ألف كتاب ، ولا ندرى كم كتابا غيرها لم تسجل فى هذه الفهارس أو لم يشملها هذا الإحصاء . ويقال إن ناپليون نفسه كتب أو أملى ما بين ٥٥,٠٠٠ ، ٧٥,٠٠٠ رسالة ، حرق الكثير منها فى روسيا ، ولكن ٤١,٠٠٠ منها طبعت فعلا ، ولا تزال الأيام تكشف كل يوم عن رسائل له جديدة ، كما لا تزال المطابع تخرج عنه كل يوم أبحاثا وكتبا جديدة .

وليس فى وسعنا أن نثبت هنا إلا نماذج من هذه الرسائل المختلفة ، وذلك لأن إثباتها كلها يحتاج إلى مجلدات ضخمة ، و إن رسائله إلى چوزفين وحدها لتملأ عدة كتب . فقد ظل ناپليون يراسلها من يوم أن كتب لها كلمته الأولى يعرض عليها صداقته ، إلى آخر رسالة منه يقول فيها إنه قد سمع بأنها سمنت حتى صارت أشبه بامرأة مزارع من النورمان .

وظل ناپليون مستمسكا بحب چوزفين خلال ما كان يحيط به من الأخطار فى المعارك الحربية ، وما كان يتعلق به قلبه من حب لغيرها لا يدوم . وقد بدأ هذا الحب مذ قابلها وهو ضابط صغير رقيق الحال ، وهى أرملة فى الثانية والثلاثين من عمرها ، ورآها رشيقة القوام وإن لم تكن بارعة الجمال ، وظل هذا الحب من ذلك الوقت مسيطرا على حياته العاطفية ؛ ولم تنقطع رسائله لها رغم أخطار الحرب وشئون الحكم . ثم استحال هذا الحب

---

(١) Josephine

(٢) Marie Walewska

(٣) Marie Louise

إلى عطف عليها بعد أن طلقها مضطرا ، أملا فى أن يكون له ولد يرث ملكه من بعده . وسيجد القارئ فيما أثبتناه من رسائله إلى چوزفين كيف يفخر هذا الفاتح العظيم باستحواذه على « كنز لا تدانيه سائر الكنوز » .

* * *

نابليون يخلد انتصاره على چوزفين بالسير لفتح إيطاليا

فى شهر مارس من عام ١٧٩٦ رضيت مارى روز چوزفين تاشيه ده پاچرى[١] ابنة ضابط صغير فى المدفعية أن تتزوج « من خطيب ضئيل الجسم رقيق الحال يلح فى طلب الزواج بها » . وكان نابليون وقتئذ ضابطا صغير السن فى الجيش الفرنسى نال إعجاب حكومة الثورة حين ردّ جموع الشعب التى احتشدت فى العاصمة الفرنسية فى يوم ١٣ ڤندميير[٢] — ٥ اكتوبر سنة ١٧٩٥ . وكانت هى فى ذلك الوقت أرملة لأحد النبلاء السابقين أعدمه الثوار الفرنسيون ، كما كانت من النجوم اللامعة فى المجتمعات الفرنسية .

هذه المرأة أوحت إلى نابليون « بحب سلب عقلى ، فلا أستطيع الأكل ولا النوم ولا العناية بالأصدقاء ولا الاهتمام بالمجد ؛ وحتى النصر نفسه لا أقدره إلا لأنه يدخل السرور عليك . . . لقد ملأت قلبى حبا لا حد له . . . »

وبعد زواجه بقليل عينته حكومة الإدارة قائدا أعلى للجيش ، وأمرته بالزحف على إيطاليا ليحرر هذا البلد التعس من نير النمساويين . وسافر نابليون بالفعل بعد يومين اثنين من زواجه ، وبقيت چوزفين فى فرنسا تتمتع بمباهج باريس . وكثيرا ما كتب نابليون إلى زوجته المحبوبة يطلب إليها أن تجىء إليه فى إيطاليا ، ولكنها فضلت أن تطيع أمر حكومة الإدارة حتى لا تشغله عن القيام بواجبه ، بل إنها قلما كانت ترد على رسائله . على أنه بعد أن وصل فى فتوحه إلى ميلان رُفع الحجْر الذى كان مفروضا عليها ولحقت به هناك .

---

(١) Marie Rose Josephine Tascher de la Pagerie

(١) Vandemiaire من أسماء الشهور التى استحدثتها الثورة

— ١ —

« أرجو أن أعصرك قريبا بين ذراعىّ . . . »

ڤيرونا[1] فى ١٣ نوفمبر سنة ١٧٩٦

لست أحبك ، لست أحبك مطلقا ، بل إنى أمقتك ، إنك فتاة خبيثة سمجة حمقاء . إنك لا تكتبين إلىَّ ، إنك لا تحبين زوجك ؛ وأنت تعرفين ما تدخله رسائلك من السرور على قلبه ، ومع ذلك فإنك لم تكتبي إليه ستة أسطر تقذفينه بها عرضا !

ما ذا تفعلين طوال اليوم يا سيدتى ؟ وأى شأن خطير يشغلك فلا يترك لديك من الوقت ما يسمح لك بالكتابة إلى محبك المخلص الوفى ؟ وأى عاطفة تملكتك حتى تغلَّبت على الحب ، الحب الخالص الدائم ، الذى وعدته به ؟ ما ذا عسى أن يكون ذلك الكائن العجيب ، ذلك المحب الجديد ، الذى يشغل كل لحظة من وقتك ، و يسيطر على أيامك ، و يمنعك أن تعيرى زوجك أقل عناية ؟ حذار يا چوزفين ! سيفتح الباب فى ليلة صافية فتجدينني أمامك .

والحق يا حبيبتى أنى قلق أشد القلق ، لأنى لم أتلق منك أنباء ، فاكتبى إلىّ من فورك أر بع صفحات ، صفحات تفيض بالأنباء السارة التى تملأ قلبى بأبهج المشاعر .

أرجو أن أعصرك قريبا بين ذراعىّ ، وأن أغمرك بآلاف من القبلات الملتهبة كأنها تحت خط الاستواء .

بونابرت

* * *

و بدأ ناپليون وهو فى إيطاليا يدرك ما فى طباع چوزفين من طيش ونزق ، وخبت نار الحب قليلا فى قلبه ، ولكنها رغم هذا وذاك لم تفقد منزلتها لديه ، وتوالت رسائله إليها و إن لم تبادله هى الرسائل . وقبل أن يعود من حروبه فى مصر بدأ يرتاب فى صداقتها لضابط يدعى شارل ، وأخذ يفكر فى الطلاق ، ولكن دموع عينيها وتوسلها إليه قضيا على أسباب النزاع . و يقول المؤرخون إن علاقتهما ظلت طيبة بوجه عام إلى سنة ١٨٠٤ . وقال ناپليون فيما بعد عن خلافهما ونزاعهما : « كنت عادة أخضع لها »

---

(١) Verona

وقال فى رسالة شهيرة كتبها من ڤيرونا فى عام ١٧٩٧

« ... أقبلك ألف قبلة . إنى بخـير ، ولم تزد خسائرنا على عشرة من القتلى ومائة من الجرحى — بوناپرت » .

— ٢ —

« . . . أما زوجك فهو وحده الشقى المعنى »

ميلان فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٧٩٦ فى الساعة الثالثة مساء

وصلت إلى ميلان ، واندفعت إلى مسكنك ، وقد تركت كل شىء لـكى أراك وأضمك بين ذراعىّ ... ، ولـكنى لم أجـدك لأنك تسرعين من بلد إلى بلد جريا وراء الحفلات ، فلا أكاد أصل إلى بلد حتى أجدك قد خرجت منه ، إنك لا تعنين الآن أقل عناية بزوجك العزيز ناپليون . ولقد كانت سورة عارضة هى التى جعلتك تحبينه ، و إن عدم ثباتك على حبه ليقضى على اهتمامه بك . لقد تعودتُ ركوب الأخطار وعرفتُ منهـا دواء الملل ومتاعب الحياة . على أن الشقاء الذى أشعر به مما لا يمكن وصفه ، وكان من حقى أن أنجو منه .

سأقيم فى هذا البلد إلى مساء اليوم التاسع فلا تغيرى شيئاً من خطتك ، بل داومى على مسراتك ، فإن الهناءة لم تخلق إلا لك ، و إن العالم كله ليسعد أعظم السعادة إذا استطاع أن يدخل السرور عليك ، أما زوجك فهو وحده الشقى المعنى .

بوناپرت

* * *

ولما صار ناپليون قنصل فرنسا الأول مدى الحياة ، ثم أصبح فيما بعد عاهلها ، وبلغ بذلك ذروة المجد ، ألحت عليه چوزفين أن يحتفل بزواجها من جديد ، فأجابها إلى هـذه الرغبة واحتفل بهذا الزواج احتفالا دينياً رائعاً فى أول يوم من ديسمبر سنة ١٨٠٤ . لـكن ناپليون حسب للمستقبل حسابه ، فترك عن قصد أحد المراسم الدينية الواجبة فى مثل هذا الاحتفال ، فلم يحضره قسيس الأبرشيه ، وكان هذا النقص مما سهل عليه أمر طلاقها بعد ست سنين من هذا الزواج . وغفلت چوزفين عن هذا الخطأ المتعمد فى ساعة ظفرها وقبيل تتويجها التاريخى فى كنيسة نتردام ، إذ شغلها إعجابها بنفسها وزهوها على أترابهـا عن التفكير فيه . وتوالت

انتصارات نابليون فى أوربا ، وانهمك فى حروبه الخارجية ومشاكله الداخلية ، ولكنه مع ذلك كان يجد من الوقت ما يستطيع أن يداعب فيه جوزفين . من ذلك ما كتبه إليها من برون [(١)] يقول :

— ٣ —

« هلا نزلت من عليائك ... »

برون فى ١٩ ديسمبر سنة ١٨٠٥

أيتها الإمبراطورة العظيمة ، لم تكتبي إلىّ مذ سافرتِ من استرسبرج [(٢)] . لقد تنقلتِ بين بادن واستتجارت وميونخ [(٣)] ، دون أن تكتبي إلينا كلمة واحدة . وليس هذا مما يدل على حبك لى أو عطفك علىّ . أما أنا فلا أزال فى برون ، وقد جلا عنها الروس ، وعقدنا هدنة مؤقتة ، وسأنظر بعد أيام قلائل ماذا عسى أن أكون . هلا نزلت من عليائك ، وجشمت نفسك بعض المشقة من أجل عبدك .

نابليون

***

نابليون يحدث جوزفين عن أسباب بغضه للنساء الدساسات

وبعد أن تم النصر لنابليون فى واقعة جينا [(٤)] وخضعت له أوربا الغربية إلى حين ، أخذ يفكر فى غزو الشرق . ولكنه رأى قبل ذلك أن يصفى حسابه أولا مع روسيا . ولعل جوزفين قد شعرت بشىء من الفتور نحوها فطلبت إليه أن ترافقه فى سفره ، غير أنه لم يكن وقتئذ فى حاجة إليها . على أنه مع ذلك ظل يكتب إليها و بينها لواعج حبه .

---

(١) Brünn

(٢) Strassburgh

(٣) Baden ، Stuttgart ، Munich

(٤) Jena

— ٤ —

« . . . . . إنى أحب النساء الطيبات الوفيات الحسان ، ولكن سبب حبى إياهن أنهن يشبهنك . . . . . »

برلين فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٦ والساعة التاسعة مساء

تلقيت رسالتك التى تظهرين فيها غضبك من عبارات جافة قلتها عن النساء [١] . والحق أننى لا أبغض شيئاً كما أبغض النساء الدساسات ، فلقد ألفت النساء الطيبات الحسان المسالمات . أولئك هن اللاتى أحبهن ، وإذا كن قد أتلفننى فليس ذلك ذنبهن بل ذنبك أنت . على أنك سترين أنى أحسنت معاملة امرأة برهنت على أنها عاقلة طيبة ، وتلك هى مدام هتزفلد [٢] . لقد أطلعتها على خطاب زوجها فقالت لى وهى تنتحب وقد غلبتها عواطفها وفاض قلبها وفاء : « آه ، إن هذه كتابته حقاً ! » فلما أخذت تقرأه نفذت نبرات صوتها إلى قلبى ، فتألمت لذلك أشد الألم ، وقلت لها : « آه ، ياسيدتى ! ألق هـذه الرسالة فى النار ، فليس يسعنى الآن أن آمر بعقاب زوجك ! » .فأحرقت الرسالة وبدت لى كأنها سعيدة . أما زوجها فهو الآن مطمئن بعيد عن أسباب القلق ، ولو أن هـذا اللقاء قد حدث بعد ساعتين اثنتين من ذلك الوقت لـكان عديم الجدوى . فأنت ترين من هـذا أنى أحب النساء الطيبات الوفيات الحسان ، ولـكن سبب حبى إياهن أنهن يشبهنك

استودعك الله ياحبيبتى إنى بخير

نابليون

***

نابليون يتوسل إلى الـكنته مارى ولوسكا أن ترحم قلبه

وشرع نابليون من ذلك الوقت يفكر فى الشرق ، وأصبحت « هزيمة إنجلترا فى الهند » شغله الشاغل . ولاحت له فكرة جمع العالم كله تحت لوائه ، وأيقن أن الخطوة الأولى التى يجب عليه أن يخطوها إلى هذه الغاية هى أن يكسب صداقة روسيا ، وأن يتخذ من بولندة نقطة ارتكاز يعمل فيها لـكسب هذه الصداقة [٣]

---

(١) لقد أظهرت الإمبراطورة قبـل ذلك ألمها لأن نشرة الجيش العظيم ذكرت ملكة بروسيا بغير الاحترام اللائق بمقامها

(٢) Hatzfeld

(٣) قارن هذا بالأحداث التى وقعت فى شهر سبتمبر من عام ١٩٣٩ .

لهذا قصد إلى وارسو فى عام ١٨٠٦ ، وبدأ من ذلك الحين يشكو « الوحدة » ويكتب فى ليالى الشتاء القارسة البرد رسائل إلى جوزفين تفيض بالحنين وبالعواطف الجائشة ، ويؤكد لها أنها هى وحدها التى تملأ فراغ قلبه . وسمع فى ذلك الوقت نفسه أن حادثة من حوادث الحب التافهة التى وقعت له فى الشتاء السابق قد جاءته بولد غير شرعى . فأيقن من ذلك الوقت أن ما كان يرجوه من إيجاد أسرة مالكه من نسله ليس كله سرابا بقيعة . وفى بولندة وفى قصر ملوكها الأقدمين أفتتن بحب مارى ولوسكا ، وهى فتاة صقلابية فى الثامنة عشرة من عمرها ، ومن نسل أسرة بولندية قديمة رقيقة الحال ، بلغ من فقرها أن زَوَّجت هذه الفتاة الشابة بنبيل هرم . والتقى بها الإمبراطور أول مرة فى حفلة راقصة كانت هى أولى من راقصته فيها . وما أن وقعت عينه عليها حتى شغف بها ، ونفذت إلى قلبه سهام عينيها الزرقاوين ، وأعجبته لغتها الفرنسية الركيكة ، وخفتها ورشاقتها ووجهها الأشقر .

وفى مساء اليوم التالى كتب إليها أولى الرسائل الثلاث الواردة فيا بعد ، وبعث بها إليها على يد صديقه دورك[١] .

ولم ترسل إليه الفتاة ردا . ويقول إميل لدفج[٢] إن الإمبراطور العظيم الذى لم يعتد هذا الإهمال ، حتى من الأميرات أو الممثلات ، وجد فى هذا الإغضاء ما زاده شوقا إليها وافتتانا بها . فبعث إليها فى خلال الأيام الثلاثة التالية — برسالتين أخريين استجابت بعدهما لحبه ، فأقام معها فى بولندة مسلوب اللب لا يطيق صبرا على فراقها .

وفى ذلك يقول إميل لدفج « . . . . أما القصر والجيش وباريس وأوربا — فلتنتظر . . . . لقد أصبحت الكنتة ولوسكا ملاكه . . . . وأصبحت هى الرفيق المحب الهادئ الذى ظلت روح نابليون الفتية تنقب عنه حتى وجدته » .

وأثمرت هذه العلاقة ولدا ولدته ولوسكا فى قصر ناء منعزل بالقرب من وارسو فى الرابع من شهر مايو سنة ١٨١٠ . وأصبح هذا الولد بعدئذ من كبار الساسة الفرنسيين فى عهد لوى فليب[٣] ، ثم صار وزيرا وعضوا فى مجلس الشيوخ فى عهد الإمبراطورية الثانية ، ومنح

---

(١) Duroc .
(٢) Emil Ludwig .
(٣) Louis Philippe .

فى عام ١٨٦٨ قبل وفاته بسنتين لقب دوق ، واختير عضوا فى مجمع الفنون الجميلة ، ثم أنعم عليه بالصليب الأكبر من وسام الشرف الفرنسى[1] . أما الكنتة نفسها فعاشت حتى شهدت عهد الإمبراطورية الثانية وتزوجت فى آخر أيامها بأحد النبلاء الفرنسيين .

وإلى القارئ الثلاث الرسائل القصار التى بعث بها نابليون إلى الكنتة مارى ولوسكا .

— ٥ —

« .... لم أعجب إلا بك »

يناير سنة ١٨٠٧ [؟]

لم أرَ إلا أنت ، ولم أعجب إلا بك ، ولست أرغب إلا فيك . فهل من جواب سريع يهدئ سورة الحب المضطرمة فى قلب نابليون

* * *

— ٦ —

« .... هل أسأت اليك ؟ . »

هل أسأت إليك ؟ كنت أظن أننى قد فعلت عكس هذا . أو هل خبت نار شعورك الأول ؟ إن حبى إليك يزداد . وإنك لتحرميننى راحتى . إسمحى بقليل من السرور وقليل من الهناءة لذلك القلب المعذب الذى يكاد يعبدك ! هل يصعب عليك أن تردى علىّ جوابا ؟ إنك الآن مدينة لى بجوابين .

[من غير توقيع]

— ٧ —

« ليتك تسمحين »

تمر على الإنسان فى حياته لحظات يكون فيها منصبه الرفيع عبئا ثقيلا يبهظه . وتلك هى حالى فى هذه الساعة .... ليتك تسمحين ! ليس فى مقدور أحد غيرك أن يتغلب على

---

(١) Legion of Honour .

العقبات التى تحول بينى و بينك . وسيبذل صـديق دورك كل ما يستطيع من جهد ليسر لك لقائى . تعالى ! تعالى . ستنالين كل ما تشتهين ! وحتى بلدك نفسه سيكون أعز علىّ من كل شىء إذا رحمت قلبى .

***

نابليون ينصح چوزفين ألا تستخف بالمجد

وقد تكون نغمة الضجر والملل التى تسود الرسالة التالية التى كتبها إلى چوزفين هى النتيجة الطبيعية للصلة التى نشأت بين نابليون ومارى ولوسكا فى أثناء الحملة البولندية ، وفى الوقت الذى كان يعد فيه العدة للهجوم على الروسيا . وقد يكون فى إشارته إلى الأطفال فى هـذه الرسالة ما ينم عما كان يجيش وقتئذ فى صدره من آمال .

— ٨ —

« . . . . إنه قلبك لمن أطيب القلوب ولـكن عقلك ضعيف . . . . »

١٨٠٧

حبيبتى .

لقد أقلقتنى رسالتك المؤرخة ٢٠ يناير ، فهى حزينة النغمة فوق ما ينبغى . فانظرى الآن أى شقاء يلقاه من لا يعمر قلبه شىء من التقوى . تقولين لى إنك تجدين فى سعادتك ما يغنيك عن المجد . وليس فى هذا دليل على عظمتك ، فقد كان حقا عليك أن تقولى « إنى أجد فى سعادة غيرى من الناس ما يغنينى عن المجد » . وليس فيه أيضا ما يدل على أنك زوجة صالحة و إلا لقلت « إن مجدى فى سعادة زوجى » ، وليس فيـه كذلك ما يشهد بأنك أم صالحة ، و إلا لقلت « إن سعادة أبنائى هى مجدى » . فإذا كان الناس ، و إذا كان زوجك وأبناؤك ، لا يسعدون إلا إذا امتزجت سعادتهم بقليل من المجد ، فلماذا تستخفين بسعادتهم إلى هذا الحد؟ أى چوزفين ! إن قلبك لمن أطيب القلوب ولـكن عقلك ضعيف ، فأنت مرهفة الحس ولـكنك لا تحسنين التفكير .

كفى نزاعا . إنى أريد أن تكونى مرحة قانعة بما قسم لك ، مطيعة غير شاكية ولا باكية ،

بل فرحة مستبشرة ، يزينك شيء من طيبة القلب . وداعا يا حبيبتى ، إنى مسافر لأفتش مخافرى الأمامية .

نابليون

***

نابليون يلوم زوجته التى هجرها ويؤكد لها أنه باق على حبها

ظلت أسرة بونابرت زمنا طويلا تدبر المؤامرات ، وتعمل جاهدة لتطلق چوزفين من نابليون . ويذكر القارئ أن نابليون تعمد فى احتفاله الرسمى بزواج چوزفين أن يجعل هذا الطلاق مستطاعا فيما بعد . وما وافت سنة ١٨٠٩ حتى صحت عليه عزيمته . ذلك أنه كان شديد الرغبة فى أن يكون له وارث شرعى ، وقد حدث فى أثناء الحملة البولندية ما أكد له أن فى وسعه أن يكون له هذا الوارث ، إذ تبين أن الذنب فى عقمه هو ذنب چوزفين لا ذنبه هو .

وزاد حرصه على تأسيس أسرة مالكة بعد أن نجا من الاغتيال بعد ذلك بقليل .

وأخيراً أعلن نابليون أن مصالح الدولة العليا توجب عليه أن يطلق زوجته .

وحاولت چوزفين أن تثنيه عن عزمه ، ولكنها لم تستطع ، وأصر نابليون على رأيه بعد ذلك اللقاء المؤثر بينها و بينه فى مساء ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٠٩ .

ولم يجد هو مشقة فى أن يعلن فى يناير سنة ١٨١٠ أن زواجه القديم الذى عقد فى أول يوم من ديسمبر سنة ١٨٠٤ لم يكن زواجا صحيحا . وقضت چوزفين آخر أيامها فى « عزلة مجيدة » فى قصر ملميزن(١) قرب باريس ، وماتت فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨١٤ .

وأراد نابليون أن يثبت دعائم فتوحه الواسعة ، و يمكن لأسرته فى البلاد الخاضعة لسلطانه ، فاختار بعد شيء من التردد بين ويانة و بطرسبرج أن يتزوج الدوقة مارى لويز النمساوية . واستطاع الإمبراطور فرنسيس بهذا الزواج أن ينجى الدولة النمساوية المتداعية ، كما استطاع مترنيخ السياسى الداهية أن يوهن الحلف القائم بين فرنسا وروسيا .

---

(١) Malmaison .

وجرى الاحتفال بزواج نابليون فى كنيسة نتردام فى الثانى من شهر إبريل سنة ١٨١٠ . وأثمر هذا الزواج فيما بعد ملك رومة . وعاشت مطلقته چوزفين حتى خلع عن عرش فرنسا ، ولكنها لم تفقد قط حبها له . وظل هو يراسلها إلى آخر أيامه ، كما تدل على ذلك الرسالة التالية التى بعث بها إليها بعد ثلاثة أسابيع من زواجه بمارى لويز أو أقل .

— ٩ —

« .... إنه من كان مثلى لا يتغير »

كمپنى فى ٢١ إبريل سنة ١٨١٠ .

حبيبتى .

تلقيت رسالتك المؤرخة ١٩ إبريل ، وهى رسالة رديئة الأسلوب . إننى سأظل على الدوام كما كنت ، فإن من كان مثلى لا يتغير ، ولست أعرف ماذا قالت لك يوچين . إنى لم أكتب إليك قبل هذا لأنك لم تكتبى إلىّ ، ولأنى لا أحب لك إلا ما تحبين لنفسك .

ولقد سرنى أن أعرف أنك ستذهبين إلى ملميزن ، وأنك راضية . و يسعدنى أن أعرف أخبارك وأن أرسل إليك أخبارى ، ولن أقول أكثر من هذا حتى تفاضلى بين رسالتى هذه و بين رسالتك ، وسأترك لك بعد هذه المفاضلة أن تحكمى أينا خير من الآخر وأصدق مودة أنا أو أنت .

وداعا يا حبيبتى . لا تبتئسى وكونى منصفة لنفسك ولى .

نابليون

* * *

نابليون يعرف من چوزفين أن قلبها قد عاد إليها

وردت چوزفين على هذه الرسالة برسالة أخرى كررت فيها عطفها الدائم على زوجها السابق وعاهلها ، واحتفظت فى الأربع السنين الباقية من حياتها بكرامتها ، ولم تجحد فضل نابليون عليها . ولم ينس نابليون نفسه هذا العطف ، وقد ذكره وهو على فراش الموت فى جزيرة القديسة هيلانة . و إلى القارئ رسالة من رسائل چوزفين بعد طلاقها .

— ١٠ —

« .... إنه قلبي كله هو الذي يتحدث إليك »

ناڤار فى ١٠ إبريل سنة ١٨١٠ .

شكرا لك ألف شكر لأنك لم تنسنى . لقد جاءنى ولدى توا برسالتك ، وقرأتها بشغف عظيم ، ولكنى مع ذلك قضيت فى قراءتها وقتاً طويلا ، فما من لفظ من ألفاظها إلا أجرى الدمع من عينى . غير أن هذه الدموع كانت دموعا حلوة ، أعادت إلىّ قلبي كاملا ، وسيظل كما هو الآن إلى آخر حياتى . إن من الشعور ما هو من صميم الحياة نفسها ، وما لا ينقضى إلا بانقضائها .

ولشد ما أحزننى أن رسالتى التى بعثت بها إليك فى التاسع عشر قد ساءتك ، ولست أذكر ألفاظها كلها ولكنى أذكر ذلك الشعور المؤلم الذى أملاها علىّ . إن الذى أملاها هو الحزن الذى غمرنى لأنى لم أتلق كلمة واحدة منك .

لقد كتبت إليك حين غادرت ملميزن ، وكم من مرة بعد ذلك الوقت حاولت أن أكتب ا ولكنى كنت أحس بأسباب سكوتك ، وخشيت أن يكون فى الكتابة إليك إلحاح منى لا ترتضيه . ثم جاءت رسالتك فكانت بلسما لجراحى . فكن سعيدا ، كن سعيدا بقدر ما تستحق من السعادة . إن قلبي كله هو الذى يتحدث إليك . فلقد وهبتنى أنا أيضاً نصيبى من السعادة وهو نصيب أشعر به كل الشعور ، وليس شىء أعظم من هذا الشعور قدرا وأقوى أثرا فى تذكيرى بفضلك .

وداعا يا صديقى وأشكرك شكراً لا يقل عن حبى الدائم لك .

جوزفين

نابليون يفشى أسراره الحربيـة إلى الامبراطورة مارى لويز

كان ممـا قاله نابليون لمترنيخ[١] عقب زواجه بمارى لويز عام ١٨١٠ أنه « بدأ يعيش ، وأنه كان يبغى من زمن بعيد أن يكون له بيت ، وأنه قد نال آخر الأمر بغيته » .
وتكشف رسائل نابليون إلى مارى لويز عن علاقته بزوجته الثانية . وقد ظلت هــذه الرسائل سرا مكنونا لدى أسرة الأميرة النمساوية أكثر من مائه عام ، ثم باعت منها فى عام ١٩٣٥ ثلثمائة وثمانى عشرة رسالة إلى الحكومة الفرنسية ، وسمحت هذه الحكومة بنشرها .

وكان نابليون يكتب إلى مارى لويز من ميادين القتال فى الروسيا وألمانيا وفرنسا . وقد كتب إليها الرسالة التالية فى يوم مشئوم هو يوم ٢٣ مارس سنة ١٨١٤ ، وكتبها فى خيمته حيث كان يكتب كثيراً من رسائله .

— ١١ —

« وداعا يا حبيبتى . وقبلتى إلى ولدى »

٢٣ مارس سنة ١٨١٤ .

حبيبتى ! لقد قضيت جميع الأيام القليلة الماضية فوق ظهر جوادى ... ولقد استوليت على أرسى — على — نهر أوب[٢] فى العشرين من هذا الشهر . وهجم علىّ العدو فيها والساعة ٦[٣] مساء ، ولكننى انتصرت عليه فى اليوم نفسه ، وقتلت (٠) ٤٠٠ ، من جنوده ، واستوليت على مدفعين من مدافعه ، وغنم هو مدفعين من مدافعى ، فكنا من هذه الناحية فرسى رهان . وفى اليوم الحادى والعشرين تجمع جيش العدو ليحمى قوافل مؤنه المتجهة إلى برين[٤] وبار — على — نهر أوب[٥] ، فقررتُ حينئذ أن أتجه إلى المارن[٦] وإلى خط اتصاله

(١) Metternich .

(٢) Arcis-sur-Aube .

(٣) يوجد رقم ٢ فوق هذا الرقم .

(٤) Brienne .

(٥) Bar-sur-Aube .

(٦) Marne .

لأدفعه بعيدا عن باريس ، وأقترب من حصونه . وسأصل بعد ظهر اليوم إلى سانت ديزييه[١] . وداعا يا حبيبتى وقبلتى إلى ولدى . ناپ

* * *

هذه هى الرسالة الشهيرة التى وقعت فى يد العدو ، وكانت سبباً فى هزيمته سنة ١٨١٤ وفى نفيه إلى جزيرة إلبا[٢] . والتى خسر على أثرها عرش فرنسا والسيادة على أوربا . ذلك أن الرسالة التى شرح فيها ناپليون خطته وقال إنه سيسير إلى المارن ليبعد العدو عن پاريس قد كشفت لبلوخر[٣] القائد الألمانى عما كان فى حاجة إلى معرفته .

ولما عرفت مارى لويز أن الرسالة وقعت فى يد العدو كتبت إلى دوقه منتبلو[٤] تقول : « لقد سمعت الآن أن الرسول الذى كان قادما إلينا فى الثالث والعشرين قد قبض عليه — يا لسوء الحظ ! إن هذا يحزننى ! » . وما أصدق ما قالت ، فإن الرسول كان يحمل أنباء فى غاية الخطورة . وبعد أن أطلع بلوخر على الرسالة بعث بها إلى الإمبراطورة معتذرا عن فتحها فى أدب الساخر المتهكم وقال : إنه « يضعها تحت أقدام الابنة العظيمة لجلالة إمبراطور النمسا » .

وعرف الحلفاء ما يعتزمه ناپليون ، عرفوا أنه أدار ظهره إلى پاريس وترك الطريق إليها خاليا ، فاندفع المغيرون فى هــذا الطريق . وأنبأت مارى لويز سفارى[٥] وزير الشرطة بالحادث ، ولــكنه عجز عن إدراك الخطر المحدق بالمدينة ، ولم يبلغ النبأ للإمبراطور فى الوقت المناسب ، بل تركه كله للأقدار .

* * *

وكانت خاتمة الرسائل التى بعث بها ناپليون إلى مارى لويز رسالة من إلبا يعتذر فيها عن نفيه ، ويرجوها ويأمرها أن توافيه إليها ، ولــكنها لم تحقق رجاءه أو تطع أمره ، ثم أنذرها بأنه سيختطفها عنوة إذا لم تستجب لرجائه ، ولــكنها أصرت على عصيانه . وتم بذلك افتراقهما ؛ وبقيت مارى لويز فى ڤينا أثناء الأيام المائة — بين فراره من إلبا وموقعة ووترلو — ولم تفعل شيئا تساعده به فى فرنسا . وفيها أحبت الــكنت ڤن نايپرج[٦] ثم تزوجته ، وكان

---

(١) Dizier .
(٢) Elba .
(٣) Blücher .
(٤) Montebello .
(٥) Savary .
(٦) Count Von Neipperg

الـكنت قد ساعدها على الفرار من فرنسا مع ولدها ، حين خلع نابليون أول مرة . وانتهى الأمر بأن قطعت الدوقة كل صـلة لها بنابليون ، وذكرها هو فى وصيته بحنان ظاهر وعفا عنهـا وصفح عن خيانتها له . وعاشت بعده ستا وعشرين سـنة وماتت فى ويانه عام ١٨٤٧ .

أما ماجرى لنابليون بعد وقوع هذه الرسالة فى يد العدو فحسبنا أن نذكر إلبا ووترلو وجزيرة القديسة هلنا . وكان آخر ما نطق به وهو على فراش الموت ، فرنسا ! . . . . الجيش ! . . . . رأس الجيش ! . . . .

چورفين .

نابليون بونابرت يطلب حماية إنجلترا بعد واقعة ووترلو

[رسالته إلى الوصى على العرش]

من أعظم ما يشتهر به نابليون فراسته وصدق حكمه على الرجال والحوادث ، ولـكن هذه الصفة أخذت تفارقه بعد عام ١٨٠٢ . وشاهد ذلك أنه أقدم على الحملة الروسية على الرغم من نصيحة أعظم قواده وأكثرهم حنكة ، وأنه ارتكب فى أثناء هذه الحملة نفسها عـدة أغلاط موبقة . وجاءت بعد سنة ١٨١٢ سنتان أخريان حاول فيهما أن يصلح بعض أغلاطه ؛ ثم كانت ليبزج ، واعتزاله الملك أول مرة ثم إلبا . وفى تلك المدة لم تفارق نابليون براعته وإن فارقته فراسته وفارقه صدق حكمه الذى كان يمتاز به فى سنى سطوته الأولى .

ثم تجددت عظمة نابليون ، واستيقظت فيه من جـديد عقليته الجبارة فى فترة المائة يوم — بين فراره من إلبا وواقعة ووترلو — حتى ليستطيع الإنسان أن يقول إن عبقريته لم تظهر فى وقت من الأوقات كما ظهرت فى تلك الأيام . لقد كانت الخطة التى رسمها على الورق لواقعة ووترلو خطة بارعة ما فى ذلك شك . ولـكن قواده عجزوا عن تنفيذها ، ولعل شعور نابليون بأفول نجمه قد انتقل منه إلى ناى[١] وكان سبباً فى نضوب خيال جروشى[٢] .

(١) Ney .   (٢) Grouchy .

وهكذا خسر نابليون ووترلو ووقّع فى ٢٢ يوليه صك نزوله الثانى عن العرش ، وفى ٩ يوليه نفى من فرنسا ، وبعد أربعة أيام من نفيه كتب الرسالة التالية إلى الوصى على عرش إنجلترا :

— ١٢ —

« ... ختمت حياتى السياسية ... »

[فى ١٣ يوليه سنة ١٨١٥]

... يا صاحب السمو الملكى :

لقد خررت صريعا أمام الحزبية التى قسمت بلادى شيعا ، وأمام عداوة أعظم دول أوربا ، ولهذا ختمت حياتى السياسية وجئت كما جاء تمستكليز[١] لاجئا إلى كرم الشعب الإنجليزى ، أضع نفسى تحت حماية قوانينه ، وهى الحماية التى أطلبها إليك يا صاحب السمو الملكى ، لأنك أقوى أعدائى ، وأثبتهم وأكرمهم .

نابليون

وليس ثمة ما يبرر إرسال هذا الخطاب حتى ولا ظروف نابليون المؤسفة . فقد كان خليقا به أن يعرف أن الوصى لم يؤت من الشهامة ما يدفعه إلى نجدة نابليون ؛ وإن إرسال هذه الرسالة لدليل واضح على أن ما عرف عنه من حكمة وفراسة قد أخذ يفارقه .

وما من شك فى أن الوصى على العرش لم يكن يستطيع إنقاذ نابليون حتى لو أراد . لقد كانت الحكومة الإنجليزية كسائر الحكومات الأوربية مصممة على أن تضع نابليون فى مكان لا يستطيع الفرار منه . واختارت لهذا الغرض جزيرة القديسة هلنا ، وهى صخرة فى المحيط الأطلنطى الجنوبى تبعد نحو ١٧٠٠ ميل عن مدينة الرأس أقرب ثغر كبير لها .

---

(١) Themistocles

من رسائل لدفج فان بيتهوفن

إلى محبوبته الخالدة وإلى أخويه كارل وجوهان

لسنا نعرف كيف استطاع لدفج فان بيتهوفن أن يجد من الوقت ما يكفي لكتابة رسائله الكثيرة ، ولعل هذا من أسرار عبقريته النادرة . لقد كنا نظن أن أغانيه ومسرحياته وقطعه الموسيقية الخالدة تشغل ليله ونهاره ، ولا تترك له من الساعات الأربع والعشرين ما يستطيع أن ينفقه منها فى غير هذه الأعمال . ولكنه استطاع بمعجزة من المعجزات أن يجد متسعاً من الوقت ينفقه فى غير الأغانى والأناشيد والمسرحيات الغنائية ، ومما هو أشد اتصالا منها بمآسى الحياة الإنسانية وضروراتها ، كالوحدة واليأس والحب . وتراه حين يجد هذا الوقت يفرغ على قلمه ما يفيض به قلبه .

وكان بيتهوفن فى موسيقاه متحفظا يفرض على نفسه أشد القيود ، أما فى رسائله فهو يطلق لنفسه العنان ، ويتدفق شعوره كالسيل . وهذه الرسائل إذا قرأها الإنسان فى ضوء الروائع الموسيقية التى كان ينشئها وقتئذ ، تكشف له عن كثير من أسراره . فمنها يعرف تلك النائبات التى كان بيتهوفن يصارعها ، وكيف أصبح بفضل هذا الصراع من أبطال التاريخ . ولقد أوتى بيتهوفن من القوة ومتانة الخلق ما استطاع به أن يموت كما عاش مخلصاً للفن مضحياً فى سبيله .

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر من حياته أكثر من أنه ولد فى عام ١٧٧٠ ، وأنه سافر إلى ويانه فى عام ١٧٩٢ أى فى الثانية والعشرين من عمره ، ليدرس على هايدن[١] ، وأن السنين الثمانى التالية كانت أسعد سنى حياته ، فقد كان فيها محبوبا فى الأوساط الأرستقراطية ، وعرف فيها بحبه للطبيعة والطعام الشهى والشراب ورفقة الصحاب ، وأن مدينة ويانه وعالم الموسيقى بأكمله أقرا له بالسيادة فى حداثة سنه ، وأن دلائل الصمم بدأت تظهر عليه فى آخر سنى القرن الثامن عشر ، وأنه قضى معظم حياته يكافح الحزن والمرض ، وأنه أبلغ السمفونية ذروتها ، وأنه مات فى عام ١٨٢٧ .

---

(١) Haydn

وقد وجدت الثلاث الرسائل التالية بعد وفاة بيتهوفن محفوظة فى صندوق مع عدة صكوك مالية ، ولأمر ما لم يرسلها بيتهوفن إلى من كان يريد إرسالها إليها .

وهى تدل على أن هذا الرجل القصير البدين الذى قاسى من الآلام أعظمها ، والذى أصابه الصمم وهو أحوج ما يكون إلى حاسة السمع ، نقول إن هذه الرسائل لتدل على أنه كان رجلا محبا مخلصا فى حبه ، جياش العواطف بطبعه . ولسنا نعلم علم اليقين من هى « الحبيبة الخالدة » التى كتب إليها بيتهوفن هذه الرسائل ، وليس لدينا مانستدل به على شخصيتها ، وأكبر الظن أنها واحدة من ثلاث هن : الكونتيه چيليتا چويشياردى[١] التى أهدى إليها أنشودة « ضياء القمر » ، وتريزا برنزويك[٢] ، وبتينا برنتانو فن أرمين[٣] . وإذا لم تكشف لنا رسائل غير التى نعرفها ما يميط اللثام عن حقيقتها فستبقى كما هى « الحبيبة الخالدة » وكفى .

وكان بيتهوفن ممن يؤمنون بضرورة الزواج ، ويرغبون فيما يهيئه البيت من راحة ورفقة ومتعة ، ولكنه مع ذلك لم يتزوج . ولعل سبب هذا أن المرأة التى كان يرى أنها قادرة على أن تنيله ما يطمع فيه من هناءة لا ترضى بالحياة مع هذا الرجل الثائر العنيد ، القليل العناية بمظهره . وقد تكون عبقريته وصممه هما اللذين أبعداه عن طريق الحياة الزوجية ، أو لعل هناك أسبابا أعمق من هذه وأشد تأصلا فى طبعه ، جعلته لا يلتئم مع هذه الحياة . ومهما تكن هذه الأسباب فأكبر الظن أنها ستظل هى أيضا سراً مطويا .

وما من شك فى أن رسائل الحب التالية قد فاض بها قلب جياش بالعاطفة ، عرف السرور فى بعض أيام حياته .

وكتب بيتهوفن هذه الرسائل فى السنة الواحدة والثلاثين من عمره ، حين أخذ يفقد سمعه قبيل السنين السوداء وسنى العزلة ، وقبيل أن يكيل له الدهر ضرباته القوية ، ولكن نُذُر هذه المصائب كانت مع ذلك تلوح فى أفق حياته ، ولسبب ما لم ترسل هذه الرسائل إلى الحبيبة التى كتبت إليها ؛ ويلاحظ أن معظمها عبارة عن فقرات متقطعة قليلة التماسك ، تدل على ما فى نفس كاتبها من اضطراب .

---

(١) Countess Giulietta Guicciardi

(٢) Thérèse von Brunswick

(٣) Bettina Brentano von Armin

— ١٣ —

« ... كونى كلك لى كما أنا كلى لك »

فى صباح ٦ يوليه [١٨٠١]

ملاكى ، كلى ، نفسى ، لن أكتب لك اليوم إلا كلمات قليلة ، وسأكتبها بالقلم الرصاص (بقلمك أنت) — لن أصمم على المسكن الذى سأقيم فيه إلا غداً — وما أكثر ما أضعت من الوقت ؛ ولم هذا الحزن العميق ونحن ملزمون أن ننطق بما تكنه الصدور ؟ وهل يدوم حبنا إلا بالتضحية ، و بألا نطلب كل شىء ؟ وهل فى مقدورك أن تبدليه بحيث لا تكونين كلك لى ولا أكون كلى لك ؟

رباه ! أنظرى إلى جمال الطبيعة وانعمى بما لا بد أن تنعمى به — إن الحب يتطلب منا كل شىء ، وذلك عدل دون ريب — وهو شأنى معك وشأنك معى . ولو أننا كنا معا لما شعرتِ بألم الحب ولما شعرتُ أنا به . لقد كانت رحلتى شاقة مزعجة ، ولم أصل إلى هذا المكان إلا فى الساعة الرابعة من صباح أمس ، فقد اضطرت عربة السفر العامة إلى اتخاذ طريق غير الطريق المعتاد ، لأننا لم يكن لدينا خيل ، وما كان أشق هذا الطريق وأفظعه .

ولقد حُذِّرت فى المرحلة التى قبل الأخيرة من السفر ليلا لأن فيها غابة مخيفة ، ولكن هذا التحذير لم يزدنى إلا رغبة فى السفر ، ثم تبين لى أنى أخطأت فى عدم الإصغاء إليه ، فلقد تعطلت العربة فى الطريق القذر المملوء بالأوحال ؛ ولولا من كان معى من السائقين لاستقرت بى فى الطريق . ولقد لقى إسترهارزى[١] وهو يجتاز طريقه المعتاد بخيله الثمانية مثل ما لقيت بخيلى الأربعة ، ولكن ذلك سرنى بعض السرور ، وهو ما أشعر به على الدوام حين أفلح فى التغلب على بعض الصعاب .

والآن فلننتقل على الفور من الأشياء الخارجة عنا إلى ما هو أشد صلة بنفوسنا . ولكن

(١) Esterharzy

ما لنا ولهذا فنحن سنتلاقى قريبا دون شك ؛ هذا فضلا عن أننى لا أستطيع أن أنقل إليك ما لاحظته فى الأيام القليلة الماضية خاصا بحياتى . ولو أننا كنا متقاربين على الدوام لما كنت فى حاجة إلى نقل هذه الملاحظات . إن فى قلبى أشياء كثيرة أحب أن أفضى بها إليك — آه — تمر بى لحظات أشعر فيها أن الألفاظ تعجز عن التعبير عما فى القلوب — ابتهجى — ودومى لى ذخرى الحق الذى ليس لى ذخر سواه — كونى كلك لى كما أنا كلى لك . وسيبعث إلينا الله بتلك الراحة التى هى خير ما نرجوه لأنفسنا .

المخلص لك

لدفج

— ١٤ —

« . . إنه حبك لى عظيم ولكن حبى لك أعظم . »

فى مساء الاثنين ٦ يوليه

إنك متألمة يا أعز الناس على — لم أعلم إلى الآن أن الرسائل يجب أن ترسل فى الصباح الباكر ، وأن يومى الاثنين والخميس هما وحدهما اليومان اللذان تسير فيهما عربة البريد من هنا إليك . إنك متألمة — آه ! حيث أكون أنا تكونين أنت أيضا . سأرتب الأمور بحيث أكون معك . ألا ما أشق الحياة !!!! على هذا النحو !!!! من غير أن تكونى معى — إن أفضال الناس تلاحقنى هنا وهناك — وهى أفضال لست جديراً بها ولا أعمل لأن أكون جديراً بها .

إن أشد ما يؤلمنى هو خضوع الإنسان للإنسان — وأنا حين أفكر فى نفسى ، وفى صلتى بالكون ، أعجب من شأنى وشأن ما نسميه أعظم ما فيه — ومع ذلك — فإن هذا التفكير هو الذى ينطوى عليه ما فى الإنسان من قدسية — إننى حين أتصور أنك لن يصلك أول خبر منى قبل يوم السبت أبكى من شدة الحزن — إن حبك لى عظيم ولكن حبى لك أعظم ، وأستحلفك ألا تخفى أفكارك عنى . عمى مساء — فأنا مضطر أن آوى إلى الفراش لأنى خارج فى هذه الساعة من الحمام . آه يا إلهى ! ما أقربك إلىّ ، ولكن

ما أبعدك عنى — أليس حبنا فى حقيقة الأمر صرحا سماويا — قويا ثابتا ثبات قبة السماء .

— ١٥ —

« هل تستجيب لنا الأقدار . . . ؟ ؟ ؟ ؟ »

فى ٧ يوليـه .

صباح الخير

إنى لا أزال فى فراشى ، ولـكن أفكارى تحوم حولك يا حبيبتى الخالدة ، وهى آنا أفكار سارة وآنا حزينة — أريد أن أعرف هل تستجيب لنـا الأقدار ؟ فإما أن أعيش كلى معك وإما ألا أعيش أبدا — نعم إنى عازم على أن أظل أمدا طويلا أجول بعيـدا عنك ، حتى تأتى الساعة التى أستطيع فيهـا أن أطير بين ذراعيك ، وأقول إننى بحق فى موطنى ، وأبعث بروحى ملتفة فيـك إلى أرض الأرواح . نعم ذلك مع الأسف هو ما لا بد أن يكون . . . ، إنك تعلمين وفائى لك وتعلمين أن أحدا غيرك لا يمكن أن يتملك قلبى — لا أحـد مطلقا . أى إلهى ! لم قدرت أن يفـترق الإنسان عمن يحب ؟ إن حياتى الآن فى ويانة لهى شـقاء فى شقاء — وإن حبك ليجعلنى أسعد الناس وأشقاهم معا — إنى أحتاج فى هذه السن إلى حياة مطمئنة هادئة — فهل يمكن أن تتاح لى هـذه الحياة فى أحوالنا هذه ؟ ملاكى ! لقد علمت فى هذه الساعة أن عربة البريد تسافر كل يوم ، ولهذا فإنى مضطر أن أختم الرسالة حتى تصلك فى الحال . خفنى عنك . وإذا لم تفـكرى فى حياتنا تفكيرا هادئا فإنا لن نستطيع أن نصل إلى ما نبتغيه من الحياة معا . خفنى عنك — وأحبينى — ما أكثر ما أذرفتُ من الدمع — اليوم — وأمس — شوقا إليك — أنت — أنت — حياتى — كلى — الوداع — حافظى على حبـك لى — ولا تشكى قط فى قلب محبك الوفى المخلص ل .

فأنا لك أبدا
وأنت لى أبدا
وكلانا للآخر أبدا

وقد رفضت جيليتا الحسناء أن تتزوج بيتهوفن وفضلت عليه الكونت جلنبرج[1] ، وكان عملها هذا شديد الوقع على الفنان الشاب . . . ولم يتزوج قط . وقد أوحت إليه هي والكونتة تريز أخت صديقه فرانز فن برنزويك[2] كثيرا من أغانيه وقطعه للموسيقية الخالدة .

(١) Gallenberg

(٢) Franz von Brunswick

لدفج ڤان بيتهوڤن يستعد لمحتوم القضاء

[عهد هيليجنستات]

لم يعثر على الرسالة التالية وهى المعروفة بعهد هيليجنستات[١] إلا بعد عام من وفاة بيتهوڤن ، ولم يكن يريد إرسالها إلى أخويه ، ولكنه كتبها ليريح قلبه من عبء ثقيل كان ينوء به ؛ وهى من هذه الناحية شبيهة برسائل حبه الثلاث . وقد كتبها فى عام ١٨٠٢ فى السنة الثانية والثلاثين من عمره حين كان يقضى وقته فى قرية هيليجنستات بالقرب من ويانة . وكانت آثار الصمم قد بدأت تظهر عليه من عام ١٧٩٩ ، وكان أول أعراضه طنينا فى أذنيه .

ونحن نراه فى هذه الرسالة بعد عامين من بداية مرضه ، و بعد أن تردد على كثيرين من الأطباء دون جدوى ، يستسلم للأقدار و يعتقد أن هذه الكارثة كانت « أمراً محتوما ، وقضاء لا مرد له » .

وكان بيتهوڤن كلما زادت كارثة الصمم الكامل اقترابا منه زاد اضطرابا ، حتى وصل اضطرابه هذا إلى الفزع فالجنون فاليأس ثم التحدى .

ولم يتخذ هذا التحدى صورة الحقد أو الغيظ أو الثورة على الأقدار ، بل ظهر فى صورة جهود جبارة فى عالم الفن ، تجلت فيها عبقريته بأجلى مظاهرها .

ومرت فى هذا الوقت نفسه فترة من الزمن ظن فيها أن صممه كان قصاصا منه لذنب ارتكبه ، فحرمه الله بسببه أعظم مواهبه . وفى هذا الوقت وضع عدداً من الآيات الفنية الرائعة استطاع بها أن يجتاز أزمته ومأساته .

— ١٦ —

« ... لقد تملكنى الرعب الشديد ..... »

إلى أخوى كارل وچوهان بيتهوڤن[٢] :

أيها الناس ، يا من تظنون أنى حقود ، عنيد ، كاره لبنى جنسى ، ما أشد ما تظلموننى

(١) Heiligenstadt (٢) Karl and Johann Beethoven

لأنكم لا تعرفون السبب الخفي لذلك المظهر الخارجي الذى أبدو فيه . لقد كان قلبي وعقلي من أيام طفولتي متفقين مع إرادتي الطيبة ، وكنت حريصا أشد الحرص على القيام بأعظم الأعمال . ثم فكروا الآن فى أننى قد غدوت من ست سنين فى حال من الشقاء لم أجد للنجاة منها سبيلا ، وقد زادها حدة أطباء لا يعقلون ؛ وظللت أمنى عاما بعد عام بصلاح حالى ، لكن آمالى تحطمت ، حتى رأيت آخر الأمر ألا بد من الاستسلام لعاهة مستديمة (قد يتطلب علاجها سنين طوالا وقد يكون الشفاء منها محالا) . لقد ولدت مرهف الحس طروبا ، وقد لا أكون مخطئا إذا قلت إنى ولدت ميالا إلى مباهج المجتمعات ، لكنى اضطررت ولما أزل فى بداية حياتى إلى الابتعاد عن الناس ، و إلى العيش فى عزلة ؛ وحاولت فى بعض الأحيان أن أنسى هذا كله ، ولكن التجربة المؤلمة — وهى ضعف سمعى — كانت تصدمنى فتذكرنى على الرغم منى بما أنا فيه ، ولم تكن نفسى تطاوعنى أن أقول لمن يتحدثون إلى : « ارفعوا أصواتكم واصرخوا لأنى أصم » .

وكيف أستطيع الاعتراف بعاهة تصيبنى فى الحاسة التى يجب أن تكون فىَّ أرقى مما هى فى سائر الناس ؛ حاسة بلغت فى وقت من الأوقات غاية الكمال ، لا يتمتع بمثلها أحد من أبناء مهنتى فى هذه الأيام ، ولم يتمتع بمثلها أحد من قبلى — آه ! إنى لا أستطيع أن أعترف بها ، ولهذا أرجو أن تصفحوا عنى إذا رأيتمونى أبتعد عنكم فى الوقت الذى كان يسعدنى فيه أن أختلط بكم ؛ ويضاعف من وقع الكارثة التى حلت بى أنها تجعل الناس يسيئون فهم مظهرى ، وأنى لا أستطيع أن أصحبهم فى رياضتهم ، أو أشترك معهم فى حديثهم الراقى أو أن أتبادل و إياهم الأفكار ، أو أن أغشى المجتمعات إلا القليل الذى تحتمه علىَّ الضرورة القصوى .

ولا بد لى أن أعيش كالطريد المنفى ، إذا اقتربت من الناس لأتحدث إليهم تملكنى الرعب الشديد ، وخشيت أشد الخشية أن يعرفوا حقيقة أمرى — ولقد كانت هذه حالى فى نصف السنة الأخير الذى قضيته فى الريف ، حين أمرنى طبيبى النابه أن أريح سمعى قدر المستطاع . وكان هذا مما يلائم مزاجى فى تلك الأيام ، ومع ذلك كنت أحيانا أعصى أمره وأطيع رغبتى فى غشيان المجتمعات . على أننى شعرت بالذلة فى يوم من الأيام حين وقف

إنسان إلى جانبي وسمع صوت ناى على بعد ولم أسمع أنا شيئا ، وحين سمع إنسان آخر راعيا يغنى وعجزت أنا عن سماعه . وقد أسيت لذلك وجزعت ، وكدت أفقد آمالى ، ولو طالت بى هذه الحال لقضيت على نفسى بيدى . لكن الفن وحده حال بينى وبين هذه الخاتمة . فقد بدا لى أنى لا أستطيع الخروج من هذا العالم حتى أخرج له ما أشعر أنى مطالب بإخراجه ؛ ولهذا صبرت على هذه الحياة التعسة — التعسة حقا — فهاهو ذا جسم شديد التأثر ، يستطيع تغير مفاجيء فيه أن يبدله من أحسن حال إلى أسوإها . وهم يقولون لى إن من واجبى أن أتذرع الآن بالصبر وأتخذه هاديا لى ، ولقد قبلت نصحهم وآمل أن تظل عزيمتى قوية ثابتة حتى يدنو أجلى وأقضى نحبى ؛ وسواء على حسنت حالى أو ساءت ، فإنى مستعد لملاقاة الأقدار .

ولقد اضطررت ولما أتجاوز الثامنة والعشرين من عمرى لأن أكون فيلسوفا ، وما أصعب هذا على النفس — وهو على نفس الفنان أصعب منه على نفس أى إنسان آخر — آه يا إلهى إنك مطلع على سرى ونجواى ، وأنت تعلم ما أخفى وما أعلن ، وتعرف مقدار حبى لبنى جنسى ، وما يتملكنى من رغبة فى إسداء الخير لهم . أيها الناس إذا قرأتم هذه الكلمات فى يوم من الأيام فلا تنسوا أنكم قد أسأتم إلى ، ومن كان فيكم بائسا فليتأس حين يجد أحد أبناء جنسه قد بذل غاية جهده ليحشر نفسه فى زمرة الفنانين ، والرجال النابهين ، رغم ماقام فى طريقه من عقبات طبيعية .

أما أنتما يا أخوى كارل و [چوهان] فعليكما ساعة وفاتى أن تطلبا باسمى إلى الدكتور شميد[1] — إن كان وقتئذ على قيد الحياة — أن يصف لكم مرضى ، وأن يضع هذه الوثيقة مع قصة هذا المرض ، لعل العالم يرضى عنى بعض الرضا بعد وفاتى . وإنى أعلن فى الوقت نفسه أنكما الوارثان لثروتى القليلة (إن صح أن أسميها ثروة) ، تقتسمانها فيما بينكما بالتساوى ، كما أوصيكما بأن يحتمل أحدكما الآخر ويساعده ؛ وإن كنتما قد أسأتما إلى فقد علمتما أنى عفوت عن هذه الإساءة من أمد بعيد .

ولك منى يا أخى كارل أعظم الشكر لما أظهرته نحوى أخيرا من رعاية ، وإنى لأرجو

---

(١) Dr Schmid

أن تكون حياتكما خيرا من حياتى وأبعد منها عن المتاعب . أوصيا أبناءكما بالاستمساك بالفضيلة فهى وحدها سبيل السعادة ، وليس سبيلها هو المال ؛ إنى أحدثكما حديث المجرب ، وأقول لكما إن الفضيلة وحدها هى التى أعانتنى فى بؤسى ، وإليها بعد الفن يرجع الفضل فى أنى لم أختم حياتى بالانتحار .

والآن أستودعكما الله ، وأوصيكما بأن تتحابا ، وأقدم الشكر لجميع أصدقائى ، وبخاصة للأمير لكنوسكى(١) والأستاذ شميد .

وأرجو أن يحتفظ أحدكما بالآلات التى جاءتنى من الأمير ل ، على ألا يكون هذا مثاراً للنزاع بينكما . وحين تجدان أن بيعها خير لكما فعجلا ببيعهما ، لأنى يسرنى كل السرور أن أكون ذا فائدة لكما وأنا فى قبرى . إنى أخطو إلى الموت مسرورا بخطا سريعة . وإذا مت قبل أن تتاح لى فرصة إظهار جميع مواهبى الفنية ، فإن الموت يكون قد عاجلنى ولما يحن أجلى ، وكنت أتمنى أن يمهلنى على الرغم مما أقاسيه من نكبات . على أننى مع هذا أموت راضياً ، لأنى بذلك أنجو من عذاب لا آخر له ؟

فياموت زر متى شئت فستجدنى متأهبا للقائك فى غير خوف .

والآن أستودعكما الله ، وأوصيكما ألا تنسيانى بعد وفاتى ، إنى استحق منكما هذه الذكرى ، فكثيرا ماذكرتكما فى حياتى ، واجتهدت أن أوفر لكما أسباب السعادة — كونا كذلك —

لدفج فان بيتهوفن

(ختم)

هيجلنستات (هكذا كتبت)

فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢

إلى أخوى كارل و [جوهان] ليقرآها ، وينفذاها بعد وفاتى .

هيجلنستات (هكذا كتبت) فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ . بهذا أودع — فى حزن وأسى — ذلك الأمل المحبوب — الذى كان ينطوى عليه قلبى حين قدمت

---

(١) Prince Lichnowsky

إلى هذا المكان رجاء أن أشفى من بعض مابى على الأقل . أما الآن فقد خاب الرجاء ، وتبددت الآمال ، وتساقطت كما تساقط أوراق الخريف ، وأعود من هذا المكان كما جئت إليه ، بل أعود منه أسوأ حالا ، لأن شجاعتى التى طالما بعثت الأمل فى نفسى أيام الصيف الجميلة قد فارقتنى — آه يا إلهى — هبنى ولو يوما واحدا من السرور الخالص — فقد مضى وقت طويل مذ تردد صدى هذا السرور الخالص فى صدرى . آه متى — متى يا إلهى — أجد هذا السرور فى معبد الطبيعة والإنسان ؟ ألا أجده أبداً ؟ كلا إن هذا يكون شديد الوقع علىّ لا يطيقه قلبى .

* * *

وعاش بتهوفن بعد أن كتب هذه الرسالة خمسا وعشرين سنة أبدع فيها غرراً من آيات الفن الخالدة المختلفة الأنواع ذلك أنه لم يرض لنفسه أن يستسلم للأقدار ويصاغر وخامل ، أو يقضى وقته فى الثورة والاحتجاج الذى لا يفيد ، بل استجمع كل ماوهبه الله من قوة وقرر أن يرفع نفسه إلى ذروة المجد ، بما يخرجه من روائع الفن ، وأن يسمو بها فوق الأطباء والأنصار والأصدقاء والأحباب ، بل فوق مصائب الدهر نفسها . وكان له ما أراد .

لورد نلسن يبعث إلى إما هملتن رسالة حب ووداع قبل واقعة طرف الغار

ارتفع شأن إما ليون أو إما هارت[١] من فتاة من بنات الطرقات حتى أصبحت زوجة سير وليم هملتن[٢] سفير بريطانيا فى نابلى ، وحبيبة لأمير البحر نلسن . تزوجها سير وليم فى عام ١٧٩١ وهى فى السادسة والعشرين من عمرها . وليس لدينا من الأدلة على أنها كانت تحب نلسن أكثر مما لدينا على أنها كانت تحب زوجها ، وكل ما نستطيع أن نجزم به هو أن كلا الرجلين كان عبداً لمطامعها .

قابلت هذه السيدة نلسن أول مرة فى عام ١٧٩٣ ، وفى عام ١٧٩٨ أصبح من رواد مجتمعاتها حين كان يستجم فى نابلى من جرح أصيب به فى واقعة أبى قير البحرية ؛ وعاد نلسن إلى إنجلترا مع سير وليم وزوجته فوجد الخاصة يتحدثون عن علاقته بزوجة سير وليم ، ولكن أعماله الحربية غطت على سيرته الخلقية وبخاصة بعد انتصاره فى واقعة كبنهاجن . على أن أكثر ما كان يعيبه عليه أولئك الخاصة أنفسهم لم يكن هذا العمل فى حد ذاته بل قلة ذوقه وعدم توفيقه فى اختيار من يحب . وهجر نلسن زوجته وعاش مع آل هملتن إلى أن مات سير وليم فى عام ١٨٠٣ . وما من شك فى أنه كان يود لو استطاع أن يتزوج إما لو رضيت زوجته أن تطلق منه .

وعين نلسن فى شهر مايو من عام ١٨٠٥ قائداً لأسطول البحر الأبيض المتوسط . وكانت السنتان والنصف السنة التى أعقبت هذا التعيين فترة نشاط عظيم ارتفع فيها نلسن إلى أعظم درجات المجد . وكتب فى التاسع عشر من شهر اكتوبر رسالة إلى إما أتمها فى اليوم التالى حين كانت القوى البحرية المتعادية تتأهب للقتال عند طرف الغار :

---

(١) Emma Hart أو Emma Lyon (٢) Sir William Hamilton

— ١٧ —

« لعل إله الحرب يتوج جهودى بالنصر . . . »

على ظهر السفينة فكتري فى ظهر اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٠٥ على بعد ستة عشر فرسخاً من قادز[١] إلى شرق الجنوب الشرقي .

إلى أعز الناس لدي ، صديقتي وحبيبة قلبي إما . أعطيت الإشارة بأن أساطيل العدو المتحدة تخرج من الميناء . والريح الآن هادئة جداً ولهذا فأنا قليل الرجاء فى أن أري هذه الأساطيل قبل غد ، ولعل إله الحرب يتوج جهودى بالنصر . ومهما يكن من أمر فإنى سأحرص على أن يكون اسمى عزيزاً عليك وعلى هوراشيا[٢] فأنتما اللتان أحبكما حبى لحياتى نفسها . وكما أن آخر ما أكتبه قبل الواقعة سيوجه إليك ، فكذلك أرجو أن يطيل الله حياتى حتى أتم رسالتى بعدها . بارك الله فيك ، وهذا مايرجوه لك .

نلسن وبرنتيه[٣]

فى ٢٠ أكتوبر

كنا فى صباح اليوم قريبين من مدخل المضيق ، ولكن الريح لم تتجه نحو الغرب بحيث تكفى لأن تمكن الأساطيل المتحدة من اجتياز المياه الضحلة القريبة من طرف الغار ، ولكننا أحصينا ما لا يقل عن أربعين شراعا من أشرعة السفن الحربية ، وأظنها أربعاً وثلاثين بارجة وست فرقاطات . وقد شاهدنا طائفة منها فى هذا الصباح بالقرب من منارة قادز ، ولكن الريح اشتدت والجو تلبد ، ولذلك أظن أنها ستعود إلى الميناء قبل أن يجن الليل . أدعو الله القدير أن ينيلنا النصر على هؤلاء القوم ويعيننا على إقرار السلم .

* * *

ولم يعش نلسن بعد النصر العظيم الذى ناله فى هذه الواقعة ، فقد توفى فى اليوم الحادى والعشرين من شهر اكتوبر بين ذراعى الكبتن تومس ماسترمان هاردى[٤] بعد أن مزق رصاص البنادق جسمه . وكانت آخر عبارة نطق بها هى : « أحمد الله أنى قد أديت واجبى »

---

(١) Cadiz (٢) Horatia (٣) Nelson and Brontē

(٤) Captain Thomas Masterman Hardy

ولـكنه كان قبيـل ذلك قد قال إلى هاردى : « لا تنس أنى أترك لـدى هملتن وابنتى هوراشيا وديعة فى رعاية بلادى » .

على أن سيدة لا زوج لها لم تكن من غير شك تعد فقيرة إذا كان دخلها يقدر فى العام بألفى جنيـه من جنيهات ذلك الوقت خلفها لهـا هملتن ونلسن . غير أن إما لم تكن أرملة عادية ، بل كانت مقامرة مسرفة ، فلم تمض عشر سنوات على موت نلسن حتى وقعت فى ضنك شديد .

مدام دستائيل ترجو نابليون أن يلغى أمر نفيها

كان بين نابليون ومدام دستائيل[1] من أوجه الشبه ما لا بد أن يشجر بسببه النزاع بينهما ، فقد كان كلاهما يرغب فى أن تكون له السيادة فى فرنسا . فهو يرغب أن تكون له عليها السيادة السياسية وهى تريد أن تكون لها فيها السيادة الأدبية .

ونشرت مدام دستائيل روايتها المسماة « دلفين[2] » فى عام ١٨٠٢ ، وكان لنشرها أثر بالغ فى الأوساط الأدبية الباريسية لما حوته من آراء جريئة فى الدين والزواج والسياسة . وكتب عنها أحد النقاد يقول : « لا شىء يمكن أن يكون أشد خطرا أو أبعد عن الأخلاق من المبادئ التى احتواها هذا الكتاب » . وخشيت مدام دستائيل أن ينتقم منها نابليون ، فطلبت إلى أصدقائها أن يدفعوا عنها الأذى ، وأن يتوسطوا لها عند الحكومة الفرنسية . وعلم نابليون بمخاوفها فرأى أن يعاقبها على فعلتها ، واضطرها أن تغادر باريس وأن تقيم على بعد لا يقل عن أربعين ميلا منها .

وظنت هى أن فى وسعها أن تفوت على نابليون قصده ، فغادرت فرنسا بأكلها وذهبت إلى ألمانيا . واستقبلت فيها استقبالا وديا ، ولكنها عادت مرارا إلى فرنسا ، واستطاعت بمساعدة فوشيه[3] أن تحصل على إذن من الحكومة الفرنسية بالإقامة على بعد ثمانية عشر ميلا من باريس . غير أن مغريات العاصمة الفرنسية كانت أقوى من أن تستطيع مدام دستائيل أن تقاومها ، فكانت من أجل ذلك تتسلل إلى المدينة خلسة ، وتمشى فى شوارعها فى ضوء القمر ، وتزور صديقتها مدام ده تسيه[4] التى كانت تعجب بحديثها حتى قالت مرة : « لو كنت ملكة لأمرت مدام دستائيل أن تتحدث إلىّ طول النهار » . ولما نشرت مدام دستائيل كتابها الثانى « كورن[5] » فى عام ١٨٠٧ أثار ذلك غضب نابليون ، فكتب هو نفسه ينتقده فى إحدى صحف باريس ، ولم يكفه ذلك بل أمر بنفيها من فرنسا . وكتب إلى صديق له يقول : « لقد كتبت إلى رئيس الشرطة أن يعيد مدام دستائيل إلى جنيف ، وأن

---

(١) Madame de Staël (٢) Delphine (٣) Fouché
(٤) Madame de Tessé (٥) Corinne

يسمح لها بأن تغادرها إلى أية مدينة أخرى تختارها . إن هذه المرأة لاتزال دائبة على الدس ؛ لقد خالفت أمرى وذهبت إلى باريس . إنها داء وبيل » .

وعادت مدام دستائيل إلى ملجئها فى سويسرا وعاشت بين أصدقائها الكثيرين ، وأخذت تكتب كتابها الآخر عن ألمانيا « De l'Allemagne » . وزارها أحد الكتاب فى كپنهاجن ووصفها فى ذلك الوقت بقوله إن لها : « صوتا عاليا ووجها كوجه الرجال ، ولكن لها قلباً رقيقاً رحيما » . ولما أتمت كتابها حاولت أن تعود إلى فرنسا ، وكتبت إلى صديق لها تقول : « لقد كتبت إلىّ من أمريكا من ثلاثة عشر عاماً تقول إنك ستموت حتما إن بقيت حيث أنت عاماً آخر ؛ وفى وسعى أن أقول هذا القول بعينه عن بقائى فى خارج بلادى . لقد غلبنى الحزن فى هذا المكان » . واعتزمت أن تذهب إلى إنجلترا إن لم يسمح لها ناپليون بالعودة إلى باريس . وكتبت إليه ترجوه أن يأذن لها بالعودة :

— ١٨ —

« *إنه هذه حياة لا تطاق ...* »

[١٨١٠]

مولاى :

أرجو أن تسمح لى بأن أهدى إليك كتابى عن ألمانيا ؛ فإذا تفضلت بقراءته ، فقد يخيل إلىّ أنك ستجد فيه شواهد على عقل أنضجه الزمان ، وفى مقدوره أن يفكر بعض التفكير .

مولاى ؛ لقد انقضى على اليوم الذى رأيتك فيه عشر سنين ، وانقضت ثمان على اليوم الذى نفيت فيه ، وإن ثمانى سنين يقضيها الإنسان فى البؤس لكفيلة بأن تغير كل صفاته ، والأقدار تعلم من يقاسون الآلام بأن يستسلموا لمحتوم القضاء .

لقد أعددت العدة للرحيل ، ولكنى أضرع إلى جلالتك أن تتفضل بالإذن لى بأن أراك قبل سفرى ، وسأسمح لنفسى بشىء واحد فى هذه الرسالة ، وهو أن أذكر فيها الأسباب التى تضطرنى إلى مغادرة أوربا إن لم تأذن لى يا صاحب الجلالة بالبقاء بالقرب من باريس ، حتى يستطيع أولادى أن يسكنوا فيها . إن الذين تغضب عليهم يا مولاى يلقون المهانة فى أوربا بسبب هذا الغضب ، ومن أجل ذلك فإنى لا أكاد أخطو خطوة دون أن أشعر بآثاره ، فمن

الناس من لا يريدون أن يعرضوا أنفسهم للخطر بالاتصال بى ، ومنهم من يظنون أنفسهم أشجع الشجعان إذا استطاعوا أن يتغلبوا على هذا الخوف ، على حين أن النفس الكريمة تألم أشد الألم من أبسط أنواع المجاملة التى يظهرها لها المجتمع . ومن بين أصدقائى من ربطوا مصيرهم بمصيرى ، وكانوا فى ذلك كراماً إلى حد خليق بالإعجاب ، ولكنى رأيت أقوى عواطف الود تقضى عليها ضرورة وجود أصحابها معى فى عزلتى ، ومن أجل هذا قضيت من عمرى ثمانى سنين بين الخوف من ألا يضحى الناس من أجلى ، والشقاء الذى أشعر به حين أكون هدف هذه التضحية .

قد يكون غير جميل منى أن أذكر هذه التفاصيل لسيد العالم ، ولكنك يا مولاى قد أعطيت ملك العالم بما لك من عبقرية لم توهب لغيرك من الناس ، وبقدرتك على معرفة ما تنطوى عليه القلوب من أدق الإحساسات وأعظمها نبلا . إن أولادى لا مستقبل لهم ، وابنتى قد بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، ويجب أن تكون ربة بيت بعد بضع سنين . ولو أننى أرغمتها على أن تعيش فى الأماكن المنعزلة الحقيرة الشأن التى حكم علىّ أن أعيش فيها لكان ذلك أنانية منى لا تليق بى . فهل قدر علىّ أن أفارقها هى الأخرى ؟ إن هذه حياة لا تطاق ، ولكنى لا أعرف للخلاص منها سبيلا .

وأية مدينة فى أوربا أستطيع أن أختارها ، ولا يكون فيها غضب جلالتك علىّ عقبة كأداء فى سبيل استقرار أبنائى وراحة بالى ؟

وقد لا تعرف جلالتك ما يسببه المنفيون من خوف لمعظم ولاة الأمور فى جميع البلاد ، وفى وسعى أن أقص عليك من آثار هذا الخوف ما هو أشد وقعاً علىّ من العقاب الذى أمرت به .

وقد قيل لجلالتك إنى أحن إلى باريس لما فيها من متاحف ومباهج ، وتلك فكاهة طريفة يوصف بها النفى — أى البلاء الذى وصفه شيشرون و بلنجبروك[1] بأنه شر أنواع البلاء وأشدها وقعاً على النفس .

وهل يليق بك يا مولاى أن تلومنى إذا كنت أنعم بروائع الفن التى تدين بها فرنسا لفتوح جلالتك — أى إذا كنت أنعم بالمآسى الجميلة التى تمثل البطولة — ؟ إن السعادة

(١) Bolingbroke, Cicero

التى ينالها كل إنسان إنما تنبعث من طبيعة ملكاته ، و إذا كان الله قد أنعم علىّ ببعض المواهب ألا يكون الاستمتاع بالفنون والملاذ الذهنية مما لا غنى عنه لخيالى ؟

إنى أرى الكثيرين من الناس يلتمسون من جلالتك النعم المادية على اختلاف أنواعها ، فلم إذن أخجل إذا التمست منك الصداقة والشعر والموسيقى والصور وجميع مستلزمات الحياة المثالية التى أستطيع أن أستمتع بها من غير أن أحيد قط عن ذلك الخضوع الواجب علىّ لملك فرنسا ؟ .

* * *

ولا حاجة إلى القول بأن نابليون لم يأذن لها بالعودة . ولما نُشر كتابها عن « ألمانيا » فى باريس أتلف رجال الشرطة عشرة الآلاف من النسخ التى طبعت منه ، و إن كان الرقيب قد أجاز طبعه . وأشار أصدقاء مدام دستائيل عليها أن تكتب شيئا عن مولد ملك رومة ابن نابليون علها بذلك تنال رضاه ، ولكنها أبت

وسافرت مدام دستائيل إلى إنجلترا بطريق النمسا والروسيا والسويد والنرويج ، لأنها لم يكن فى مقدورها أن تذهب إليها بطريق فرنسا ، ثم عادت من منفاها بعد أن هزم نابليون وجلس لويس الثامن عشر على عرش فرنسا . غير أنها لم تعش بعد عودتها أكثر من ثلاث سنين . وكانت فى أثناء مرضها تجر فى عربة إلى صديقاتها ، وتوزع الورد والكلمات الطيبة على أصدقائها . وكان مما قالته لشتوبريان[1] ! « لقد اتصفت طوال حياتى بصفات لم أتحول عنها قط ؛ فقد كنت دائما شديدة الحماسة ومكتئبة ؛ وقد أحببت الله وأبى والحرية » .

---

(١) Chateaubriand

صمويل تيلر كولردج يصف آلام مدمن المخدرات
رسالته إلى چوزف كتل

بدأ كولردج يتعاطى الأفيون من صغره ، فلم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره فى عام ١٧٩١ حتى كتب إلى أخيه چورچ يقول فى استهتار غريب : « لم يكن للأفيون فىَّ أثر كريه يوما من الأيام » . ولم يصبح هذا المخدر قوة مسيطرة عليه الا فى عام ١٨٠٣ أى بعد العهد الذى كتب فيه روائع شعره .

ويختلف كولردج عن دكونسى[١] — وهو أيضا من مدمنى الأفيون المشهورين — فى أنه كانت تنتابه فى كثير من الأحيان نوبات قاسية من تأنيب الضمير ، أما دكونسى فكان يعد هذا الإدمان من الأمور المألوفة . ولو أن صحة كولردج كانت أحسن مما كانت ، ولو أن أعصابه كانت أقل تهيجا واضطرابا لـكان فى الأرجح أقل إدمانا . لـكن الذى حدث أنه لم يكد يقنع نفسه بأن لا ضَرَر من تعاطى جرعات الأفيون يتخذها دواء حتى أرخى لنفسه فى تعاطيه العنان .

أما سبب كتابة الرسالة التالية فهو أن چوزف كُتِل[٢] صديقه وناشر كتبه بعث إليه برسالة طويلة ينصحه فيها بعبارات قوية مؤثرة بالإقلاع عن عادته ، فرد عليه كولردج بهذه الرسالة التى يعترف فيها بجرمه :

١٩

« . . . إنه حالتى ضرب من الجنون . . . »

فى ٢٦ إبريل سنة ١٨١٤

لقد صببت الزيت يا كتل فى جرح ذَرِبٍ متنسر[٣] أصيب به ضمير صديق لك قديم ، ولـكنه زيت الزاج . لقد ألقيتُ نظرة خاطفة على وسط الصفحة الأولى من رسالتك ثم لم أر منها شيئاً بعد — ولم يكن هـذا لأنى غضبت مما حوته ، (لا قدر الله) بل كان

---

(١) Thomas de Quincy انظر كتابه « اعترافات آكل أفيون إنجليزى » Confessions of an English Opium Eater

(٢) Joseph Cottle

(٣) جرح ذَرِب يزداد اتساعا ولايقبل البرء ، والجرح المتنسر الذى انتقضت مِدته لانتقاضه

سببه ما أعانيه من آلام مبرحة فى الجسم والعقل تعجز معها الطاقة البشرية عن تحمل ألم جديد .

والذى أبتغيه من هذا الرد هو أن أعرض قضيتى على حقيقتها ؛ فأقول أولا إنى ظللت عشر سنين أعانى من الآلام النفسية ما يجل عن الوصف ، فقد كان الخطر فيها ماثلا على الدوام أمام عينى ، ولكن علمى بجريمتى كان أشد من هذا الخطر وقعا علىّ . لقد دعوت الله والألم يكاد يتقطر من جبينى ، وفرائصى ترتعد ، خشية أن يأخذنى خالقى بذنبى ، وألا تنجينى من العذاب رحمته ، وأن ينادينى : «لقد مننت عليك بكثير من المواهب فماذا صنعت بها» ؟ وثانى ما أقوله هو أننى لم أحاول قط أن أخفى عن غيرى سبب ما أنا عليه من ضعف مؤلم رهيب ، أو أن أنكر هذا الضعف ، بل فعلت عكس هذا ، فلم أكتف بأن أفصح عن حالى لأصدقائى والدمع يفيض من عينى ، وقلبى يكاد يتمزق من فرط الخجل ، بل فعلت ما هو أكثر من هذا فتحدثت مرتين إلى شابين — لم ترق معرفتى بهما إلى حد الصداقة — وحذرتهما مما يتعرضان له من عواقب وخيمة ، بأن كشفت لهما بعبارات رهيبة عما كان لهذه العادة من أثر سيئ فىّ

وثالث ما أقوله أنى وإن لم أكن أستطيع أن أرفع عينى أمام ربى وقد فقدت كل رجاء إلا رجائى فى رحمته ، لأن اليأس من رحمة الله جريمة تضاف إلى جرائمى السابقة ، فإن فى وسعى أن أقول لبنى جنسى إن الجهل هو الذى أضلنى وأغوانى على تعود هذه العادة الملعونة . لقد ظللت عدة شهور طريح الفراش متورم الركبتين لا أكاد أقوى على النهوض ، ثم اطلعت لسوء حظى فى إحدى الجرائد الطبية على وصف لعلاج يفيد فى حالة كحالتى (أو حالة ظننتها كحالتى) ، وذلك بتدليك موضع الألم بصبغة الأفيون وشرب جرعة منه . وجربته فكان كأنه سحر ومعجزة ، فقد استعدت قوة أطرافى وشهيتى ونفسيتى . وبقيت على هذه الحال نحو أسبوعين ثم ضعفت قوة هذا المنبه غير الطبيعى وعاد الألم كما كان ، وعدت إلى العلاج المزعوم — ولكنى لا أقوى على أن أقص باقى القصة المشئومة المحزنة .

وحسبى أن أقول إن الآثار التى أحدثها فىّ هى الرعب والجبن والألم والخوف من الموت المفاجئ . وأشهد الله أنى لم تدفعنى إليه رغبة فى السرور أو توقعه أو حرص على إيقاظ

أحاسيس لذيذة . ولديك مسز مورجن وأختها فاسألهما ينبئانك أن حالى كانت على عكس ذلك ، وأنى كلما طال امتناعى عنه زدت بهجة وانشراحا ، حتى حانت الساعة ، الساعة الرهيبة ، التى أخذ فيها نبضى يضطرب وقلبى يخفق ، وشعرت كأن جسمى كله يتساقط ، وتملكنى قلق لم أطقه ، وبدأت أشعر بالحيرة والارتباك ، وحاولت مراراً أن أتخلص من هذا السم الزعاف ، وصرخت من فرط الألم فى آخر هذه المحاولات صرخة أعيدها الآن فى جد وخشوع : « إنى أضعف من أن أجازف هذه المجازفة » . ولو أننى كنت أملك بضع مئات قليلة من الجنيهات ، بل لو أننى كنت أملك مائتى جنيه لا أكثر ، لأعطيت نصفها إلى زوجتى ولاستعنت بالنصف الآخر على دخول مستشفى خاص للأمراض العقلية لا أحصل فيه إلا على ما يصرح به الطبيب ، ويلازمنى فيه خادم من خدمه شهرين أو ثلاثة شهور (وما من شك فى أن أمرى سيتقرر فى أقل من هذه المدة فإما حياة وإما موت) ، لو أننى كنت أملك هذا القدر من المال لكان لى بعض الرجاء . أما الآن فلا رجاء لى . أى إلهى ! ما أشد رغبتى فى أن أكون فى مؤسسة الدكتور فُكس[1] وتحت رعايته لأن حالتى نوع من الجنون لا تفترق عنه إلا فى أنها اضطراب فى العقل مصحوب بفقد الإرادة — لا المواهب العقلية — فقدا تاما . وأنت تأمرنى بأن أنشط وأقلع ثوب الخمول . وما أجدرك بأن تذهب إلى رجل مشلول الذراعين وتأمره أن يفركهما معا بقوة لأن فى ذلك شفاءه . إنك إن تفعل يجبك من فوره « وا أسفاه ! إن الذى أشكو منه وأبتئس له هو عجزى عن تحريك ذراعى »

أسأل الله أن يبارك فيك وفى صديقك المخلص المعذب أشد العذاب

ص . ت . كولردج

* * *

وأعقبت هذه الرسالة رسائل أخرى مكتئبة بعث بها كولردج إلى كتل . ولما أشار كتل فى إحدى رسائله بأن كولردج قد تقمصه الشيطان ، قال الشاعر تعليقا على هذه العبارة : « سامحه الله ! إنه مخلوق حسن النية ولكنه شديد الغفلة »

---

(١) Dr Fox

ولم يأل كتل جهدا فى نصح صديقه وتحذيره من سوء عاقبته . وظل الشاعر عامين كاملين يحاول محاولات ضعيفة أن يتخلص من عادته السيئة ، ثم عثر فى عام ١٨١٦ على طبيب عرف كيف ينقص له جرعات الأفيون حتى كادت تكون عديمة الضرر بالقياس إلى ما كان يصيبه من الجرعات السابقة .

وفقد كولردج فى سنيه الأخيرة ملكة الشعر ، ولكن مقدرته على التفكير الفلسفى المشتت ظلت كما هى ، وكان يُطلق عليه فى آخر أيامه اسم « حكيم هايجيت[١] » وهايجيت هذه ضاحية من ضواحى لندن .

وكانت حياة كولردج مصداقا لقول دكونسى : « إن الأفيون يعطى ويمنع . إنه يفقد الإنسان عادة الجد المتواصل ؛ ولكنه يخلق فيه نوبات من الجد المتقطع ؛ وهو يقضى على ما فى الحياة من قوة طبيعية ، ولكنه يحدث فى الكائن الحى نوبات عجيبة غير طبيعية من القوة المتقطعة القصيرة الأجل »

(١) The Sage of Highgate

دلى مادسن[١] تفر من واشنجتن بالأوراق الرسمية قبل أن يستولى عليها الانجليز

[رسالتها إلى أختها « أنا »]

ظلت دُلى مادسن ملكة المجتمعات الراقية فى واشنجتن ستة عشر عاما ، وكان چفرسن أعزب ، ولهذا اختار زوجة وزيره چيمس مادسن[٢] لتستقبل ضيوفه فى الحفلات الرسمية . ولما خلف زوجُها چفرسن[٣] فى رياسة الجمهورية أصبحت هى صاحبة الأمر والنهى فى البيت الأبيض .

وكانت مآدبها غاية فى الأبهة والفخامة ، فقد كان يقف وراء كل ضيف خادم خاص به ، وكانت تقدم فيها أحسن أنواع النبيذ وأشهى الأطعمة وخير أنواع التسلية . وكانت مولعة إلى حد الجنون بلعب الورق ، وقد خسرت فى ذلك مبالغ طائلة .

ثم تبدلت هذه الحال فجأة . ذلك أن الإنجليز زحفوا على العاصمة الأمريكية فى شهر أغسطس من عام ١٨١٤ ظنا منهم أنهم إذا استولوا عليها وضعوا حدا للحرب التى ظلت نارها مشتعلة من عام ١٨١٢ ، وفرَّ من المدينة كثيرون من أثريائها وجميع موظفى الدولة ، لكن دُلى بقيت فى البيت الأبيض إلى آخر لحظة ، وقبل أن تفر منه بعثت بالرسالة الآتية إلى أختها « آن » تقص عليها مافعلته :

٢٠

« ... أدير منظارى فى جميع الجهات ... »

فى يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٨١٤

أختى العزيزة :

فارقنى زوجى فى صباح أمس لينضم إلى القائد وندر[٤] وسألنى وهو قلق هل أوتيتُ من الشجاعة أو رباطة الجأش ما يعيننى على البقاء فى بيت الرئيس حتى يعود فى اليوم الثانى أو فى اليوم الذى يليه ؟ فلما أكدت له أنى لا أخاف إلا عليه وعلى جيشنا ألا ينتصر ،

---

(١) Dolly Madison (٢) James Madison (٣) Jefferson

(٤) Winder

تركنى وتوسل إلىّ أن أعنى بنفسى و بأوراق مجلس الوزراء العامة منها والخاصة . ولقد تلقيت منه حتى الآن رسالتين مكتو بتين بالقلم الرصاص . وروعتنى الرسالة الثانية لأنه يطلب إلىّ فيها أن أكون على استعداد فى اللحظة التى يصل إلىّ فيها الأمر لأن أركب عر بتى وأغادر المدينة من فورى . ومما جاء فيها أنهم يظنون أن العدو أقوى مما نقل إليهم أول الأمر ، وأنه يزحف على المدينة يريد أن يدمرها . ولهذا أعددت عدتى ، فكدست من الأوراق الرسمية فى الحقائب ما يملأ عر بة واحدة ، ولا بد لى من أن أضحى بممتلكاتنا الخاصة لأنا لانستطيع الحصول على مركبات ننقلها عليها .

وقد اعتزمت ألا أغادر البيت حتى أتأكد من سلامة مستر مادسن ، وذلك حتى يستطيع أن يرافقنى ، لأنى أسمع عن وجود عداء شديد نحوه ، ولأن الناس من حولنا مستاؤون . وقد ذهب عنى جميع أصدقائى ومعارفى فلم يبق منهم أحد حتى الكولونل لك . ورجاله المائة الذين عهد إليهم بالحراسة فى داخل أسوار البيت . وقد عرض چون[1] الفرنسى [وهو خادم أمين] أن يستخدم ما اعتاد من حذق وعزيمة ماضية فى أن يعطل المدفع القائم عند الباب ، وأن يضع فى البيت كمية من البارود ينسف بها الإنجليز إذا دخلوا البيت ، لكننى عارضت أشد المعارضة فى اقتراحه الثانى و إن لم أستطع أن أفهمه لم لا يصح أن تستخدم فى الحرب كل الوسائل التى يمكن الانتفاع بها .

صباح يوم الأربعاء والساعة الثانية عشرة — لا أزال منذ شروق الشمس أدير منظارى فى جميع الجهات أرقب به فى قلق ومن غير ملل راجية أن أتبين اقتراب زوجى العزيز وأصدقائه . ولكن وا أسفاه ! إنى لا أستطيع أن أرى إلا طوائف من الجند يتنقلون فى جميع الجهات ، وكأنهم تعوزهم الأسلحة أو الشجاعة التى يدافعون بها عن مواطنهم .

الساعة الثالثة — هل تصدقينى يا أختى . لقد وقعت واقعة أو مناوشة قرب بلاندنزبرج[2] ولا أزال أنا هنا أسمع قصف المدافع ! ولما يأت مستر مادسن بعد . وقانا الله السوء . لقد جاء رسولان يعلوهما الغبار ليأمرانى أن أبادر إلى الفرار ، ولكنى أعتزم انتظاره فى هذا المكان ... لقد استطعنا أن نحصل على عربة نقل فى هذا الوقت المتأخر ، وأمرت أن تحمل بالصحاف و بكل ما خف حمله وغلا ثمنه من أدوات البيت ، ولست

---

(١) John (٢) Blandensburg

أعرف هل تصل هذه الأدوات إلى مقرها وهو مصرف ميرى لاند[١] أو تقع فى يد الجنود الإنجليز ، فذلك رهن بما تأتى به الظروف . لقد جاء صديقنا الكريم مستر كرل[٢] ليطلب إلىّ أن أعجل بالرحيل ، وقد غضب منى حين أصررت على أن أبقى حتى آخذ صورة واشنجتن الكبيرة ، وهذا يتطلب انتزاع مساميرها المحواة من الجدار . ثم وجدت هذا العمل مملا فى هذه الساعة الخطرة ، ولذلك أمرت بأن يكسر إطارها ويخلع منه القماش المرسومة عليه . وقد تم هذا فعلا ، وعهدنا بالصورة النفيسية إلى رجلين من أهل نيويورك ليحافظا عليها . والآن لا بد لى أيتها الأخت العزيزة أن أغادر هذا البيت ، وإلا وقعت فى الأسر لأن الجيش المنسحب سيسد الطريق الذى أشير علىّ باتباعه . ولست أدرى متى أكتب إليك الرسالة الثانية ، أو أين أكون غداً .

« دُلِى »

* * *

وغادرت دلى مادسن الدار بعد أن أرغمها على ذلك أصدقاؤها ، وأركبوها عربة سارت بها إلى چورچ تون[٣] لتنتظر فيها حتى تنضم إلى رئيس الجمهورية ، وفى هذا الوقت دخل الإنجليز واشنجتن وأشعلوا النار من فورهم فى المبانى العامة وفى البيت الأبيض . وكان من حسن الحظ أن دلى أنقذت أثمن ما فى البيت . وبعد أن قابلت رئيس الجمهورية لم تستطع أن تحاجز نفسها عن الرجوع إلى مدينة واشنجتن . ذلك أنها لما سمعت أن الإنجليز غادروا المدينة بعد أن أحرقوها بزمن قليل ، عادت إليها متخفية . وقد علقت إحدى جرائد واشنجتن على تدمير البيت الأبيض بقولها إن ذلك لم يكن خسارة جسيمة لأننا « نرجو أن يقضى هذا الحريق قضاء أبديا على حُجر الاستقبال والحفلات الرسمية ، وملجأ المتعطلين ، وأنصار الخونة والجواسيس » .

---

(١) The Bank of Maryland   (٢) Carrol   (٣) Georgetown

چين أستن تأبى أن تسخر قلمها

[رسالتها إلى ج . س . كلارك]

ذهبت چين أستن[١] فى عام ١٨١٥ إلى لندن لتزور أخاها ولتصحح تجارب « إما[٢] » آخر رواية لها نشرت فى حياتها . وكان الوصى على العرش وقتئذ يعجب بكتابتها فانتهز هذه الفرصة ودعاها لزيارة قصره فى لندن . ولبت چين الدعوة وطاف معها چيمس استانير كلارك[٣] أمين مكتبة الوصى بحجرات القصر ، وأشار فى هذه الأثناء إلى أن سمو الوصى يسره أن تهدى إليه روايتها الثانية . ويبدو من رسائل چين أستن أنها لم تعن كثيرا بذلك الشرف ، وكتبت إلى كلارك بعد يومين من هذه الزيارة تسأله هل هى حرة فى أن تهدى روايتها إلى الوصى إذا شاءت ، أو أن ما أشار إليه يعد أمرا لها لا يسعها أن تخالفه . ولم يكد كلارك يتلقى رسالتها حتى كتب إليها يقول : « لاشك أنك غير ملزمة بأن تهدى كتابك الذى يطبع الآن إلى صاحب السمو الملكى ، أما إذا أحببت أن ينال سمو الوصى هذا الشرف فى هذا الوقت أو فى أى وقت آخر فى المستقبل فإنى يسعدنى أن أبعث إليك بإذن سموه . ولست بعدئذ فى حاجة إلى أن تكلفى نفسك أى عناء أو رجاء »

وقررت چين أستن أن تشرف الوصى بهذا الإهداء . وظهرت إما وفيها الإهداء المطلوب ، وتلقت بعد وقت قصير خطاب شكر من سموه كتبه كلارك . وفى آخره العبارة الآتيـة : « لعلك إذا نشرت كتابا آخر أن تتفضلى بإهدائه إلى الإمير ليوبولد ؛ وإن رواية غرامية تاريخية فى تاريخ بيت كوبرج العظيم إذا صدرت فى هذا الوقت لتكون رواية ممتعة طريفة »

وكان كلارك يشير بقوله هذا إلى زفاف الأمير ليوبولد سليل بيت ساكس كوبرج[٤] والأميرة شارلت[٥] ابنة الوصى بعد وقت قصير . وأثار هذا الإيحاء رداً مفحما مؤدبا من چين أستن :

---

(١) Jane Austen (٢) Emma (٣) James Stanier Clarke
(٤) Prince Leopold of Saxe Coburg (٥) Charlotte

« ٢١ »

« ولكننى عاجزة عن كتابة القصص الغرامية التاريخية عجزى عن انشاء الملاحم الشعرية »

شوتون — قرب — ألتن[١] فى أول إبريل سنة ١٨١٦

سيدى العزيز :

تشرفت بتلقى شكر الأمير ، وأنا أشكر لك ما فى رسالتك من إشاره جميلة إلى كتابى .ولا بد لى أن أبلغك أيضا أنى تلقيت قبل الآن خطابا من هانز پلاس[٢] ، وأؤكد لك أنى أقدر أعظم التقدير لهجة الخطاب الودية ، وأرجو ألا يفهم من سكوتى إلا المعنى الذى قصدته منه حقا وهو إنى لم أشأ أن أضيع وقتك فى قراءة شكر لا قيمة له . هذا و إنى لأرجو لك الخير فى كل منصب خطير تناله بفضل مواهبك وجهودك الأدبية أو عطف الوصى عليك ، وأرجو أن يكون منصبك الجديد خطوة تصل بها إلى ماهو أعظم منه وأعلى مكانة . واعتقادى أن كل جزاء مهما عظم لا يكون أكبر مما يستحقه من يخدم الملوك ، وذلك لأن خدمتهم تقتضى تضحية بالوقت والشعور ما أعظمها .

وقد تفضلت فأشرت إلى نوع الكتاب الذى أنال به عطف الوصى فى الوقت الحاضر، و إنى لأحس بأن رواية غرامية تاريخية عن بيت ساكس كوبرج قد تنيلنى من المال والشهرة أكثر مما تنيلنى تلك الصور التى أرسمها فى قصصى للحياة المنزلية الريفية . ولكنى عاجزة عن كتابة القصص الغرامية عجزى عن إنشاء الملاحم الشعرية ، وليس ثمة سبب يحملنى على أن أمسك بقلمى لأكتب رواية غرامية جادية اللهم إلا إذا لم يكن لى سبيل غير هذه السبيل أنجو بها من الموت ؛ و إذا كان لا بد لى حتى فى هذا الظرف أن أواصل الكتابة دون أن يسمح لى بأن أسخر فى أثناء ذلك من نفسى أو من غيرى فلست أشك فى أننى سأشنق حتما قبل أن أتم كتابة الفصل الأول .

كلا ! يا سيدى ! إنى لا بد لى أن أحتفظ بأسلوبى ، وأن أواصل الكتابة بطريقتى

---

(١) Chawton — near— Alton

(٢) Hans Plce

الخاصة ، و إذا ما قدر لى ألا أفلح فى هذا بعد الآن ، فإنى لا أشك فى أنى سأخفق إخفاقا تاما فى كل ما عداه .

ولا زلت يا سيدى العزيز
صديقتك الشاكرة المخلصة
چ . أستن

* * *

وما من شك فى أن سمو الوصى كان وقتئذ شديد الرغبة فى رواية تشيد بمجد آل ساكس كوبرج ، ولو أن چين أستن حققت رغبته لنالت من وراء ذلك خيراً كثيرا . ولكنها أبت أن تنزل إلى ميدان تعتقد أنها لم تخلق له .

لورد بيرن ينعى نفسه إلى صديق له

[رسالته إلى چون كام هبهوس[١]]

غادر بيرن إنجلترا بعد زواجه المشئوم بالآنسة ملبانك[٢] وانفصاله عنها ، ولم يعد إليها إلا بعد موته . وقد كتبت ملبانك بعد انفصالهما تقول إنه تزوجها « وهو مصمم على الانتقام منى ، وقد أقسم على ذلك في يوم زواجي وبر بقسمه هذا . وكان انتقامه انتقاما منظما لا رحمة فيه ولا هوادة . » وكانت زوجته من ناحيتها لا تترك سبيلا لمضايقته إلا سلكتها ، كما كان الشعب الإنجليزى نفسه شديد الاستياء من سوء سيرته .

ونزل بيرن فى أرض إيطاليا واستقر فى مدينة البندقية حيث أطلق العنان لرذائله وشهواته إلا فى فترات معدودة كان ينحى فيها بأشد اللوم على نفسه . ومن أقواله بعد مغادرته هذه المدينة : « إنى أمقت كل ما يذكرنى بالمكان وأهله ومسلكى فيه » . وكان بعد وليمة من الولائم الفاخرة يلتزم الحمية زمنا ما . وكان طوال حياته يحب الأكل الدسم ، فإذا أراد أن يقلل وزنه ألزم نفسه باتباع نظام فى العيش عجيب : يستحم بالماء الساخن ، ويمارس ضروبا من الرياضة البدنية ، ولا يتناول إلا قليلا من الأرز . وكان فى بعض الأحيان يمتنع عن الطعام ثمانيا وأربعين ساعة كاملة ، ثم يعيش بعدها على الشاى وست بقسماطات فى اليوم ، أو يشرب الخل والماء . وقد قال هو إنه وهو يكتب « دن چوان »[٣] لم يكن يتناول إلا الماء وشراب الچن . ولكن الحمية لسوء الحظ لم تتغلب على سائر رذائله

وقد كتب بيرن الرسالة التالية إلى صديقه چون كام هبهوس الذى رافقه فى رحلته إلى أوربا ينعى إليه فيها نفسه ويحدثه عن رذائله ، ووقعها باسم خادمه وليم فلتشر[٤] الذى لازمه منذ رحلته الأولى إلى بلاد الترك :

---

(١) John Cam Hobhouse (٢) Milbanke (٣) William Fletcher (٤) Don Juan

— ٢٠ —

« ... سببها القلق والاستحمام فى البحر والنساء والركوب فى حر الشمس ... »

البندقية فى يونية سنة ١٨١٨

سيدى :

يحزننى أشد الحزن أن أنعى إليك اللورد سيدى السابق . فقد توفى فى الساعة العاشرة من صباح اليوم على أثر هبوط سريع فى قواه وحمى بطيئة سببها القلق والاستحمام فى البحر والنساء والركوب فى حر الشمس على الرغم من نصيحتى إليه .

وإن موته لخسارة عظيمة لجميع الناس وبخاصة لى أنا ، فقد خسرت بذلك سيدا وعملا أعيش منه — وأرجو ياسيدى أن تعطينى شهادة بحسن سيرتى فى أثناء خدمتى .

وأنت تعرف أنى اقتصدت فى أثناء خدمته بضع مئات من الجنيهات . والله وحده يعلم كيف اقتصدتها ، أما أنا وأما سيدى السابق نفسه فلسنا نعلم . وإذا لم يكن أجرى يؤدى لى كاملا على الدوام فقد كان يؤدى أو يجب أن يؤدى فى وقت من الأوقات وبوسيلة من الوسائل . ولست أظن يا سيدى أنك وأنت المنفذ لوصيته ستسمح بأن يحرم خادم مسكين من القليل الذى له . وهو كل ثروته .

وكان إلى جوار سيدى ساعة وفاته قس وعدة أطباء . وقد مات بابويا ، ولكنه سيدفن مع اليهود فى مقابر اليهود ؛ ولست أدرى لم يُفعل به هذا وهو الذى لم يكن فى حياته يطيقهم أو يطيق غيرهم من الناس ، كما كان يكره النساء الساقطات اللاتى كن يطابن إليه المال

وقد صبر على مرضه صبر الكرام ، إلا أنه حين بلغ المرض أشده لعن أصدقاءه مرتين وقال إنهم سفلة أنانيون — وقد لعنك يا سيدى بنوع خاص أنت والمستر كنيرد[1] الذى لم يرد قط على رسائله ولم يجب مطالبه المتكررة .

ولقد قال — سامحه الله — فضلا عن هذا إنه يرجو ألا تنال مأساتك الجديده غير اللعنات ، وأنا أدعو الله ألا يلقى هو من اللعنات ما تلقاه هذه المأساة .

---

(١) Mr. Kinnaird

إن النساء التسع الساقطات قد خصص لهن ما يكفيهن من المال ، وعومل سائر خدمه إلا أنا وحدى نفس هذه المعاملة ، — ولست أدرى ماذا يكون من أمرى . لقد استوليت على ملابسه وعرباته ونقوده وكل ماله ، ولكن القنصل خرج على القانون صراحة ووضع خاتمه على أملاكه بعد حصرها ، وأقسم أنه سوف يقدم حسابا عنها لورثة اللورد — ولست أدرى من هم أولئك الورثة — ولكن من واجبهم أيا كانوا ألّا ينسوا الخدم المساكين وبخاصة خادم حجرته الخاص .

إن مولاى لم يكن يرفض لى قط مطلبا — وكان أجرى أقل ما أناله منه ، وإذا كنت قد استبقيت لدى الكنتة (وهى كنتة ويجب إن تكون كنتة بحق رغم تسكعها فى المدينة) ماريتا هونتا بيرتا[1] ، بعد أن وعدتك أنت وسيدى ألا أفعل ذلك وألا أعود إلى فعله — فقد كان سيدى كثير التسامح ، ولم يزد فى لومى على أن قال إنى أبله لعين ، وسبنى ثم نسى كل شىء بعد . وماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ لقد قالت إنها تكاد تموت أو أنها ستقتل نفسها إذا لم أذهب معها ، ففعلت — وشغلتها عن غسيل سيدى وكى ملابسه — . وليس فى الناس من ينكر أن ملابسه الداخلية قد غسلت بعد ذلك ، وإن كان الأجر الذى تقاضته كبيرا .

أرجو ياسيدى أن تكون بخير — ولا أزال والدمع يفيض من عينى .

المخلص الخاضع لأمرك

وليم فلتشر

حاشية : إذا كنت تعرف سيدا فى حاجه إلى خادم خاص — فإنى أريد منك شهادة بحسن السيرة . لقد رأيت أخيرا خادمك السويسرى سجينا فى لجهورن لأنه سطا على حانة ، وقد قدم توصية منك فى أثناء المحاكمة .

* * *

وبقى وليم فلتشر فى خدمة بيرن حتى مات سيده فى حرب الاستقلال اليونانية . وكان هو آخر رجل إنجليزى رأى الشاعر حيا وسمع آخر كلماته الخافتة التى بعث بها إلى زوجته وابنته وأخته . ولما فرغ منها قال بصوت لا يكاد يسمع ، « والآن سأنام » . ثم غاب عن وعيه وتوفى فى اليوم الثانى .

(١) Marietta Honetta Piretta

ميكل فاراداى[1] يعتذر عن عجزه عن كتابة رسالة حب

رسالة إلى سارة برنارد[2]

عاش فاراداى من عام ١٧٩١ إلى عام ١٨٦٧ ؛ وكان لأبحاثه وتجاربه العلمية أكبر الأثر فى استخدام الكهرباء فى الصناعة الحديثة . وتدل هذه الرسالة على أن الإنسان ، وإن استطاع أن يستحضر فى ذاكرته حين يشاء عناصر علم الحركة الكهربائية وأثر المجال المغنطيسى فى الضوء ، وما إلى ذلك من الحقائق العلمية ، قد لا يستطيع أن يجمع فى ذهنه العناصر التى تتألف منها رسالة حب .

— ٢٣ —

« .... الخيالات العلمية تسبح أمامى .... »

المعهد الملكى فى مساء الخميس

[ديسمبر سنة ١٨٢٠]

عزيزتى سارة :

من أعظم ما يثير الدهشة أن يكون للجسم ذلك الأثر الشديد فى قوى العقل ؛ فقد كنت طيلة الصباح أفكر فى ذلك الخطاب السار الممتع الذى اعتزمت أن أرسله إليك فى المساء . والآن قد بلغ منى التعب غايته ، ومع ذلك فإن أمامى الشىء الكثير الذى لا بد لى أن أعمله. ومن أجل هذا كانت أفكارى مضطربة تحوم حول صورتك ، ولكنها لا تجد من القوة ما يمكنها من أن تقف عندها لتعجب بها . أريد أن أقول لك أشياء كثيرة رقيقة ، وأرجو أن تصدقينى إن قلت إنها خارجة من أعماق قلبى . ولكننى عاجز عن السيطرة على الألفاظ التى تمكننى من الإفصاح عما فى نفسى . على أننى كلما فكرت فيك وطافت صورتك

---

(١) Michael Faraday

(٢) sarah Barnard وهى غير سارة برنهاردت Sarah Bernhardt ، والاسم الآخير هو الاسم المسرحى للممثلة الفرنسية روزين برنارد Rosine Bernard (١٨٤٤ — ١٩٢٣)

بمخيلتى ، رأيت أنواع الـكلوريد ، والتجارب ، والزيت ، والصلب ، والزئبق ، ومئات أخرى من الخيالات العلمية تسبح أمامى وتدفعنى دفعا إلى المعضلات السخيفة .

من محبك

ميكل

***

ورغم هذا العجز عن كتابة رسائل الحب فإن سـارة برنارد أصبحت بعد هذا الوقت بقليل زوجة فراداى المخلصة ، وظلت كذلك سنين طوالا . وكان فراداى وسارة برنارد من أسعد الأزواج .

عندهم مثـــل ما عندنا

دزرائيلى[1] يرد على أحد خصومه السياسيين

خطاب مفتوح فى جريدة التيمس إلى دانيل أوكنل[2]

إن الرسالة التى كتبها دزرائيلى إلى دانيل أوكنـل صاحب المواقف المشهودة فى الدفاع عن حرية إيرلنده السياسية ، لمن أشهر الرسائل المعروفة فى المهاترات السياسية .

ويرجع سبب كتابتها إلى أنه لما رشح نفسه لمجلس النواب طلب إلى أوكنـل أن يرسل إليه خطاباً يزكيه فيه لأن دزرائيلى كان وقتئذ مثل أوكنل من الأحرار المتطرفين . وأجابه أوكنل إلى ماطلب ، وإن كان حظه من مبادئ الأحرار المتطرفين لا يزيد على حظ لويس الرابع عشر منها . ولهذا سقط فى الانتخاب مرتين . ثم رشح نفسه مرة أخرى على مبادئ المحافظين فى عام ١٨٣٧ ، واتهم فى إحدى خطبه الانتخابية صديقه القديم بأنه رجل مهيج مثير للفتن . ولم يكن هذا الوصف لينطبق على أوكنل بحال من الأحوال ، فقد كان كل ما يعمل له أن يكون لإيرلنده برلمان مستقل ، وأن تلغى القيود المفروضة على الكاثوليك ، وكان لا يتأخر عن مد يده لكل من يعمل معه لهذا الغرض سواء كان من الأحرار أو المحافظين ، وكان فى الوقت الذى اتهمه فيه دزرائيلى بإثارة الفتن يخطب ود زعيم الأحرار الفيكونت ملبورن[3] .

ولم يكد أوكنل يقرأ خطبة دزرائيلى الانتخابية ويطلع على التهمة التى رماه بها حتى اعتزم أن يثأر لنفسه ، وبعد بضعة أيام قليلة ألقى فى دبلن خطبة سياسية قال فيها عن دزرائيلى : « إن اسمه يدل على أنه من أصل يهودى ، وإن أباه قد خرج عن دينه ، وسيفيده عمله هذا فى الدنيا ، ولعله يفيده أيضاً فى الآخرة . ولقد كان من حسن حظى أنى أعرف من زمن بعيد بعض الأسر اليهودية فى لندن ، فعرفت بين أفرادها نساء لم أر فى حياتى أحسن منهن ثقافة أو تهذيباً ، ورجالا لم أر مَن هم أكثر منهم إنسانية ووفاء ، أو أذكى عقولا أو أكثر علماً . ولهذا فإنى إذا وصفت دزرائيلى بأنه من سلالة يهودى أرجو ألا يفهم من قولى

---

(١) Benjamin Disraeli (٢) Daniel O'Connell (٣) Viscount Melbourne

هذا أنى أعيبه لهذا السبب . لقد كان اليهود فى يوم من الأيام شعب الله المختار ، ولـكنهم مع ذلك كان منهم السـفلة والأوباش ، وما من شك فى أن دزرائيلى من سـلالة هؤلاء ؛ فقد اجتمعت فيه كل الصفات المرذولة التى اتصف بها اللص العاتى الذى مات مصلوباً ، والذى أعتقد أن اسمه كان دزرائيلى أيضاً ، وعلى هذا الأساس فإنى الآن أعفو عن وريث ذلك اللص الكافر » .

وكانت المبارزة لاتزال من عادات تلك الأيام ، ولـكن أوكنل كان قد وعد بألا يبارز على أثر قتله رجلا فى عام ١٨١٥ ؛ ولذلك وجه دزرائيلى الدعوة إلى ابن أوكنل ، وكان عضواً فى البرلمـان وفى مثل سنه (٣٥ عاما) . ورد الابن بأنه غير ملزم بتحمل تبعـة أقوال أبيه ، فبعث دزرائيلى بالرسالة الآتية إلى جريدة التيمس :

— ٢٤ —

« ... ألقيت عليه أقذارك ... »

لندن فى ٦ مايو

إلى مستر أوكنل :

لقد أخرجت نفسك من زمن طويل من حظيرة المدنية ، ولـكنى لست مع ذلك ممن يتقبلون الإهانة و إن جاءت من الأراذل ، و يتغاضون عنها فلا يؤدبون من يهينهم . ولقد قرأت اليوم فى صحف الصباح ما نضح به معينك من مثالب ومقاذر ، وقرأت فى هذه الصحف عينها أن ابنك كان فى الوقت نفسه يلقى من شخص ألقيت عليه أقذارك جزاءه العادل عن مطاعن ومقاذر مثلها ، فظننت أن علمك بأن أعداءك قد كشفوا آخر الأمر عن طريقة يثأرون بها لأنفسهم منك قد يبعث فيك أيها الرجل الوقح شيئاً من الشجاعة . ولكنى لم أجدها فيك ، فدعوت ابنك لأن ينوب مرة أخرى عن والده الجبان فى تقديم الترضية لى . ولـكن يبـدو أن ابنك هذا يرفض القيام بعد الآن بهذا الواجب ، واجب تحمل تبعات خطبك البذيئـة ، فلم أجد بعد ذلك إلا هذه الطريقة العلنية أرد بها على مطاعنك . فاستمع إذن إلىّ

لو أنك كان فى مقدورك أن تفعل ما يفعله السادة الـكرام المهذبون لترددت كثـيراً قبل

أن تعلق بعباراتك القذرة الوقحة على النص الذى أذيع على عجل من خطبتى ، وهو نص مقتضب مشوّه لا يحتوى على جملة أو عبارة كما نطق بها لسانى . وحقيقة الأمر أنك قد سرّك أن تغتنم أول فرصة تمكنك من أن تنفث سمك فى إنسان يرى حزبك أن من مصلحته أن يظهره للشعب فى صورة المرتد عن مبادئه السياسية .

ولما قال مستر أوكنل للناخبين فى دائرة ويكوم[1] عام ١٨٣١ إنه يحرص على مساعدتى فى الانتخابات ، كنت قد رشحت نفسى فى ذلك الوقت منافساً للحزب المتولى أزمة الحكم ، ووصفت ذلك الحزب فى خطبتى الانتخابية بأنه « شيعة باغية ظالمة عاجزة » — وكان هذا هو حزب الأحرار الإنجليزى الذى اتهمك بالخيانة فى خطبة العرش التى ألقيت فى السنة التالية ، والذى كنت قبل بضعة أشهر من ذلك الوقت تطعن على كل فرد من أفراده وتسلط عليه كل ماتعوده لسانك من بذىء اللفظ . والآن أراك يامستر أوكنل تناصر هؤلاء الرجال ، بل أراك من أشد الناس « إخلاصاً » لهم . أما أنا فلا أزال عدوهم الألد ، فمن منا إذن أكثر ثباتاً على مبادئه ؟

وتقول إنى كنت فى يوم ما حراً متطرفاً وإنى أصبحت الآن محافظا . ولكن ضميرى يبرئنى من وصمة الانشقاق على أى حزب سياسى أو تغيير رأى سياسى . لقد كنت فى عام ١٨٣١ أسعى لغرض نبيل صريح ، هو إعادة التوازن بين الأحزاب السياسية فى الدولة ، وهو عمل أعتقد أنه لا بد منه لشرف الدولة وسعادة الأمة . ولم أدافع طول حياتى عن عمل لا أعتقد أنه يؤدى إلى هذه الغاية ، وإذا كان ثمة عمل من الأعمال أيدته وقتئذ ولا أعمل لتأييده الآن ، فما ذلك إلا لأن الغاية التى كنت أسعى إليها قد تحققت .

وكان يسرنى فى عام ١٨٣١ أن أبذل كل ما لدىّ من جهد لبلوغ هذا الهدف مع مستر أوكنل الذى لم أكن أعرفه شخصيا ، ولكنه كان عضواً فى الهيئة التشريعية ، اشتهر فيها بنفوذه السياسى ، وبتعدد مواهبه ، وبكرهه الشديد واحتقاره لحزب الأحرار .

ولم نتقابل بعد عام ١٨٣١ إلا مرة واحدة ، ولكنى أذكر جيداً حديثى مع تلك الشخصية الممتازة . لقد كان حديثنا جد طويل ، أتاح لى فرصة كافية لدراسة أخلاقك .

---

(١) Wycombe

وكانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنى أنك رجل مضحك إلى أقصى حد ، ممتع كل الإمتاع ، ولكنك مقدر فوق قدرك . ولست أشك فى أننى لم أخف عنك آرائى السياسية وقتئذ ، فلقد كنت أتحدث إليك بصراحة هى من طبيعتى ، وقلت لك إنى من رجال السياسة العمليين لا من الذين يندفعون وراء عواطفهم ، و إن أهم ما أرغب فيه أن أرى فى البلاد حكومة قوية ، ولكنها حكومة دستورية ، تحفظ كيان الإمبراطورية ، و إن الأحرار إن بقوا فى كراسى الحكم سيحطمون هذه الإمبراطورية . وصرحت وقتئذ كما اعتدت أن أصرح أن من واجبنا أن نتخلص من الأحرار مهما كلفنا ذلك من تضحيات . وقد خيل إلىَّ وقتئذ أن آراءك لم تكن تختلف كثيراً عن آرائى ، ولكن حديثنا كان حديثاً عاماً ، لم نعقد فيه حلفاً سياسياً ، وذلك لسبب لا يصعب فهمه — فإنى لم أخف عنك ، ولم أخف عن أصدقائك ، أن وقوفك فى وجه الاتحاد بين بريطانيا وأيرلندة يجعل بيننا هوة لا يمكن اجتيازها ، وأنى لا أعرف كيف يستطيع حزب سياسى إنجليزى أيا كان لونه أن يتعاون معك بعد أن جهرت بعزمك على الوقوف هذا الموقف . ولعلك قد ظننت وقتئذ أن أنصار الحركة الإنجليزية القائمة فى البلاد تستطيع أن تتحالف معكم على نظام يكفل لها ولكم تبادل المساعدة ، وأنك تستطيع بفضل هذا الاتفاق أن تنشر مبادئك الهدامة . ولكنى أعتقد أنه ما من إنسان حتى مستر أوكنل نفسه صاحب الاعتقاد الثابت فى ضعف حزب الأحرار وخيانته يتصور أن شركاءه فى المؤامرة سيكون من بينهم بعد اثنى عشر شهراً لورد ملبورن (١) ومركيز لاندسدون (٢) .

أما إشارتك البذيئة إلى أصلى فإنى أعجب بها كثيراً ولا يخالجنى شك فى أن « العبد الذى ورث العبودية عن آبائه » قد نسى الآن قعقعة ما يرسف فيه من أغلال . إنى أعرف الخطط التى تسير عليها كنيستكم ، إنها ترفع عقيرتها منادية بالتسامح ، ولكنها تعمل جاهدة لتسيطر على سائر المذاهب ؛ ولا أرتاب فى أنكم على أتم استعداد لاضطهاد من يخالفونكم فى العقيدة .

أما ما عيرتنى به من إخفاق فى حملتى الانتخابية فلتسمح لى أن أذكرك بأنى لم يكن

---

(١) ، (٢) من زعماء الأحرار فى ذلك الوقت

لدىّ ما ألجأ إليه فيها إلا حكمة الناخبين . فلم يكن معى هيكل عظمى أهدمه به ، ولم ترسم على أعلامى رؤوس موتى وعظام مصلوبة ، وكانت مواردى المالية محدودة ، ولم أكن من أولئك المتسولين الذين تغص بهم كنائسكم ، والذين يسدون على الناس المسالك بصناديقهم ، وليست لى موارد كموارد الأمراء انتزعتها من شعب من الأرقاء المتعصبين يتضورون من شدة الجوع . على أننى مع ذلك موقن بأن ساعة انتصارى آتية لا ريب فيها ، وأنى سأجلس عما قريب فى ذلك المجلس الموقر الذى يجهر مستر أوكنل برغبته فى ألا يبقَى عضواً فيه . واعتقادى أننى سأمثل فيه الشعب قبل أن تنفصم عرى الاتحاد بين البلدين . وسنلتقى فى تلك الساحة . وثق أننى وأنا الرجل المؤمن بعدالة قضيته و بما له من جهود قد تبينت شيئاً منها سأغتنم أول فرصة فأنزل بك من العقاب ما يعيد إلى ذاكرتك تلك القبائح التى بسطت بها لسانك ، وستندم وتنتئذ على فعلتك .

بنجمين دزرائيلى

* * *

وتصالح دزرائيلى وأوكنل قبل موت ثانيهما فى عام ١٨٤٧ ، ولكنهما لم يكونا بعد ذلك صديقين . ويقول دزرائيلى إن أوكنل « قد بعث إلىّ برسالة يعلن فيها أن ما كان بيننا من خصام كان دائماً يقض مضجعه . . . وأنه كان يحيينى باحترام كلما قابلنى » .

من رسائل ربرت بروننج وإلزبث برت

نستطيع أن نتتبع فى الرسائل التالية قصة حب شاعر عظيم وشاعرة عظيمة ، عاشا فى القرن التاسع عشر وانتهى حبهما بزواجهما . وهى تمثل على حد قولهما « الموسيقى النفسية الكامنة » فى قلبين يخفقان متناغمين « فى منتصف الليل والناس سكون نيام » .

وتفصح هذه الرسائل نفسها عن عواطف الإخلاص والوفاء التى أوحت إلى إلزبث برت بروننج بأغانيها الخالدة المعروفة « بأغانى البرتغالية » .

وكانت إلزبث بروننج كبرى بنات إدورد مولتن برت[١] ، وهو رجل ثرى ورث فى جميكا ثروة طائلة . وكان الرجل أرستقراطيا من الطراز القديم ، رزق ثلاث بنات أبى أن يزوج واحدة منهن .

واعتلت صحة إلزبث حين بلغت الثلاثين من عمرها ، ولكنها كانت تجد سلوتها فى السفر ؛ ونشرت فى عام ١٨٤٤ طائفة من قصائدها لفتت إليها نظر الشاعر الكبير ربرت بروننج ، فكتب إليها الرسالة التالية يثنى على هذه القصائد . وسرتها هذه الرسالة فكتبت إلى صديق لها تقول : « لقد تلقيت فى الليلة الماضية رسالة من الشاعر بروننج أفعمت قلبى بهجة وسروراً — فهى من برونج — ملاك المتصوفة » .

— ٢٥ —

« ..... هذا الشعر العظيم الحى ..... »

نيوكرس ، هاتشام ، سرى[٢]

[فى ١٠ يناير سنة ١٨٤٥]

أحب شعرك من كل قلبى ياعزيزتى الآنسة برت . وهذه الرسالة التى أبعث بها إليك لم تجئ عفو الخاطر . ومهما يكن من شأنها فليست هى اعترافا سريعا عاديا بعبقريتك ، ينتهى أمره نهاية طيبة عادية .

---

(١) Edward Moulton Barrett.

(٢) New Cross, Hatcham, Surrey

لقد ظللت مذ قرأت قصائدك أول مرة فى يوم من أيام الأسبوع الماضى أفكر فيما عسى أن أصف به لك أثر هـذه القصائد فى نفسى ، وليس يسعنى الآن إلا أن أضحك من هذا التفكير . ولقد فكرت فى نشوة الفرح الأولى أن أخرج فى هـذه المرة عما ألفته من الاستمتاع السلبى الخالص حين أستمتع بشىء استمتاعا حقا ، فأبرر لك إعجابى بقصائدك — بل خطر لى أن أفعل ما يجب أن يفعـله الزميل الوفى ، فأحاول أن أجد فيهـا بعض العيوب ، فأحسن إليك بعض الإحسان الذى أستطيع أن أفخر به فيما بعد — ولـكن هذا التفكير كله لم يؤد إلى نتيجة . ذلك أن شعرك قد نفذ إلى أعماق قلبى ، وأضحى هذا الشعر العظيم الحى جزءاً من نفسى ، ولم تبق منه زهرة واحدة إلا أينعت فىّ وترعرعت . وما أعظم الفرق بينها و بين الأزهار المجففة المضغوطة التى يعلى الناس من شأنها ، و يضعونها بين دفتى الـكتب ، و يكتبون لها المقدمات والخواتيم ، ثم يطوونها و يضعونها على الرفوف ... وهم مع ذلك يسمون كتابهم هذا « أزاهير » .

على أننى لا أجد قط ما يحول بينى و بين تنفيذ قصدى هذا فى الوقت الملائم له . ذلك أنى حتى فى هذا الوقت حين أتحدث عن شعرك إلى من هو جدير بأن أتحدث إليه عنـه ، أستطيع أن أبين أسباب ما أجده فيه من المزايا المختلفة — من موسيقى عجيبة شجية ، إلى لغة سلسة متدفقة ، إلى شعور رقيق ، وتفكير حق جديد جرىء . هذا عن شعرك ؛ أما إذا تحدثت إليك أنت — إلى نفسك -- ولأول مرة فى حيـاتى فإن شعورى يعـلو على هذا كله .

صدقينى إذا قلت إنى أحب هذه القصائد من كل قلبى — و إنى أحبك أنت أيضا . وهل تعرفين أنى كنت فى وقت من الأوقات غير بعيد عنك أستطيع أن أراك — نعم أن أراك رأى العين ؟ فلقد سألنى مستر كنين[١] ذات صباح « أتحب أن ترى الآنسة برت ؟» ثم ذهب ليعلن تك قدومى — لـكنه عاد . . . . لقد كنت مريضة . ومضت على هـذه الحادثة عدة سنين ولـكنى ما زلت أشـعر بأنها كانت من الحوادث المشئومة فى أسفارى ، وكأنما كنت إلى جانب إحدى عجائب العالم المخبأة فى معبد ، أو مشكاة لا يحجبها عن

(١) Kenyon

ناظرى إلا ستار رقيق أدفعه بيدى فأدخل إلى حيث أمتع عينى برؤيته . ولكن هذا الحاجز الصغير الضعيف — كما يبدو لى الآن — ظل يمنعنى من الدخول حتى انقفل الباب الذى كان بعضه مفتوحا ، وعدت بعد ذلك إلى موطنى ، على بعد آلاف الأميال ، وحرمت هذه الرؤية أبد الدهر .

على أننى سأراها فى قصائدك ، وسأجد فيها هذه المتعة ، وهذا الفخر اللذين أشعر بهما وأشكر لك أن هيأت لى أسبابهما .

المخلص الوفى على الدوام

ربرت بروننج

* * *

وسُرَّت إلزبث برت بالرسالة أعظم السرور ، وكان لها فى نفسها أعظم الأثر ، ولم تضيع هذه الفرصة التى سنحت لها للاتصال بالشاعر العظيم ، فردت عليه من فورها بالرسالة التالية تعترف فيها بفضله .

— ٢٦ —

« . . . . من أعماق قلبى . . . . »

٥٠ شارع ومپول فى ١١ يناير سنة ١٨٤٥

أشكرك يا عزيزى بروننج شكراً يفيض من أعماق قلبى . لقد أردت برسالتك أن تدخل السرور على نفسى — ، ولو أن هذا الغرض لم يتحقق لكان من واجبى مع ذلك أن أشكر لك حسن صنيعك . فما بالك وقد تحقق قصدك كاملا . فيالها من رسالة ويا له من كاتب ! إن العطف فى حد ذاته شىء جميل وعزيز — وهو جد عزيز علىّ — ، ولكن عطف شاعر — وأى شاعر — ! هو فى نظرى جوهر العطف وخلاصته ! فهل تقبل منى شكرى واعترافى بالجميل ، إذا كنا متفقين أيضا فى أن أثمن تجارة تبادلها العالم من صور إلى قرطاجة هى تبادل العطف والشكر !

وأنت بعد هذا تجذبنى إليك بحنانك . وليس أصعب عليك من أن تبتعد عن قوم

بعثت فى نفوسهم فوق ما ينبغى أن تبعثه فيها من السرور والبهجة — وتلك حقيقة تعترف بها ، ولست أريد هنا أن أبحث فيما تنطوى عليه من خير أو شر . أما الذى أريد أن أقوله — بعد شىء من التردد الذى هو من طبعى — فهو أنك إذا اطرحت يوما ما من غير مشقة عليك « حالتك السلبية » ، وحدثتنى عما فى قصائدى من أخطاء تكشف عن نفسها ، وترى أنت أنها أخطاء خطيرة (لأنى بطبيعة الحال لا أرغب فى أن أكلفك عناء النقد المفصل) ، إذا فعلت ذلك فإنك تسدى إلىّ جميلا يدوم مدى الحياة ، وهو جميل عظيم الشأن أتطلع إليه على ما بيننا من بعد الشقة .

ولست أدعى أنى جد وديعة أتقبل كل نقد ، ولعلى لن أكون جد طيعة لك فى نقدك ، ولكنى أجل مواهبك وتجاربك فى فنك ، ومن أجل هذا لا أستطيع أن أستمع إلى شىء من ملاحظاتك العامة على ما تراه عيباً خطيراً فى شعرى من غير أن أفيد منها فى المستقبل بطريقة ما . وكل الذى أطلبه إليك هو جملة أو جملتان تتضمنان ملاحظاتك العامة — وحتى هذا لا أطلبه لأثقل عليك به ، بل أطلبه طلب الخاشع المنخفض الجناح كما هو خليق بالنساء وبخاصة إذا جئن يستعطفن .

وأظن أن أكثر ما يوجه إلىّ من النقد العام إنما يوجه إلى أسلوبى ، فكثيراً ما أسمع قول الناقدين — لو أننى غيرت أسلوبى ! — ولكن هذا اعتراض يوجه إلى الكاتب جملة وتفصيلا (أليس كذلك ؟) ، ذلك أن أسلوب الكاتب هو شخصيته كما يقول بَفُن[١] — وهو قول يشعر به كل كاتب مخلص لفنه . ومع هذا فإن هذه الحقيقة التى لا شك فيها قلما تنقص من حدة اعتراض الناقدين .

وهل حق ما قلته من أننى أوشكت أن أحظى بمعرفتك وأتشرف بها ؟ وهل صحيح أنك تنظر إلى ضياع هذه الفرصة بشىء من الأسف ! إنك لا شك تعرف أنك لو دخلت « المحراب » لبردت حرارة قلبك ، أو لأودى بك التعب ، ولتمنيت أن لو كنت « بعيدا عنى ألف ميل » ، ولوجدت فى هذه الأمنية من المشقة أكثر مما فى قطع هذه المسافة فعلا . على أنه ليس من مصلحتى أن أوحى إليك بأن ما حدث « كان كله خيراً لك » ، بل إن من مصلحتى أن أرجو — وأنا أرجو حقا — أن تسنح لى فى المستقبل فرصة تعوض علىّ ما فاتنى فى الماضى . إن

---

(١) Buffon

الشتاء يلزمني بيتي فلا أخرج منه قط، أما في الربيع فسوف ترى. وإني لأشعر الآن بتحسن كبير في صحتي يخيل إليّ معه أني سأخرج إلى العالم مرة أخرى. ولقد عرفت صوتك، وأنا لا أزال حبيسة في داري، ولكني لم أعرفه من شعرك فحسب، بل عرفته أيضا مما فيه من حنو وشفقة، ومستركنين لا يفتأ يحدثني عنك — وما أجل مستركنين في نفسي! — وليس في وسعي أن أتحدث قط عن فضله عليّ، أو أني لا أستطيع أن أتحدث عنه إلا والدمع يفيض من عيني؛ فهو صديقي ونصيري، وهو صديق كتابي ونصيره! وهو ينقدني ويعطف علي، وهو صديق بحق في جميع الأوقات! وأظنك تعرفه حق المعرفة، فتدرك أن من حقه عليّ أن أقر له بالجميل.

لقد أطلت الكتابة، ولكني على الرغم من هذا الطول سأكتب إليك عن شيء آخر. سأقول لك إني مدينة لك، وليس هذا الدين مقصورا على الرسالة التي أملاها عليك قلبك، وما حوته من أسباب السرور والغبطة لي، بل إنه ليشمل فوق ذلك أشياء أخرى أعظم منها وأجل قدراً: ثق أنني ما دمت على قيد الحياة أعترف من ينبوع الشعر المقدس، سأظل شديدة الإعجاب بأعمالك، عاكفة على دراستها، لا ينقص حبي وإخلاصي لها عن حبي للشعر وإخلاصي له. هذا ما ينطوي عليه قلبي، وما أريد أن أقوله لك — وقد قلته.

وليس لي بعد هذا إلا أن أقول إنني فخورة بأن أظل

الشاكرة المخلصة لك

إلزبث ب. برت

* * *

أما كيف أثمرت هذه الصداقة رابطة قوية وزواجا شعريا موفقا فسيراه القارئ في الرسالة التالية.

من إلزبث برت برونج إلى أختيها هنريتا واربل[1]
بعد فرارها وزواجها بربرت برونج

ظل الخطاب التالى سراً فى الأسرة حتى عام ١٩٣٥ ، حين بيع هو ومجموعة الرسائل الأخرى بأربعين ألف ريال . وتبين منها أن المراسلات التى بدأت بأولى الرسالتين السالفتى الذكر التى امتدح فيها ربرت برونج قصائد إلزبث برت لم تنقطع ، بل أعقبتها بعد قليل زيارات ، ثم خطبة ، استطاع بعدها أن يقنعها بأن تتزوجه رغم معارضة أبيها . وعارضت فى هذا الزواج أيضاً أسرة برونج نفسها ، لأن إلزبث كانت تكبره بست سنين ، ولأنها كانت معتلة الصحة . وكان لا بد من إخفاء الموضوع كله عن مستر برت . وتحسنت صحة إلزبث فى صيف عام ١٨٤٦ فتزوج بها الشاعر الكبير فى ١٢ سبتمبر من ذلك العام ، وسافرا بعدئذ إلى إيطاليا ليقضيا فيها الشتاء . ولما أقبل الربيع استقرا نهائيا فى فلرنس .

كل هذا تسجله إلزبث مفصلا فى رسالتها الطويلة إلى أختيها وهى الرسالة التى تنتقل فيها فجأة من موضوع إلى موضوع دون تمهيد .

— ٢٧ —

« يظن أبى أنى بعت روحى — للعبقرية ... للعبقرية فحسب »

روان[2] فى الثانى من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٦ :

أشكركما وأدعو لكما بخير يا عزيزتىّ هنريتا وأربل ... يا أعز الأخوات وأشفقهن ! لقد قاسيت من الشدائد قبل أن أصل إلى أورليان[3] ما لا يعدله فى هذه اللحظة التى أمسك فيها كل رسائلكما بيدى إلا عظيم شكرى لكما ، وإلا الدموع التى أذرفتها ، وإلا القبلات التى طبعتها على كل سطر من الأسطر التى كتبتماها إلىّ ... يا أعز الأخوات وأشفقهن . إن الأسبوع الذى تأخرته فى باريس كاد يقضى على حياتى فى أورليان ... ولقد قلت وقتئذ إنه كاد يقضى على حياتى ، فلقد سبب لى ذلك التأخير الشىء الكثير من القلق والرعب . ثم

---

(١) Henerietta and Arabel Barret (٢) Roanne (٣) Orleans

جاء ربرت بإضبارة كبيرة من الرسائل ... أمسكتها بيدى ، ولم أستطع أن أفض واحدة منها ، بعد أن امتقع لونى ، وبردت أطرافى ، وزادت حالى سوءاً فى كل لحظة . وأراد هو أن يجلس إلى جانبى وأنا أقرأ الرسائل ولكنى رفضت ، لأنى كنت قد اعتزمت ألا أسمح له بهذا قبل أن يحين الوقت الملائم ، واستطعت بعد رجاء أن أقنعه بالابتعاد عنى عشر دقائق ، أتحمل فيها الألم وحدى ، وأتحمله بشجاعة أعظم مما لو كان هو إلى جانبى ، وتلك عادتى كما تعلمان . يضاف إلى هذا أن الخير كان فى ألا يطلع هو على . . .

لقد كان بعض هذه الرسائل قاسياً شديد الوقع علىّ ، وأنا أقصد الرسالتين اللتين كتبهما والدى وأخى چورچ العزيزان ؛ فأما الأولى فكان من حقها علىّ أن أحنى لها رأسى إجلالا لها ، وإن كنت لا أظن أنى جديرة بأن أتجرع تلك الكأس المرة حتى الثمالة جزاء لى على العمل الذى دبرته وأقدمت عليه ، ولكنه أبى ومن حقه بطبيعة الحال أن ينظر بعينيه هو إلى ما يراه أمامه ليحكم عليه . أما چورچ فإنى أصارحكما القول بأنه كان قاسياً علىّ حين كتب ، وكأنه كتب إلىّ بحد السيف لا بالقلم . وهل هناك ما هو أقسى من أن أتهم بأنى لم أكن أحبكم جميعاً ، أنا التى لا أضن عليكم بحياتى أضحى بها لأقل إشارة منكم ، إن كان لا بد من التضحية وكان فيها نفع حقيقى لأحدكم . ولو أنكم أثبتم لى ذلك لكانت حياتى وسعادتى رهن إشارتكم .

وكان قاسياً حين اتخذ حبه لى وسيلة لتحطيم قلبى برسالته . ولكنى أعذره لأنه كتبها وهو مهتاج غير عالم بالحقيقة ؛ وأسأل الله أن يظهر له ولأقلكم تصديقا لى ، أنى لم أحبكم فى وقت من الأوقات ، أنتم أحبابى جميعا ، أكثر من حبى لكم حين فارقتكم — أى فى ذلك اليوم وفى تلك اللحظة . . .

والآن أخبركما أن ربرت — وقد كان فى اعتقادى ينتظر بجوار الباب فى شدة القلق علىّ — جاءنى ووجد أن قد عاد إلىّ من قوتى ما أستطيع به أن أبكى من ألفاظكما الرحيمة التى كانت بلسما لجراحى . فوضعت رسالتيكما بين يديه ؛ ولما قرأهما اغرورقت عيناه بالدموع ، وأخذ يقبل ما بين ألفاظ الرسالتين ثم قال لى : « إنى أحب أختيك من كل قلبى ، وأنا عاجز عن أن أعبر لهما عن شكرى ، وسيكون همى فى الحياة أن أثبت لهما أنى جدير بهذه الأمانة كما يقولان فى هاتين الرسالتين » . . .

آه يا أختىّ العزيزتين هنريتا وأربل ، ما أشدما قاسيت فى ذلك اليوم — يوم الأحد المشئوم . . . حين اضطررت أن أمثل أمامكما دوراً متصنعا ! ما أشد ما قاسيت وأنا أفكر فى أنى إن بدا على وجهى شىء مما أخفيه من ألمى أشركتكما فى الحزن الذى كان لولا هذا يبقى لى وحدى . ولكن أربل كشفت السر رغم ما بذلت لإخفائه من جهود ! ولذلك أصبحت أخشاها — فقد كانت تسدد نظراتها إلىّ ، وكانت نظرات جد ورزانة . . . آه ياعزيزتى هنريتا وأربل ! يجب أن تعلما كلتا كما أنى ، وإن كانت ظروف ذلك الوقت التى لا تخفى عليكما قد ألجأتنى إلى الرضا بأن يكون زواجى قبل سفرنا ببضعة أيام ، قد اشترطت ألا يرانى فى ذلك المنزل بعد الحفل ، بل ألا يرانى مطلقاً إلا ونحن مسافران .

وافترقنا ، كما التقينا عند باب كنيسة مارى لبون [1] ، وأخذ بيدى إلى مائدة العشاء الربانى ولم ينطق أحدنا بعد ذلك بكلمة . وقد قال لى بعدها إنه لم يكن ثمة فرق بينى وبين الموتى . . . ، وكنا نخشى وقتئذ أن يحدث حادث يفسد علينا كل تدبيرنا ، أو أن أضطر على الأقل أن أسافر إلى لندن قبل إتمام مراسيم الزواج ، وهو العمل الذى لا أرضاه لأسباب لا تخفى عليكما . إذن لم يكن ماحدث فراراً بل كان فى واقع الأمر زواجاً خاصاً ، وقد كنا كلانا نكره أن نثير بعملنا شيئاً من التطفل وحب الاستطلاع لدى طائفة معينة من الناس . ولم يعرف ولسن شيئاً مما انتويناه إلا فى الليلة السابقة . أما ما قاسيته وأنا معكما فنى وسعكما أن تتصوراه . لقد كانت آلامى تزداد بنسبة ما أبذله من الجهد الناجح لإخفاء هذا الألم . وإن مجرد التفكير فى هذه الجهود ليحز الآن فى نفسى . وأرجو أن تعفوا عن كل ما كفرت عنه فى أعماق قلبى .

ولقد وصلتنى فى أورليان مع رسالتيكما رسالة من صديقى العزيز مستر كنين ، وهى رد على ما كتبناه إليه من الرسائل أخيراً . وصدقانى إذا قلت إنى لم أتلق قط رسالة أكرم منها ولا أرحم ولا أدل على ثقته بنا — وما أكثر ما خففت من آلام ربرت المسكين لأنها تفصح عن رأى صديق يحبه ويعتمد عليه لأسباب كثيرة . وسأنقل إليكما بعض ما قاله المستر كنين لأن لرأيه كما تعلمان قيمة كبيرة فى نظرنا :

---

(١) Marylebone

« عزيزتى ب . ب .[1] تلقيت بالأمس بعض رسائل زوجك ، واسمحى لى أن أقول بإيجاز ، كما هو الواجب علىّ فى هذه الظروف ، إنى راض عن كل ما كنتما تفكران فيه وتشعران به ، وعن كل ما فعلتماه ، وأعتقد أنه لا يمكن أن يصدر منك ومن بروننج تفكير أو عمل غير كريم . ولقد كان من أثر الظروف الخاصة التى أحاطت بكما أن استحال ما يمكن أن يسمى فى غير هذه الظروف نزقا وطيشا إلى فطنة و بصيرة ، وما قد يبدو فى ظاهره عناداً إلى نزول على حكم الضرورة . ورأيى الشخصى فيكما أنى لا أعرف شخصين كلاهما أجدر بالثانى منكما ، و إذا شئتما أن أتحدث حديثاً شخصياً إليكما قلت إنه لا يمكن أن يكون من غير أسرتيكما شخص أكثر منى حباً لكما ، أو أكثر رجاء لسعادتكما ، و إن من أبهج الأفكار التى يمكن أن تمر بخاطرى أن أتمتع إذا عشت بحبكما و بوجودى معكما مجتمعين فى المستقبل ، كما تمتعت حتى الآن بالسعادة بوجودى مع كليكما وحده » . . .

ولقد اضطررت (لضيق الصحيفة) أن أقتطع من الرسالة جملة أو اثنتين ولكنهما لا تختلفان عن سائر ما فيها .

ألا ما أعز مستركنين على نفسى ، وما أكثر شفقته علىّ ! وأنا أحبه حباً لا يعدله حب . كذلك جاءتنى رسائل تفيض شفقة وعطفاً من الآنسة متفرد ، ومن نلى بوردمن ، ومستر چاجو[2] . وقد أرسل چاجو إلىّ وصفاً لدواء أشربه ، ودعا إلىّ بخير ... أما چين فقد كتبت إليها حين كنت فى باريس ... ، أو على الأصح حين هممت أن أغادر باريس ، ولكنى لم أكتب إلى منى بعد . و إذا استرحت من متاعبى نحو نصف ساعة فسأكتب إليها ما فى ذلك شك . وأشكر لكما عنايتكما بكتابة الرسالتين اللتين بعثتما بهما إلىّ كما تقولان فى هاتين الرسالتين .

هل وصلتكما رسالتى الطويلة التى كتبتها فى باريس ؟ وهل تلقت تربى[3] رسالتى القصيرة التى كتبتها فى هافر ؟ آه ياعزيزتى تربى ! أرجو ألا تسمحا لها بأن تسىء بى الظن .

---

(١) برت برونج

(٢) Mr Jago, Nelly Bordman, Mitford وقد رأينا أن نستبقى هذه الأسماء كما هى محافظة على أصل الخطاب ولسنا نريد من القارئ بطبيعة الحال أن يعرف عنها شيئا .

(٣) Trippy

إن عملى هذا لا يستطيع أن يحكم عليه إلا من عرف الرجل الذى تزوجت به حق المعرفة . أنه يبرهن فى كل ساعة على أنه أعظم منى قدراً ، و إذا كان مخلوق أرقى من بنى الإنسان تحيط برأسه هالة من المجد قد عاش فى الأيام الأخيرة على ظهر هذه الأرض فقد كان هو هذا المخلوق .

يظن أبى أنى بعت روحى — للعبقرية ... للعبقرية فحسب ، وذلك عمل كنت أعمله وأنا صغيرة السن لو أتيحت لى فرصة لعمله ... أما الآن فقد أمسيت بعيدة عن ذلك الخطر . لقد رضى زوجى برهة من الزمان أن يضع نفسه موضع الريبة من أجلى ، من أجل حبه لى ، من أجل افتتانه بى افتتاناً دهشت له من أول الأمر إلى آخره .

وما من شك فى أن أكثر الناس ارتياباً فى أمره سيكونون فى المستقبل أعظم الناس تقديراً له ؛ وكل ما يجب علينا هو أن نصطبر قليلا ونسلم أمرنا إلى الله . و إلى أن يحين ذلك الوقت أحب أن أطلعكما على حقيقة أمره — حقيقة أمره بالنسبة إلىّ — وأرجو أن يكون لكما من الثقة بى ما يحملكما على تصديقى . إنه يستعين بملكاته كلها ليدخل علىّ السرور والراحة ... وهو يسحرنى فيوجه أفكارى إليه إذا رأى هذه الأفكار شاردة ... وهو يضطرنى إلى الابتسام على الرغم من هذه الأفكار جميعها — ليتكما رأيتماه يوم أن كنا فى أورليان .

لقد وضعنى بنفسه على السرير ، وجلس إلى جانبى ساعات طوالا ، يغمرنى بعبارات العطف التى تفيض من قلبه ، وتدل على الخير الذى تنطوى عليه نفسه ، و يعدنى بأن يُرجع لى بفضل الله وعونه حب من غضب علىّ من أهلى . وهو يزداد حبا لى كل يوم ، وقد مضى علينا معاً حتى الآن أربعة عشر يوماً ، ولن أنسى قوله لى فى رقة عميقة صادقة . . . « لقد قبلتُ قدميك يابَ[1] قبل أن أتزوج بك ، أما الآن فإنى أُقبل الأرض تحت قدميك . إنى أحبك الآن أضعاف ما كنت أحبك من قبل » . وهو فى قوله هذا صادق كل الصدق ، فأنا أرى هذا الحب وأحس به ، وأنا أشعر أن فى قدرتى أن أسعده ... نعم أشعر أنى أملك هذه القدرة ، و إن كان من أعجب الأشياء أن يحبنى مثل هذا الرجل النابه ؛ ولكنه حب حقيقى عجيب ... لا أستطيع أن أشك فيه بعد الآن . ومن أجل هذا سننعم بالسعادة الكاملة إذا استطعت أن أفكر فيكم كلكم دون أن يحز الألم فى قلبى . أما أسرته فكانت

(١) برت .

شديدة العطف عليّ . فقد رأى أبوه أنه بلغ السن التى يستطيع فيها أن يحكم على أعماله ، ولم يفكر قط فى أن يتدخل فى أمره بأكثر من أن يقول له فى آخر لحظة : « قبل لى زوجتك » ؛ قال ذلك ساعة أن افترقا . وقد أرسلت أخته إلىّ مكتباً صغيراً يصلح للأسفار ومعه هذه الكلمة : « إلى إ . ب . ب ؛ من أختها سَرْيانا »[1] ، ولم يغضب أحد لأنه أخفى أمره عنهم ، وذلك لاعتقادهم أن ثمة أسباباً حملته على هذا الإخفاء ، و إن كانت لا تنقص من حبه واحترامى لهم .

لقد قلت لكما إن مسز چيمسن[2] كانت تصحبنا فى سفرنا ، و إننا رأيناها كثيراً فى باريس . وهى لا تفتأ تقول عن ربرت إنها لم تعرف له نظيراً فى سعة العقل وخصب الخيال ، تزينه أخلاق طيبة وعادات جميلة ، تستهوى النفوس وتأسر القلوب . ولا غرابة فى أن تقول فيه مسز چيمسن هذا القول ... فهو يرعانا بالليل و بالنهار ، يفكر فيما يشعر به كل منا ... وهو حلو الفكاهة ، عاقل متزن ... (وهو سخيف فى موضع السخف) ، وهو يدخل السرور على العجائز الغاضبات اللاتى لا يفتأن يتململن و يشكون المرض ، و يتحدث باللاتينية إلى القساوسة الذين يجيئون فى الساعة الثالثة صباحاً و يسألون هل . . . ؟ ولا يغفل عن شىء أو ينسى أحدا ... أللهم إلا نفسه ... هذا هو الشىء الوحيد الذى يغفل عنه ... وأؤكد لكما أنه كسب قلب ولسن . وعلى ذكر ولسن أقول إنها طيبة نشطة فوق ما كنت أنتظره منها ، و إنها كانت مخلصة وفية لى على الدوام ، وهى الآن لا تخاف الفرنسيين ، وقد تعلمت كيف تأتى لنا بالماء الساخن والقهوة والخبز والزبد ... وأسألكما عرضاً هل تعرفان مايقصد چورچ بقوله « أربل ومنى شريكتاى فى الجريمة » ؟ ألم يصدقنى حين قلت له ماينافض هذه الأقوال تماماً ؟ أو أن عزيزتى منى قد ذكرتنى عنده بخير أكثر مما ينبغى فاستحقت على ذلك اللوم ؟ أما أربل فإن معرفتى إياها لا تقل عن حبى لها ... ولست أسأل أحداً عما قالته عنى .

ولكنى لابد أن أفكر ... أفكر ... فيما سببته لك يا عزيزتى أربل من آلام مبرحة فى مساء ذلك اليوم ! إنى لترتعد فرائصى حين أتصورك فى ذلك المساء يا أربل ، يا أحب الناس إلىّ ! لا تظنى يا أربل أن الحب الجديد يستطيع أن يفسد الحب القديم . فأنا

(١) Sariana

(٢) Mrs. Jameson

أعتقد أنى أحبك الآن أكثر مما أحببتك فى أى وقت مضى . وسيكتب إليك ربرت من بيزا وسيكتب كذلك إلى هنريتا . وهو يقول إنه يحبكما كما يحب أختيه ، ويتمنى لو كنتما معنا ، ويرجو أن يحظى بذلك فى يوم من الأيام . . ، فتقيما معنا وتسافرا معنا كما أقيم وأسافر أنا بالضبط . ويجب أن أحدثكما عما قالته لى مسز جيمسن من بضعة أيام . . ، لقد قالت : « إن من أبهج المناظر أن أراكِ أنتِ ومستر بروننج معاً . ولو أن إنساناً أراد أن يختار من طرفى الأرض شخصين ليتحدا ويأتلفا لما وجد أجدر منكما بذينكما الحب والائتلاف » . وأنا أنقل إليكما هذا القول لأنى أظن أنه يسركما كل السرور أن تعرفا ما انطبع فى عقل هذه السيدة النبيلة وإن كان فيه من الثناء علىّ أكثر مما ينبغى ... أما فيما عدا هذا فإذا كان هو ذكيا وكنت أنا غبية (من الناحية الاجتماعيــة) ، فإن الحب يقرب بيننا ، وفى ذلك كثير من السلوى لى .

لقد قضينا ليلتين فى عربة السفر (ولم تكن الليلتان متتابعتين بطبيعة الحال) ، وتعبت كثيراً من أشياء أخرى ، ولكن هذا التعب لم يؤذنى أذى حقيقيا ، فإنى ألقى عناية كثيرة وأتخـذ من ذراعى زوجى وركبتيه وسادة لى ··· وهو يحملنى رغم إرادتى إذا نزلت الدرج أو صعدت عليها . . . . ويدللنى ويهتم بى بكل وسـيلة مستطاعة . وقد أفادنى تغيير الهواء ، فأنا الآن أقدر ممـا كنت على العمل ، وحين نصل إلى بيزا ونستريح من وعثاء السفر لن يبقى للتعب فيما أظن أى أثر اللهم إلا أثره الطيب . وإنكما لتدهشان إذا رأيتمانى قد اطرحت جميع عاداتى ! — ، ويخيل إلىّ أنى فى حلم . وسنستقل القطار غدا إلى ليون ، ونركب بعد غد زورقا فى نهر الرون ، ثم نقيم يوما فى أفنيون[١] نسافر بعــده إلى فوكلوز[٢] لنتتبع فيها آثار بترارك . ولم يسمح لى اليوم بمغـادرة الفراش حيث أكتب الآن رسالتى لأننا قضينا الليلة الماضية فى السفر — ، وقد جىء بالخوان إلى جوار الفراش (كما يفعل الأجانب يا أربل) ليتناول عليه ربرت طعامه ، ولأتناول أنا عليه أيضا طعامى . . . . .

ويسرنى أنكما فى الريف — فاكتبا إلىّ - واكتبا . . . . نبئآنى بكل شىء ، نبئآنى هـل تحبان بلدة بوكهام[٣] الصغيرة ؟ إن نصف روحى معكما . أعانكما الله يا أختىّ المحبوبتين . بلغا حبى إلى مستر بويد[٤] ، وسأكتب إليه أنا بعد قليل . وقولا ذلك أيضا

(١) Avignon (٢) Vaucluse (٣) Bookham (٤) Mr. Boyd

لمسز مارتن[١] . وهل تشعران وتعلمان أن . . . . . . مقامى بوصفى زوجة . . . . هو السعادة بعينها فى هـذا العالم ؟ فزوجى طيب رحيم يفضلنى فى كل شىء ، وكلانا يحب الآخر حبا لا ينقص على مر الأيام بل يزيد . وأنا أتحدث إليكما عن هذه الأشياء بدل أن أتحدث عن كنيسة بورج[٢] لأنى أحس أنها هى الأشياء التى ترغبان فى معرفتها .

وسأكتب إلى أبى — وإلى چورچ توا — نعم سأكتب إليهما — آه — إن چورچ لم يكن ليكتب إلىّ بمـا كتب لو أنه عرف كل ما فى قلبى . ولـكننى أحس أنه كان يحبنى وهو يكتب إلىّ ، وأنا نفسى أشعر بهذا كلما آلمتنى كتابته . عزيزى چورچ — إنى أحبه حبا هو جدير به . وأبى المسكين ! إنى أفكر فيكم جميعا ، وأفكارى لا تفارقكم . ياعزيزتى هنريتا وأربل ، اسمحا لى أن أكون كما كنت من قبل وكما سأكون أبد الدهر .

حبيبتكما

بَ

كنت أقصد أن أبعث إليكما بالرسالتين بعد ساعة من مغادرتى شارع ومپول[٣] ... ، وقد ساءنى كثيراً بل أحزننى أنى لم أفعل . أما عن سفرى إلى بوكهام[٤] فقد فكرت فيه مرة — ولـكننى لو فعلت لأسأت إليكما كثيرا بهذا السـفر ، لأنى كنت حينئذ أفسد به المناظر الجديدة التى وصفتها لـكما بدل أن أجعله من أسباب متعتكما — كونا سعيدتين ياعزيزتى وثقا أنى سأكتب إليكما .

* * *

ولم يعف مستر بَرِت عن ابنته مطلقا ، ولم يزُل ما بينهما من جفاء . أما ربرت براوننج وزوجته فقد عاشا فى فلرنس من عام ١٨٤٧ حتى توفيت إلزبث فى عام ١٨٦١ ، ولم يبرحاها إلا فى زيارات متفرقة إلى باريس ولندن . وقد كتبت إلزبث « أغانى البرتغالية[٥] » فى أثناء خطبة ربرت لها ، ولـكن أحدا لم يرها إلا بعد الزواج ، وأهدتها إلزبث إلى زوجها فى پيزا وأثمر هذا الزواج ولدا فى عام ١٨٤٩ .

---

(١) Mrs Martin (٢) Bourges (٣) Wimpole

(٤) Bookham (٥) Sonnets from the Portuguese

إلزبث برت بروننج تتوسل إلى ناپليون الثالث أن يعفو عن ڤكتور هوجو

لسنا نتوقع بطبيعة الحال أن يكون ناپليون الثالث (لوى ناپليون) شديد العطف على أديب كبير مثل ڤكتور هوجو ؛ ذلك أن هوجو لم يكن صريحا فى إبداء آرائه فحسب ، بل كان فوق ذلك يبديها فى قوة وعنف . وكان من أثر عدائه لناپليون الثالث ومن أثر صراحته وقوته أن نفى من فرنسا . وأوحى ذلك إلى إلزبث برت بروننج ، وكانت هى الأخرى شبه منفية فى خارج بلادها لأسباب صحية ، أن تكتب هذه الرسالة القوية تدافع فيها عن زميل من الأدباء لم تكن لها به صلة غير صلة الفن . وهو دفاع مجيد أوحى به شعور نبيل وخلق كريم .

— ٢٨ —

« ... ذلك يامولاى صوت امرأة أوتيت من الجرأة ما يدفعها إلى الجهر بما يتردد فى صدور الكثيرين ولكنهم لا ينطقون به »

مولاى .

لست إلا امرأة ، كل ما لها من الحق فى أن تطلب إلى جلالتكم أن تُعنوا بأمرها لا يزيد على ما لأضعف الناس من حق على أقوامهم . ولعل اسمى نفسه لم يصل إلى مسامع جلالتكم ، فلم تعرفوا أنه اسم لزوجة شاعر من شعراء الإنجليز ، وأن صاحبته تذكر أحيانا بين الشعراء ؛ وأنا لم أتقدم لمليكى قبل الآن بمطلب ما ، ولست أحذق وسائل مخاطبة الملوك ، ولكن ما قضيته من حياتى فى الدرس والتفكير قد جعلنى آلف العظماء (عظماء الموتى على الأقل) ، ولذلك لا أجدنى عاجزة كل العجز عن مخاطبة الإمبراطور ناپليون .

وأرجوك أن تصطنع الصبر معى حين أتوسل إليك ، فإنى لا أفعل ذلك لنفسى ولا لأحد من أهلى . لقد كنت أقرأ بعين دامعة وقلب حزين (كما فعل فى الأيام الأخيرة كثيرون ممن يحبون جلالتك وكما فعل أيضا بعض من يبغضونك) كتاباً يسمى « التأملات »

كتبه رجل أخطأ فى حقك كل الخطأ فى بعض ما أبداه من الآراء السياسية . ووردت على لسانه وهو منفى فى چرسى ألفاظ حمقاء وأقوال ليس لهـا ما يبررها ؛ ولست أعرف شخص هذا الرجل ولم أر وجهه قط ، وما من شك فى أننى لا أكتب إليك الآن لأعتذر عنـه . والحق أنى أرى أن عدم وجود عذر له هو عين السبب الذى يجعله جديرا بعفوك . وذلك أن هذا الرجل ، مهما يكن من أمره ، شاعر من كبار شعراء فرنسا ، ومن واجب الإمبراطور الذى يرعى مجد فرنسا أن يذكره وألا يتركه بحاله التى هو عليها .

أى مولاى ، إن ما كتبه عن (نابليون الصغير[1]) لا يهم جلالتك ، بل الذى يهمك ألا يضطر واحد ممن يؤرخون ذلك العصر فيما بعـد إلى القول : « إن ڤكتور هوجو كان يعيش فى المنفى حين كان نابليون الثالث يحكم فرنسا » . إن الذى يهمكِ ألا يقول قائل حين يشيد أبناء وطنك بفضلك ويذكرون من أنجبتهم فرنسا من رجال التجارة والحرب والعلـم « ولـكن أين شاعرنا ؟ » . إن الذى يهمك ألا يأسى على إبعاد هذا الرجل أحد من ذوى العواطف الرقيقة أو من النساء مثيـلاتى مهما تكن الأعذار التى يبرر بهـا رجال الحـكم والسياسة إخراجه من بلده . إن الذى يهمك أنه إذا قرأ ابنك الأمير المحبوب هذه القصائد (وأنت يا مولاى حين ترغب فى أن يتطبع بطباع الأمراء لا شك راغب أيضا فى أن يكون لهذه الأشياء أثر فى نفسه) أفعم قلبه سرورا حين يذكر أن أباه الإمبراطور قد بلغ من العظمة حدا استطاع معه أن يغلب منشئها بكرمه وعلو نفسه .

أجل يا مولاى حسبك ، ما بلغت من عظمة ، وفى وسعك أن تغض الطرف عن نزوات الشعراء وعما تُلَوِّح به المواهب العالية من مغريات ، وما ينتاب الشـعراءِ من حمى عارضة تدفعهم إلى الثورة أحيانا ، ويقاسون من آثارها فوق ما يقاسيه غيرهم من الناس . إن مثلك لا يخفى عليه أنهم حين يبغضون أشد البغض لغير سبب ، يكمن فى ناحية من نواحى نفوسهم حب قدسى ، وأنهم حين يخطئون أسـوأ الخطأ فى نظرتهم إلى الأمور يخلصون لمثل أعلى ينشدونه . فاعف عن هذا العدو الذى يتهمك ويفترى عليك ، وأثبت له بكرمك أنه مخطئ فى اتهـامه لك وافترائه عليك ، ولا تجعل هناك سبيلا لدمعة يذرفها أمامك إنسان معجب

---

(١) Napoleon le Petit من أقوال ڤكتور هوجو فى نابليون الثالث

بشعره ، واستثنه كما استثناه الله حين وهبه عبقريته الفذة ، وأعده إلى وطنه و إلى قبر ابنته بلا قيد ولا شرط .

لقد كتبت ما كتبت دون أن يعرف بذلك أحد ، وكان حقا علىَّ بطبيعة الحال ، وأنا امرأة ، أن أتوجه بخطابى إلى زوجتك الرحيمة الإمبراطورة أوجينى ؛ ولكنى وأنا زوجة ظننت أن العفو عن ذنب يرتكب فى حق الإمبراطور نابليون أصعب على جلالتها منه على الإمبراطور نفسه .

و إنى لأشعر بدافع لا أستطيع مقاومته يدفعنى نحو أقدام جلالتك ، لأتوسل إليك بأن تعفو عنه . ذلك يا مولاى صوت امرأة أوتيت من الجرأة ما تستطيع به أن تجهر بما يتردد فى صدور الكثيرين ، ولكنهم لا ينطقون به . و إنى لعظيمة الثقة بنابليون الثالث ؛ و إن حبى الشديد للدمقراطية ليدفعنى إلى أن أعتقد من بادئ الأمر أنها ستجد فيك ومنك أكبر عون . وأنا موقنة بأنك ستكون عظيما فى أعمالك ، وسأوقن فوق هذا بأنك ستكون نبيلا فى عفوك ؛ وما من شك فى أنك ستكون نابليون فى هذا أيضا .

إلزبث برت بروننج

* * *

ولكن هذه الرسالة ككثير من الرسائل الأخرى التى كتبت فى أوقات الانفعال لم ترسل إلى من كان يراد إرسالها إليه . و بقى فكتور هوجو منفيا حتى هزم نابليون الثالث فى ميدان القتال ونفى هو أيضا من فرنسا .

شارلت برنتى تتحدث عن موت أختها إملى

[رسالتها إلى إلن نسى]

كانت شارلت برنتى وأختاها إملى وآن[١] كلهن كاتبات مجيدات ، خير ما خلفنه من الآثار الأدبية فى اللغة الإنجليزية روايتا چين أيرى[٢] لشارلت ومرتفعات وذرنج[٣] لإملى . وللأخوات الثلاث ديوان شعر اشتركن فيه جميعا

وقد توالت المصائب على هذه الأسرة البائسة . فماتت أولًا أمهن ، و بعد أربع سنين من موتها ماتت اثنتان من بناتها ، وفى عام ١٨٤٨ مات أخوهن پترك برانول[٤] بالسل بعد أن أدمن الأفيون والخمر ، ثم مرضت إملى بعد ذلك بقليل ، ولكنها لم تنقطع عن الكتابة حتى يوم وفاتها ، وأبت أن تعرض نفسها على الطبيب ، وأخذت تغالب الموت حتى غلبها فتوفيت بعد ثلاثة أشهر من وفاة أخيها . و بعد أن ووريت التراب كتبت أختها شارلت إلى صديقتها إلن نسى[٥] تقول :

— ٢٩ —

« ليست الآن فى حاجة إلى أن ترتعد من البرد القارس والريح الصرصر العاتية »

فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٨

عزيزتى إلن

إن إملى لا تعانى الآن شيئاً من الألم أو الضعف ، ولن تعانى شيئاً منهما فى هذا العالم بعد الآن .

لقد غادرته بعد كفاح شاق قصير إذ توفيت فى يوم الثلاثاء ، وهو اليوم الذى كتبتُ لك فيه . وكنت أظن وقتئذ أنها قد تبقى معنا عدة أسابيع ولكنها انتقلت إلى دار الخلد بعد بضع ساعات من ذلك الوقت . نعم إن إملى لم يعد لها الآن وجود فى الزمان أو المكان ، فقد وارينا جسمها الفانى الضعيف الهزيل فى الثرى ونحن هادئون ، ولا يزال هذا شأننا الآن ؛

---

(١) Emily and Anne Bronte و Charlotte (٢) Jane Eyre

(٣) Wuthering Heights (٤) Patrick Branwell (٥) Ellen Nussy

ولم لا نكون هادئين ؟ لقد زال عنا الآن ما كنا نحس به من الألم الشديد حين نراها تعانى الآلام ، وغاب عنا منظر الآلام التى عانتها فى أثناء الموت ، ومر يوم الجنازة ، وأصبحنا نحس الآن أنها فى سلام ، وليست هى الآن فى حاجة إلى أن ترتعد من البرد القارس والريح الصرصر العاتية . فإملى لا تشعر بشىء منهما . ولقد ماتت فى وقت كانت فيه الآمال تبسم لها ، ورأيناها تختطف من بيننا فى ريعان الشباب ، ولكن بهذا قضى الله ، وإن الدار التى انتقلت إليها خير من التى غادرتها .

* * *

وحزنت شارلت على أختها حزنا شديداً ، ولم تكد تجف دموعها حتى لحقتها أختها الأخرى آن بعد خمسة أشهر . وقد كتبت إلى صديقة لها تقول : « ما أشد ما أعانى حين أجلس فى الحجرة وحدى أسمع دقات الساعة عالية فى بيت يخيم عليه السكون ، وتمر أمام مخيلتى حوادث العام الماضى ، وما قاسيته فيه من صدمات وآلام وخسارة » . وعاشت شارلت بعد أختيها نحو سبع سنين . وأخرجت رواية شيرلى[1] التى صورت فيها إملى أحسن تصوير . ولما كتب صديق لها فى إحدى المجلات يقول إن الكتاب قد كتبته « أنثى » أرسلت إليه شارلت خطابا تؤنبه ، وكان خطابها هذا مكونا من جملة واحدة هى : « إن فى وسعى أن أحترس من أعدائى ، ولكنى أدعو الله أن ينجينى من أصدقائى » .

وتزوجت شارلت فى يونيه من عام ١٨٥٤ ، ولم يمض على زواجها إلا أقل من عام حتى توفيت هى الأخرى بالسل ، ولم تبلغ هى أو إحدى أخواتها سن الأربعين .

---

(١) Shirley

رسالتان من أبراهام لنكان إلى أخيه وإلى سيدة فقدت أبناءها الخمسة فى الدفاع عن البلاد

كتبت هاتان الرسالتان فى عامى ١٨٤٨ ، ١٨٦٤ ؛ وهما تفصحان عن ناحيتين مختلفتين من حياة الرئيس العظيم . ففى الرسالة الأولى نرى الحكمة الدنيوية وبعد النظر ؛ وفى الثانية نرى العطف ورقة الشعور . وهما معاً تفصحان عما تتصف به روح رجل قال عنه أحد أصدقائه إن الحوادث صهرته فخرج منها كالذهب الخالص لا تزيده النار إلا صفاء .

وتفصح الرسالة التالية عن الناحية الشخصية الخاصة من حياة لنكلن ، وهى ناحية تختلف كل الاختلاف عن العظمة الأخلاقية التى تتمثل فى كثير من أقواله الشهيرة ، فهو يلقى فيها على شاب من أسرته درساً فى الاقتصاد والجد ، وهى نموذج من التفكير الواضح السليم ، والكتابة الجدية الصريحة الخالية من الالتواء والتعقيد .

كانت سلى بش لنكلن[١] زوجة أبيه تعيش وقت أن كتب هذه الرسالة فى مزرعة فى إلينوى[٢] إحدى ولايات الجمهورية الأمريكية ، وقد كتب إليه ابنها يطلب أن يقرضه بعض المال فجاءه منه الرد التالى :

— ٣٠ —

« ... هيا إلى العمل بجد ... »

[٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٨]

عزيزى جنستن :[٣]

لست أرى من الخير أن أقرضك الآن الثمانين ريالا التى طلبتها . لقد قلت لى أكثر من مرة حين كنت أقدم لك بعض العون : « إن أمورنا ستستقيم بعد الآن » . ولكنى أجدك ولما يمض على ذلك القول إلا وقت قصير تواجه نفس الصعاب التى واجهتها من قبل ؛ وذلك لا يحدث إلا إذا كان فى سلوكك عيب . وأظن أن هذا العيب غير خاف

(١) Sally Bush Lincoln (٢) Illinois (٣) Johnston

على : فأنا أعرف أنك لست كسولا بطبعك ولـكنك مع ذلك لا تعمل ، ولست أظن أنك بعد أن رأيتك آخر مرة قضيت يوما واحداً فى عمـل جدى . وأنت لا تكره العمل كرهاً شديداً ولـكنك مع ذلك لاتعمل كثيراً ، وليس لذلك من سبب إلا مايبـدو لك من أنك لا تحصل منه على أجر كبير .

ويقينى أن تلك العادة ، عادة إضاعة الوقت سـدى ، هى أساس المشكلة كلها ، ومن الخير لك ولأبنائك أن تقلع عنها . وذلك أهم لأبنائك منـه إليك ، لأنهم أطول حياة منك ، ولأن اتقاء عادة البطـالة قبل الانحدار إليها أسهل عليهم من الإقلاع عنها قبـل الوقوع فى شرها

إنك الآن فى حاجة عاجلة إلى المـال ، والرأى عندى أن تبدأ العمل بجد عند من يقدم إليك المـال نظير هذا العمل

أما شؤون الدار وما إليها فليعن بها الوالد هو وأبناؤك ، فنى وسعهم أن يهيئوا الأرض ويزرعوها ، وفى وسعك أنت أن تعمل عنـد من يقدم لك أحسن الأجور نقداً ، أو أن يؤدى ما عليك من ديون . وإذ كنتُ أرغب فى أن أضمن لك أحسن جزاء لعملك ، فإنى أعدك بأن أقدم لك عن كل ريال تكسبه بين هذا اليوم واليـوم الأول من شهر مايو ، أو كل ريال يؤدى من دينك ، ريالا مثله .

ومعنى هذا أنك إن عملت بعشرة ريالات فى الشهر ، حصلت منى على عشرة مثلها ، فـكسبت بذلك عشرين ريالا . ولست أقصـد بهذا أن تسافر إلى سنت لويس أو إلى مناجم الرصاص أو مناجم الذهب فى كلفورنيا ، بل الذى أقصـده أن تعمل بجد فى مكان قريب من موطنك فى مقاطعة كول[1] بأحسن أجر تستطيع الحصول عليه .

فإن فعلت هذا وفيت بعد قليل بما عليك من الدين ، واعتدت فوق ذلك عادة أفضل لدىّ من هذا الوفاء ، لأنها تحول بينك وبين التورط فى الدين مرة أخرى . أما إن أديتُ أنا دينك الآن فإنك لن تلبث أن تستدين من جديد فى العام الثانى . ولقد قلتَ فى رسالتك إنك لاتتردد فى أن تبيع مكانك فى الجنة بسبعين ريالا أو ثمانين ! إنك إذن تبيعه بأبخس

(١) Cole County

الأثمان ، فأنا لا أشك مطلقا فى أنك تستطيع الحصول على سبعين ريالا أو ثمانين نظير عمل تقوم به أربعة شهور أو خمسة . ثم تقول إنك مستعد لأن تكتب لى عقداً بأرضك وأن تسلمها إلىّ إذا لم ترد المال .

ألا ما أسخف هذا التفكير ! وكيف تستطيع العيش بغير الأرض إن لم يكن فى وسعك أن تعيش وهى لك . لقد كنت على الدوام تعطف علىّ ، ولست أريد الآن أن أقسو عليك ، غير أنك إذا عملت بنصيحتى وجدتها أكبر قيمة من الثمانين ريالا ثمانين مرة .

أخوك المخلص
ا . لنكلن

* * *

وليس لدينا من الوثائق ما نعرف منه هل عمل جنستن بهذه النصيحة أو لم يعمل بها ، ولكن من حقنا أن نفترض أن أثرها فى سلوكه كان عظيما .

أبراهام لنكلن يعزى مسز ليديا بكسبي فى فقد خمسة من أبنائها فى الحرب الأهلية

هذه الرسالة من أكثر الرسائل ذكراً فى التاريخ الأمريكى . وقد وصفها أحد كبار الكتاب بقوله : « لست أعرف رسالة غيرها وصفت التضحية فى سبيل قضية عظيمة ، وما يبعثه التفكير فى هذه التضحية من اطمئنان للنفس وراحة للضمير ، مثل هذا الوصف السهل الذى يفيض عطفاً وحناناً . وما من شك فى أن المعين الذى ينبع منه هذا الغدير الصافى معين عميق لا ينضب » . ووصفها مؤرخ آخر بأنها « قطعة من إنجيل أمريكا » .

ومن الطريف أن نوازن بين هذه الرسالة ورسالة أخرى فى موضوع شبيه بموضوعها يقال إن غليوم الثانى قيصر ألمانيا أرسلها إلى أم سقط أبناؤها التسعة فى ميدان القتال . فقد كتب الإمبراطور لهذه الأم الثكلى يقول : « لقد سمع جلالة الأمبراطور أنك ضحيت فى هذه الحرب بتسعة من أبنائك استشهدوا فى الدفاع عن أرض الوطن ، وقد أرضى هذا

العمل جلالته ، و يسره أن يرسل إليك صورته الشمسية فى إطار ، موقعاً عليها بإمضائه ، اعترافاً منه بهذه التضحية » .

— ٣١ —

« ... ألفاظ ضعيفة قليلة الجدوى ... »

واشنجتن فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٦٤

إلى مسز بكسبى[١] ، بسطن مَسَّا .

سيدتى العزيزة

لقد اطلعت فى سجلات وزارة الحرب على تقرير من مساعد القائد العام فى مساشوستس[٢] يقول فيه إنك أم لخمسة أبناء ماتوا كلهم ميتة شريفة فى ميدان القتال . و إنى لأشعر أن كل الألفاظ التى أحاول أن أخادعك بها لأخفف عنك ماتقاسينه من الحزن الذى سببته لك هذه الخسارة الفادحة ، إن هى إلا ألفاظ ضعيفة قليلة الجدوى ؛ ولكنى مع هذا أرى من الواجب علىَّ أن أقدم لك من العزاء ما قد تجدينه فى عبارات الشكر الموجهة إليك من الجمهورية التى ضحى أبناؤك بأنفسهم فى سبيلها ، وأدعو الله جل وعلا أن يخفف عنك ما تسببه لك هذه الخسارة من آلام ، وألا يبقى منها إلا تلك الذكرى العزيزة ذكرى من أحببتهم وفقدتهم ، وذلك الفخر الذى أنت جديرة به نظير ما قدمت من تضحية ثمينة على مذبح الحرية .

وتقبلى إخلاصى و إجلالى

ا . لنكلن

* * *

ولقد يدهش القراء إذا عرفوا أن المعلومات التى بُلِّغت إلى لنكلن وحفزته إلى كتابة هذه الرسالة التى تفيض عطفا وأسى لم تكن كلها صحيحة . فلقد دل البحث فيما بعد على أن

---

(١) Mrs. Lydia Bixby (٢) Massachusettes

مسز بكسبي قد عارضت أول الأمر فى تجنيد أبنائها فى الحرب الأهليـة ، وعلى أن أبناءها الخمسة لم يموتوا كلهم «ميتة شريفة فى ميدان القتال» ، فمنهم واحد يدعى هنرى أسر وافتدى وعاد إلى أمه فى صحة جيدة ، ومنهم ثان يدعى چورچ فر إلى صفوف الأعداء ، ومنهم ثالث يدعى إدورد فر من الجندية إلى خارج أمريكا وأقسمت أمه أنه تطوع رغم إرادتها ، وأنه كانت تنتابه نوبات متقطعة من الجنون . ولـكن هذه الرسالة لم يكد يمضى على وصولها إلى تلك السيدة بضعة أسابيع حتى بعث قائد مساشوستس صورا منها إلى صحف بسطن فنشرتها ثم نقلتها عنها جميع صحف العالم .

چوزيپ (يوسف) غاريبلدى يكتب إلى زوجته عن أمله فى تحرير إيطاليا رغم احتقاره الشديد لمواطنيه

التقى غاريبلدى[١] وأنيتا ريراس[٢] أول مرة فى البرازيل . وكتب غاريبلدى عن هذا اللقاء فى مذكراته يقول : « ظللنا كلانا مبهوتين مأخوذين صامتين ، ينظر كل منا إلى الآخر كأنا شخصان لا يلتقيان لأول مرة ، ويبحث كل منهما فى وجه صاحبه عن شىء يعينه على تذكر الماضى المنسى » .

وكان غاريبلدى قد اضطر إلى الفرار من بلده لأنه ساعد ماتزينى[٣] فى ثورته ، فجاء إلى البرازيل وقاد فيها الأحزاب الثائرة المطالبة بالحرية . وكانت أنيتا ريراس فتاة برازيلية طويلة القامة سمراء اللون ، جريئة مقدامة . وكان والدها يعتزم تزويجها إلى شاب اختاره لها ، ولكنها لم تكد تلتقى بغاريبلدى حتى انفصمت تلك الرابطة القديمة ولم يبق لها أثر ، ففر بها فى ظلام الليل فى سفينته الخاصة بحماية مدافعه وأصدقائه .

وكانت أنيتا فارسة تجيد ركوب الخيل ، فخاضت المعارك إلى جانبه وتعرضت معه لأشد الأخطار ، وولدت أطفالا فى البرارى الموحشة . وقد قبض عليها أهل البرازيل مرة فى إحدى المواقع فطلبت إلى الأعداء أن يسمحوا لها ببحث جثث القتلى لأنها تخشى أن يكون زوجها من بينهم . وبعد أن قلبت هذه الجثث واحدة بعد واحدة ولم تعثر فيها على جثة زوجها ، فرت من الأسر بحيلة ماهرة وظلت أربعة أيام تعدو على ظهر جوادها فى وسط الغابات الاستوائية من غير ما طعام ولا شراب ، تسبح أحياناً فى مياه الأنهار الجارفة التيار ، وتعرض نفسها لقوى الأعداء ، حتى نجت والتقت بغاريبلدى . وقد قال عنها بعدئذ « إن أنيتا كنز لا تقدر قيمته ، وليست هى أقل منى غيرة على قضية الأمم المقدسة » .

ولما سمع غاريبلدى بأن ثورة جديدة نشبت فى إيطاليا غادر البرازيل إلى بلاده فوصلها فى عام ١٨٤٨ ، وسرعان ما لحقت به أنيتا وسائر أسرته ، وبدأ حملته الشهيرة لتحرير إيطاليا مع متطوعيه الثلاثمائة الذائعى الصيت . وقد كتب فى أثناء زحفه إلى زوجته ينبئها بتقدمه :

---

(١) Guiseppe Garibaldi (٢) Anita Riberas (٣) Mazzini

— ٣٢ —

« ... لقد أصبح اسم إيطاليا سخرية العالم وموضع ازدرائه ... »

سبيا كو فى ١٩ إبريل سنة ١٨٤٩ :

عزيزتى أنيتا

أكتب إليك لأبلغك أنى بخير، وأنى أزحف على أنانيي[1] مع كولنا[2]، وأغلب الظن أنى سأبلغها غداً، وليس فى مقدورى الآن أن أخبرك كم من الزمن أمكث فيها. سأتسلم فى أنانيي البنادق وسائر لوازم الجند. ولن يستريح لى بال حتى أتلقى رسالة منك تؤكد لى أنك وصلت سالمة إلى نيس[3]. فاكتبى إلىّ من فورك إذ لا بد أن تصلنى أخبار منك يا أنيتا يا أحب الناس إلىّ. وعرفينى عن أثر حوادث جنوا وتسكانا[4] فى نفسك أيتها المرأة القوية الشجاعة! ولا يخالجنى شك فى أنك تنظرين بعين الازدراء إلى هذا الشعب الإيطالى المخنث، أى إلى مواطنى هؤلاء الذين حاولت مراراً أن أبث فيهم روح العظمة، وهم غير أهل لها. ولست أنكر أن الخيانة قد قضت على كل ثورة تأججت فى البلاد نارها، ولكن مهما يكن من ذلك الأمر فقد جللنا العار، وأصبح اسم إيطاليا سخرية العالم وموضع ازدرائه. ألا ما أشد أسفى لأنى ولدت من أسرة أخرجت هذا العدد الجم من الجبناء، ولكن لا تظنى أن هذا قد ذهب بشجاعتى ففقدت الأمل فى مستقبل بلادى. كلا إن أملى الآن أعظم منه فى أى وقت مضى؛ إن فى وسع الإنسان أن يلوث شرف الفرد ثم ينجو من طائلة العقاب، ولكنه لا ينجو من القصاص إذا لوث شرف أمة. وقد عرفنا الخونة، ولا يزال قلب إيطاليا ينبض بدم الحياة، وقد لا يكون ذلك القلب سليما، ولكنه مع ذلك قادر على أن يطرد جراثيم الداء التى كانت سبب هذه الأسقام المضنية.

لقد أفلحت الرجعية فى إرهاب الشعب بما استخدمته من أساليب الغدر والنذالة، ولكن هذا الشعب لن ينسى غدر الرجعية ونذالتها! وإذا ما سكن روعه فلن يلبث أن يثور ثورة كقطع الليل تقضى على الجبان الذى كان سببا فى إذلاله. أرجوك أن تكتبى إلىّ

---

(١) Anagni (٢) Colonna (٣) Nice (٤) Toscana

مرة أخرى ، فلا بد لى أن أتلقى أخبارك وأخبار أمى وأطفالى . ولا تشغلى بالك بأمرى فإنى الآن أحسن صحة مما كنت فى أى وقت مضى ، وأرى أنى أنا وأتباعى المائتين والألف المسلحين قوم لا يقهرون . وروما تتمثل لنا الآن فى صورة رهيبة رائعة ، والأبطال الآن كلهم بجوارها ، والله معنا و إلى اللقاء .

جوزيپ

* * *

وبعد أحد عشر يوما من ذلك الوقت دارت معركة روما ونال غاريبلدى فى الدفاع عنها نصرا مؤزرا ؛ ومع أنه جرح فى بداية الواقعة فقد ظل طول النهار على ظهر جواده يخوض غمار الحرب . ولما سقطت رومة بدأ هو وأتباعه ارتدادهم الشهير إلى مدينة البندقية ، ومن ورائهم الجيوش الفرنسية والأسپانية وجيوش ناپلى ، ولكنهم نجوا منها كلها بين التلال والمستنقعات . وصحبت أنيتا زوجها فى هذا الارتداد العظيم تعنى بالجرحى ، وتبعث الأمل فى قلوب الجنود ، وهى على ظهر جوادها إلى جانب زوجها . ثم مرضت فجأة وخارت قواها ، وطلبت شربة ماء فلم تجدها ؛ ولما وصلت مع القوة إلى مستنقعات راڤنا[1] عجزت عن مواصلة السير ، وأسلمت الروح بين ذراعى زوجها .

وحزن عليها غاريبلدى أشد الحزن ، وكتب بعد موتها يقول : « لقد عثرت على كنز عزيز المنال ، وهو كنز لا يستطاع تقدير قيمته . . . لقد ألف الحب بين قلبينا ... ولما حاولت عبثا أن أعيد إليها الحياة وأمسكت بيدها فى ذلك اليوم المشئوم كنت أمسك بيد جثة هامدة ، وفاضت دموع اليأس من عينى ، وعرفت وقتئذ الذنب الذى ارتكبته . لقد أذنبت ذنبا عظيما ولكننى أذنبت وحدى .

---

(١) Ravenna

دستويفسكى يصف شعوره حين لم يكن بينه وبين الموت إلا دقيقة واحدة

[رسالته إلى أخيه ميهيل]

لم يكتب دستويفسكى[١] رواياته الشهيرة إلا بعد أن مضت عدة سنين على الحوادث المثيرة التى تصفها هذه الرسالة . وكان دستويفسكى فى سنى حياته الأولى قد اشترك مع طائفة من شبان الروس المتطرفين فى دراسة كتابات الاشتراكيين الفرنسيين والطرق التى اعتزموا أن يسلكوها لإصلاح نظم الحكم فى بلادهم . ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره نشر أول كتبه « الفقراء » . وفى عام ١٨٤٩ حين بلغ الثامنة والعشرين قبض عليه هو وجماعة من رفاقه واتهموا بالتآمر على قلب نظام الحكم وصدر عليهم الحكم بالإعدام ، وقبل أن ينفذ فيهم هذا الحكم بلحظات قليلة أبلغوا أنه قد استبدل به النفى والسجن . وتركت هذه الثوانى القلائل التى كان فيها دستويفسكى بين الحياة والموت أثرها البالغ فى حياته . ونحن نراه فى الرسالة التالية التى كتبها إلى أخيه بعد يوم واحد من هذه المأساة يحدثه كأنه إنسان مسجون يوشك أن ينفذ فيه حكم الإعدام وكأنه قد بعث حيا من بين الأموات :

— ٣٣ —

« . . . . تلى علينا جميعا حكم الاعدام . . . »

من قلعة بطرس و بولس .

فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩

ميهيل ميهيلوفتش دستويفسكى[٢]

أخى ، صديقى العزيز ! لقد انتهى كل شىء . وحكم علىّ بالأشغال الشاقة فى القلعة (وأعتقد أنها قلعة أرنبرج[٣]) أربع سنين ، أعود بعدها جنديا بسيطا . وفى هذا اليوم الثانى والعشرين من ديسمبر أخذنا إلى ساحة التدريب فى سمينوف[٤] حيث تلى علينا جميعا

Semionof (٤) Orenburg (٣) Mihail Mihailovich (٢) Dostoevsky (١)

حكم الإعدام ، وأمرنا أن نقبّل الصليب ، وكسرت سيوفنا فوق رؤوسنا ، واتخذنا زينتنا الأخيرة (ارتدينا قمصانا بيضا) . . . ، ثم شد ثلاثة منا إلى العمود لينفذ فيهم الحكم . وكنت أنا سادس الجماعة ، وكان كل ثلاثة منا ينادَون معا ، ولما كنت أنا سادسهم فقد كان دورى إذن فى المجموعة الثانية ، ولم يكن باقيا من حياتى أكثر من دقيقة واحدة .

وذكرتك وقتئذ يا أخى ، وذكرت كل أسرتك ؛ ولم يكن فى ذاكرتى فى الدقيقة الأخيرة إلا أنت ، أنت وحدك ؛ ولم أتبين إلا فى تلك اللحظة مقدار حبى لك أيها الأخ العزيز ! واستطعتُ فيها أيضا أن أعانق بلشجيف[1] ودوروف[2] ، وكانا واقفين بجوارى ، وأن أودعهما الوداع الأخير . ثم صدر إلينا الأمر بالرجوع ، وحل وثاق الذين كانوا مشدودين إلى العمود ، وبلغنا أن صاحب الجلالة الإمبراطور به قد وهبنا الحياة . ثم قرئت علينا الأحكام الحالية ، فوجدنا أنه لم يعف عن غير پام[3] وأنه سيعود إلى الجيش برتبته القديمة .

وقد نبئت الآن أيها الأخ العزيز أننا سننقل من هذا المكان غدا أو بعد غد ، وطلبت أن أراك ولكنى أبلغت أن هذا مستحيل ، ولم يسمحوا لى إلا بأن أكتب إليك هذه الرسالة ، فعجل بالجواب قدر ما تستطيع .

وأخشى أن تكون قد عرفت بطريقة ما أنا قد حكم علينا بالإعدام . لقد أبصرت من عربة السجن ، ونحن مسوقون إلى ساحة التدريب فى سمينوف ، جمعا غفيرا من الناس ، ولربما كان الخبر قد نقل إليك فتألمت من أجلى ، ولكنك الآن سيهدأ روعك من جهتى .

وثق يا أخى أنى لم أكتئب ، ولم يضعضعنى الحزن ، فالحياة هى الحياة حيثما نكون ، وليست الحياة فيما هو خارج عنّا بل هى فى نفوسنا ؛ وسيكون بالقرب منى خلائق ، وما الحياة إلا فى أن تكون إنسانا بين الناس ، وأن تبقى إنسانا أبد الدهر . فلا تبتئس ولا تستسلم للمصائب التى تصادفك — تلك هى الحياة وهذا هو واجب الإنسان فيها . لقد أدركت هذا وتغلغل فى لحمى وفى دمى .

أجل إنه لحق ! إن الرأس الذى كان يبتدع ويحيا أسمى حياة الفن ، والذى عرف أعلى حاجيات الروح وتعودها ، إن هذا الرأس قد فصل عن جسمى ، ولم تبق إلا ذكراه ، وإلا الصور التى ابتدعها ، وإن كانت هذه الصور لم تتجسد بعد . نعم إنهم سيمزقون

---

(١) Pleschegev (٢) Durov (٣) Palm

جسدى ، ولـكنى سيبقى لى قلبى ، وسيبقى لى ذانك اللحم والدم اللذان يستطيعان أن يحييا ويتألما ويرغبا ويذكرا . وليست الحياة آخر الأمر إلا حباً وألما ورغبة وذكرى . إنى أرى الآن ضوء الشمس ! وداعا يا أخى ! لا تحزن علىّ .

والآن فلأحدثك عن الأشياء المادية . فأما كتبى (عدا الكتاب المقدس الذى لا أزال أحتفظ به) وعدة صحائف من مخطوط لى ومشروع أولى لمسرحية ورواية ، و «قصة الطفل» كاملة ، فقد أخذت كلها منى ، وأكبر الظن أنها ستصل إلى يدك . وسأترك أيضاً معطفى وثيابى القديمة ، فإذا شئت فأرسل فى طلبها . وقد أضطر يا أخى إلى السير على قدمىّ مسافة طويلة ، وسأحتاج إلى بعض المال ، فإذا وصلك يا أخى العزيز خطابى هذا واستطعت أن تحصل على شىء من المال فأرسله إلىّ من فورك . ذلك أنى الآن أحوج إلى المال منى إلى الهواء (وذلك لحاجة فى نفسى) ؛ وابعث إلىّ أيضا ببضعة أسطر ؛ وإذا وصلك المال من مسكو — فاذكرنى ولا تبخل علىّ — هذا كل ما أرجوه . إن علىّ ديونا[1] ولـكن ماذا عسى أن أفعل ؟ .

قبل لى زوجتك وأبناءك ، وذكرهم بى على الدوام ، ولا تجعلهم ينسوننى ، ولعلنا نلتقى يوماً ما ؛ وعليك يا أخى أن تعنى بنفسك وبأسرتك ، وأن تكون فى حياتك هادئا يقظا ، وأن تفكر فى مستقبل أبنائك .

عش عيشة العاملين . أما أنا فلم أحس قط بمثل ما أحس به الآن من الحياة الروحية السليمة الموفورة ، ولـكن ترى هل يطيق جسمى هذه الحياة ؟ لست أدرى . إنى أسافر وأنا مريض أشكو داء العقد الخنازيرية ؛ ولـكن لا يهمك هذا يا أخى فقد قاسيت فى الحياة ما قاسيت ولم يعد فيها ما يروعنى مهما يأت الزمان به .

وسأرسل إليك أخبارى فى أول فرصة تسنح لى . بلغ آل ميكوف وداعى وتحياتى الأخيرة ، وقل لهم إنى أشكر لهم جميعا دوام اهتمامهم بأمرى ، واذكرنى بأحسن ما تستطيع وبقدر ما يوحيه إليك قلبك — عند يوجينيا بترفنا[2] . إنى أتمنى لها موفور السعادة ، وسأذكر

(١) إن ما كان دستويفسكى مدينا به لـكريفسكى Krayevsky قد أداه من أرباح كتابه « قصة طفل » .

(٢) يوجينيا بترفنا Eurgenia Petrovna أم الشاعر أپلون ميكوف Appollon Maikof صديق دستويفسكى .

اسمها على الدوام مقرونا بالإجلال والشكر . و بلغ تحياتى إلى كل من لم ينسنى و إلى من نسينى أيضا .

وقد نتلاقى يا أخى فى يوم من الأيام ! فأوصيك أن تعنى بنفسك ، وأستحلفك بالله أن تحيا حتى نلتقى ، ولعلنا نتعانق يوماً من الأيام ، ونذكر أيام الشباب ، تلك الأيام السعيدة التى ولت — نذكر شبابنا وآمالنا التى أنتزعها هى ودمى فى هذه الساعة من قلبى لأدفنها جميعا .

وهل قدر علىّ ألا أمسك بيدى قلما بعد الآن ؟ أظن أنى قد تتاح لى هذه الفرصة مرة أخرى بعد السنين الأربع ، وسأرسل إليك حينئذ كل ما أكتبه — إذا كتبت شيئا — . أى إلهى كم من خيالات تملأ نفسى ، قد ابتكرتها ابتكارا ، ستفنى أو تنطفئ جذوتها من عقلى ، أو تسرى فى دمى سما زعافا ! أجل إنى سوف أفنى إذا لم يسمح لى بالكتابة ، وإن خمسة عشر عاما أقضيها سجينا وقلمى فى يدى لخير لدىّ من هذه الحال !

أكتب إلىّ أكثر مما كتبت حتى الآن ، واكتب إلىّ تفاصيل أوفى وحقائق أكثر وأكثر . واكتب فى كل رسالة عن كل شىء ، عن شئون الأسرة كلها ولا تنس أتفه الأمور . إن هذا هو الذى يبعث فىّ الأمل والحياة . ليتك تعرف ما كان لرسائلك من الأثر فى نفسى وأنا فى القلعة . لقد بعثت فىّ الحياة من جديد ! وكان الشهران الأخيران والنصف الشهر الأخير من أقسى ما مر علىّ من الأوقات ، لأنى حرم علىّ فيها أن أكتب إلى أحد أو أن أتلقى رسائل من أحد . وقد مرضت وضايقنى كثيرا عدم إرسالك لى مالا من آن إلى آن ، واكتأبت من أجلك أيما اكتئاب ، لأن معنى هذا أنك أنت نفسك فى حاجة شديدة إلى المال ! قبل لى الأطفال مرة أخرى ؛ إن وجوههم الصغيرة الجميلة لا تفارق مخيلتى ، وكم ذا يسرنى أن يكونوا سعداء . وكن سعيداً أنت أيضاً يا أخى . كن سعيدا .

ولكن بالله لا تحزن — لا تحزن علىّ وثق أنى لم أبتئس ، وأن الأمل لم يفارقنى ، وسيكون مصيرى بعد أربع سنين أحسن بعض الشىء مما هو الآن . فسأكون وقتئذ مجنداً بسيطا لا سجينا . ولا تنس أنى سوف أعانقك يوماً ما . لقد قضيت اليوم ثلاثة أرباع الساعة بين مخالب الموت ، وكانت هذه الفكرة هى التى تسيطر على عقلى فى تلك الفترة ، حتى وصلت

إلى اللحظة الأخيرة من حياتى ، وهأنذا أحيا من جديد !

وإذا كان أحد يذكر أنى أسأت إليه ، وإذا كنت قد تنازعت مع أحد ، وإذا كان عمل من أعمالى قد ترك أثرا سيئا فى نفس أى إنسان ، فاطلب إليهم أن ينسوه إذا استطعت أن تلتقى بهم . أما أنا فليس فى نفسى غل من أحد أو حقد على أحد ، وليس أحب إلى نفسى فى هذه اللحظة من أن أعانق صديقا من أصدقائى القدامى . إن فى هذا راحة جربتها اليوم بنفسى حين كنت أودع أصدقائى الأعزاء قبل موتى . وكنت فى تلك اللحظة أعتقد أن خبر إعدامى سيقضى عليك لا محالة ؛ أما الآن فطب نفسا لأنى لا أزال حيا ، وسأحيا فى المستقبل وكلى أمل فى أن أعانقك يوما ما ، وليس فى عقلى الآن شىء غير هذا .

وماذا تفعل أنت الآن ؟ وماذا كنت تفكر فيه طول هذا اليوم ؟ هل تعلم عنا شيئا ؟ ما أشد البرد اليوم !

آه ! ليت رسالتى تصلك بسرعة ! إنها إن لم تصلك مسرعة قضيت أربعة أشهر كاملة لا أعرف فيها شيئا من أخبارك . ولقد اطلعت على الغلاف الذى بعثت إلىّ فيه المال فى الشهرين الأخيرين . وكان عنوانى مكتوبا بخطك ، فسرنى أنك بخير .

إن قلبى ليتقطر دما كلما عدت بذاكرتى إلى الماضى ، وعرفت كم من الوقت أضعته سدى ، وكم منه ضاع فى لأوهام الباطلة ، وفى الأخطاء ، وفى التراخى والكسل ، وفى الجهل بأساليب الحياة الحقة ، وكلما ذكرت أنى لم أعرف للوقت قيمة وأنى كثيرا ما أخطأت فى حق قلبى ونفسى . إن الحياة هبة ، وإن الحياة سعادة ، وكل دقيقة منها يستطاع جعلها دهرا من السعادة . آه لو عرف الشباب ! والآن وقد بُدِّلت حياتى أرانى قد ولدت فى صورة جديدة . أقسم لك يا أخى أنى لن أفقد الأمل ، وأنى سأحتفظ بطهارة روحى وقلبى . سأولد من جديد لأضطلع بواجب خير مما اضطلعت به ، ذلك هو رجائى كله وسلوتى كلها ! .

إن حياة السجن قد قضت على كل ما كان غير طاهر ونقى من مطالب الجسد ؛ إنى لم أكن أعنى بأمر نفسى من قبل ، أما الآن فإنى لا آبه بالحرمان ، ولذلك أرجو ألا تظن أن الصعاب المادية ستقضى علىّ . كلا إن هذا لن يكون ! آه ما أحسن الصحة !

وداعا ، يا أخى وداعا ، متى أكتب إليك بعد الآن ؟ سيصلك منى وصف لرحلتى

واف بقدر ما أستطيع ، و إذا استطعت أن أحتفظ بصحتى فستجرى الأمور كلها على ما أحب .

وداعا يا أخى وداعا ! إنى أعانقك على البعد وأقبلك ، وأرجو أن تذكرنى بقلب خالص من الألم ، وأرجوك الا تحزن ، لا تحزن علىّ . وسأخبرك فى رسالتى التالية عن حالى ، ولا تنس إذن ما قلته لك ، ورتب شئون حياتك ولا تضيعها عبثا ، ونظم أمر مستقبلك ، وفكر فى أطفالك . آه هل من سبيل إلى أن أراك ؟ أن أراك . وداعا . إنى الآن أنتزع نفسى من كل ما كان عزيزا لدىّ . إن ذلك مؤلم دون شك ! مؤلم أن أقسم نفسى قسمين وأن أقطع قلبى قطعتين ، وداعا وداعا ! ولكنى سأراك وأنا واثق من ذلك كل الثقة — وأرجو أن يكون . لا تتغير وأحبنى ، ولا يفتر حبك لى ، وسيكون تفكيرى فى حبك إياى خير ما أعتز به فى حياتى . وداعا ! وداعا ! مرة أخرى . وداعا لكم جميعا .

أخوك

فيودور دستويفسكى

فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩

لقد استولوا على بعض كتبى حين قبض علىّ ، ولم يكن فيها ما يحرم القانون اقتناءه إلا كتابان ، فهل تستطيع أن تحصل على ما بقى منها لنفسك ؟ لى رجاء واحد : إن واحدا منها من مؤلفات ڤليرين ميكوف[1] ، وهو مقالاته الانتقادية ، والنسخة التى كانت عندى منه ملك يوجينيا پترڤنا . لقد كانت تعتز بها ولكنها أعارتنى إياها ، فلما قبضوا علىّ سألت الضابط أن يرد الكتاب إليها ، وأعطيته عنوانها ، ولست أدرى هل وصلها الكتاب أو لم يصلها . فتحر أنت عن هذا ، لأنى لا أحب أن تفقد يوجينيا هذا التذكار .

وداعا وداعا مرة أخرى .

أخوك

ف . دستويفسكى

وقد كتب على هامش الرسالة ما يأتى :

لست أعرف هل أقطع المسافة سيرا على الأقدام أو هل أقطعها على ظهور الخيل . لكنى أظن أنى سأركب الخيل . ربما كان ذلك .

---

(١) Valerian Maikov

أطلب إليك مرة أخرى أن تبلغ تحيتى إلى إملى فيودورفنا[١]، وأن تقبل الأطفال ، وأن تسلم على كريفسكى : ربما . . . . .

أكتب إلىّ بتفصيل أوفى عن حادث القبض عليك وحبسك و إطلاق سراحك .

* * *

وبعد أن قضى دستويفسكى فى السجن أربع سنين خفف عنه الحكم ، ولكنه يشير مرارا وتكراراً فى أعظم مؤلفاته إلى ماقاساه من شدة فى عام ١٨٤٩ كما تدل على ذلك أسماء ثلاث من أشهر رواياته : « دار الموت » ١٨٦١ و « ذكريات من تحت الأرض » ١٨٦٤ و « الجريمة والعقاب » ١٨٦٦

---

(١) Emily Fiodorovna

تشارلس دكنز يبلغ زوجته نبأ وفاة ابنتهما الصغيرة

فى عام ١٩٣٩ نشرت لأول مرة عشرة آلاف رسالة لتشارلس دكنز تحتوى فيما تحتويه من رسائل الكاتب القصصى الكبير على الرسالة التالية التى يبلغ فيها زوجته نبأ وفاة ابنتهما .

وكان فراغ دكنز من روايته الشهيرة « دافد كبرفيلد[١] » فى السنة السابعة والثلاثين من عمره إيذانا بانقضاء أسعد أيام حياته .

كان دكنز كاتبا حلو الفكاهة ، خصب الخيال ، موفور الإنتاج ، واثقا من النجاح، سعيدا فى زواجه ، وأبا لأسرة كبيرة . ثم تبدلت الحال غير الحال فمات والده ، ومرضت زوجته وابنته التاسعة الطفلة دورا[٢] . والرسالة الواردة هنا تعبر عن مأساة مزدوجة . فقد كانت دورا الصغيرة مريضة فى الدار ، وكانت زوجته مريضة فى مكان آخر بعيد ؛ وبينا هو ذات ليلة يرأس حفلة تقام لبعض الممثلين ، إذ جاء رسول من بيته يطلب صديقه چون فورستر[٣] من هذا الاجتماع ، لينقل نبأ وفاة الطفلة إلى أبيها . فلما عاد فورستر إلى الاجتماع كان دكنز يخطب فى المجتمعين قائلا : « لقد جاء الكثيرون . . . . . من جوار المرضى المعذبين ، بل جاءوا من جانب الموتى ، ليقوموا بتمثيل أدوارهم أمامنا . وليس ذلك مقصورا على الممثلين دون غيرهم ، فإن الكثيرين منا يضطرون فى معظم الأحوال إلى أن يقاوموا شعورهم ، ويكبتوا ما تنطوى عليه قلوبهم ، وهم يكافحون فى سبيل الحياة ، إذا أرادوا أن يؤدوا واجبهم ، ويتحملوا فى شجاعة ما يلقيه عليهم هذا الواجب من تبعات »

وفى اليوم التالى أبلغ دكنز النبأ إلى زوجته المريضة المنهوكة القوى بهذه الرسالة الرقيقة المحزنة :

---

(١) David Copperfield (٢) Dora (٣) John Forster

— ٣٤ —

« إذا قرأت هذه الرسالة على مهل »

في صباح الثلاثاء ١٥ من إبريل سنة ١٨٥١

عزيزتي كيت[1] . عليك أن تقرئي هذه الرسالة بعناية فائقة و بطء شديد . و إذا كنت قد أسرعتِ في قراءة ما مضى منها من غير أن تفهمي ما تنطوي عليه حق الفهم (وأن تتوقعي أنباء غير سارة) فعودي إلى قراءتها من جديد .

لقد أصيبت دورا الصغيرة بمرض فجائي و إن كانت لا تشكو أقل ألم . ولا يبدو عليها إلا الراحة التامة — حتى لتظنين أنها نائمة نوما هنيئاً ؛ ولكنني واثق من أنها مريضة أشد المرض ، ولا أرى ما يشجعني على الأمل في شفائها ، ولست أظن (و لِمَ أقول لك يا عزيزتي إني أظن) أن شفاءها من الأمور المتوقعة .

ولست أريد أن أبرح المنزل و إن كان وجودي به لا غناء فيه ، ولكني أرى واجبا عليّ أن أبقى حيث أنا . و يقيني أنك لا ترغبين في البقاء بعيدة عن المنزل ، ونفسي لا تطاوعني على أن أبعدك عنه . وسيحمل إليك فورستر ، وقلبه ملىء بحبنا كعادته ، هذه الرسالة ؛ وسيأتي بك إلى منزلنا ؛ وليس في وسعي أن أختمها من غير أن أرجوك أشد الرجاء ، وألح عليك ، أن تحضري وأنت هادئة غاية الهدوء —

وأن تذكري ما قلته لك مرارا من قبل ، وهو أننا لا نستطيع أن نطلب لأنفسنا النجاة من الأحزان التي تصيب غيرنا من الآباء . وكيف نطلب هذا وأبناؤنا كثر ؟ ولو أنني اضطررت أن أقول لك حين تحضرين إن « ابنتنا الصغيرة قد توفيت » ، لكان عليك حتى في هذه الحال أن تقومي بواجبك نحو سائر الأطفال ، وأن تثبتي أنك جديرة بالأمانة الكبرى التي تحملينها بوصفك أمًّا لهم .

ولست أشك مطلقا في أنك لن تخطئي الواجب عليك إذا قرأت هذه الرسالة على مهل وفي هدوء واطمئنان .

ولك خالص الحب

تشارلس دكنز

***

ثم عرف العالم بعد سنين كثيرة من تاريخ هذه الرسالة أن زواج تشارلس دكنز وكترين هوجارث دكنز[1] لم يبق إلى آخر أيامهما زواجا موفقا سعيدا . فقد افترق الزوجان فى عام ١٨٥٨ بعد اثنين وعشرين عاما من زواجهما ، وبعد عام واحد من وقوع تشارلس فى هوى ممثلة شقراء تدعى إلن ترنان[2] .

وحدث فى اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٩٢٩ أن توفيت مسز كيت برچينى[3] ، الابنة الثالثة لتشارلس وكترين دكنز ، فى التاسعة والثمانين من عمرها ، وتركت لكتاب سيرتها التصريح الخطير التالى :

لقد أحببت أبى أكثر من حبى لأى إنسان آخر فى العالم ، ولكننى أحببته من أجل أخطائه . . . فلقد كان رجلا خبيثا — رجلا جد خبيث . . . . . . »

---

(١) Catherine Hogarth Dickens
(٢) Elen Ternan
(٣) Mrs Kate Perugini

تومس بابنجتن مكولى(1) ينظر إلى المستقبل ويتنبأ بأن الجمهورية الأمريكية سيقضى عليها البرابرة فى القرن العشرين

[رسالة إلى هنرى س . رندال](2)

فى الثامن عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٣٧ أشار الرئيس فرانكلن د . روزفلت(3) إلى نبوءة غريبة وردت فى رسالة لتومس بابنجتن مكولى كتبها فى عام ١٨٥٧ عن مستقبل الدمقراطية فى أمريكا . وسرعان ما انتشرت هذه الرسالة التى كان الناس قد نسوها ، واحتلت الصفحات الأولى من الصحف اليومية ، وطفت على أهم الأخبار والأحداث السياسية وقتئذ .

أما كاتبها لورد مكولى فكان أعظم المؤرخين الإنجليز فى القرن التاسع عشر . وكان مكولى ابن رجل من أعظم أنصار تحرير الرقيق ، وقد بدأ وهو فى الثامنة من عمره يكتب تاريخا للعالم . وانضم مكولى إلى الحركة القائمة فى إنجلترا لتحرير الرقيق وناصر حركة الإصلاح البرلمانية التى قامت فى عام ١٨٣٢ . ودخل البرلمان فى سن الثلاثين ، وأضاف إلى شهرته الكتابية والاقتصادية شهرة خطابية وسياسية ، ثم خصص الجزء الأكبر من وقته لكتابة التاريخ ، وأصبح أحب المؤرخين إلى قلوب الإنجليز إذا استثنينا جبن(4) .

— ٣٥ —

« إنه دستوركم كله شراع وليست له مرساة ... »

[٢٣ مايو سنة ١٨٥٧] .

هلى لدج ، كنزنجتن ، لندن(5) .

سيدى العزيز :

لقد أدهشك أن تعرف بأن ليس للمستر چفرسن فى نظرى مكانة كبيرة . وإن دهشتك هذه لتدهشنى ... وأنا واثق من أنى ... لم أخط قط سطراً ، ولم أنطق قط بكلمة يفهم منها

(1) Thomas Babington Macaulay
(2) Henry S. Randall
(3) President Franklin Roosevelt
(4) Gibbon
(5) Holly Lodge, Kensington London,

أنى أريد أن تكون السلطة العليا فى الدولة فى يد أغلبية أهلها أى فى يد أفقر طوائف المجتمع وأكثرها جهلا .

لقد اقتنعت من زمن بعيد بأن النظم الدمقراطية الخالصة ستقضى إن عاجلا أو آجلا على الحرية أو المدنية أو عليهما معاً …

ولست أشك مطلقا فى أن هذه ستكون النتيجة المحتومة لو أننا فى هذه البلاد كانت لنا حكومة دمقراطية خالصة … وقد يخيل إليك أن بلادكم بمنجاة من هذه الشرور … أما أنا فإنى أرى غير هذا الرأى . إنى أعتقد أن مصيركم محتوم ومقرر وإن أخرته أسباب طبيعية لا يد لكم فيها . فما دامت لديكم أرض خصبة واسعة غير مأهولة فإن الطبقة العاملة فى بلادكم ستكون أرغد عيشا من الطبقة العاملة فى الدنيا القديمة ، وما دامت هذه هى الحال فإن سياسة جفرسن[1] قد تظل قائمة دون أن تؤدى بالبلاد إلى كارثة مدلهمة .

ولكن سيأتى الوقت الذى تصبح فيه إنجلترا الجديدة غاصة بالسكان كإنجلترا القديمة فتنخفض الأجور فى الأولى كما هى منخفضة فى الثانية ، وتتقلب فى بلادكم كما تتقلب فى بلادنا ، وستكون لديكم مدن كمنشستر وبرمنجهام ؛ وما من شك فى أن هذه المدن ستحتوى أحيانا آلاف العمال المتعطلين . وسيكون هذا محك النظم القائمة فى بلادكم . إن الفاقة أينما وجدت تثير ثائرة العامل وسخطه وتفتح أذنيه لسماع المحرضين الذين يقولون له إن من الظلم الفاضح أن ينعم رجل بالثروة الطائلة ، ولا يجد آخر ما يسد به رمقه .

… ولست أنكر أن الناس فى بلادنا يتذمرون ، أو أنهم فى السنين العجاف قد يصيخبون ، لكن ذلك لا يهمنا فى كثير أو قليل لأن ضحايا هذه الحال ليسوا هم الحكام . ذلك أن السلطة العليا فى هذه البلاد فى يد طبقة كثيرة العدد من غير شك ولكنها طبقة مصطفاة ، طبقة متعلمة ، طبقة تعلم حق العلم أن مصلحتها فى حماية الملك وحفظ النظام . فهى لذلك تكبح جماح الساخطين فى قوة ولكن فى رفق ، وتمر الأزمات من غير أن تغتصب أموال الأغنياء لتخفيف الضنك عن الفقراء ، ولا تلبث موارد الثروة القومية أن تفيض من جديد ، فيعم الرخاء ، ويكثر العمل ، وترتفع الأجور ، ويسود الهدوء وتعم البهجة جميع الأهلين …

---
(١) Jefferson

... وليس فى وسعى أن أغض الطرف عن أسوأ النذر . إنى لقوى الاعتقاد بأن حكومتكم ستعجز كل العجز عن كبح جماح الأغلبية البائسة الساخطة ... وسيأتى اليوم الذى تقوم فيـه طائفة من الناس ، لم يجد أحد منهم ما يكفى فطوره ، أو لا يتوقع أحد منهم أن يجد ما يكفى عشاءه ، تقوم فيه هذه الطائفة باختيار الهيئة التشريعية فى البلاد .

وحينئذ ترون فى ناحية سياسيا يخطب فى الناس يدعوهم إلى الصبر واحترام الحقوق المكتسبة ، وفى الناحية الأخرى مهرجا شعبيا يندد باستبداد الممولين . . . ويسأل الناس كيف يسمح لرجل أن يشرب خمراً ويركب عربة ، فى الوقت الذى لا يجد فيه كثيرون من أشراف الناس ضرورات الحياة . وأخوف ما أخافه أن تقدموا فى مثل تلك الأوقات الشديدة على أعمال تمنع عودة الرخاء ، وأن تعملوا كما يعمل الذين إذا أسنتوا أكلوا كل ما لديهم من بذور القمح ، فلا يكون عامهم الثانى عام قلة وشدة فحسب بل يكون عام قحط وجدب ... وأى شىء يحول بينكم و بين هذا المصير ؟ إن دستوركم كله شراع وليست له مرساة ، وليس أمامكم إلا واحدة من اثنتين : فإما أن يقوم بينكم رجل مثل قيصر أو نابليون يقبض على أزمة الحكم بيد من حديد ، و إما أن ... يقضى البرابرة على جمهوريتكم فى القرن العشرين كما قضوا على الدولة الرومانية فى القرن الخامس .

تومس بابنجتن مكولى

* * *

وقد علق الرئيس روزفلت على هذه الرسالة بقوله : «ومعنى هذا أن مكولى كان يعارض فيما نسميه الحكومة الشعبية . ذلك ياسادتى هو خير مثل يضرب لصيحات الذعر التى ترتفع اليوم من الأمريكيين الذين يعتنقون آراء لورد مكولى — مع شدة احترمى للورد نفسه . فهم يقولون لكم إن أمريكا تندفع مسرعة نحو خطتين كلتاهما شر من الأخرى ، وهما الطغيان فى ناحية والفوضى فى ناحية أخرى . أما المرساة التى يريدون أن ينقذوا بها سفينة الدولة فهى مرساة مكولى . . . السلطة العليا . . . فى يد طبقة كثيرة العدد من غير شك ، ولكنها طبقة مصطفاة ، طبقة متعلمة ، طبقة تعلم حق العلم أن مصلحتها فى ضمان الملك وحفظ النظام » .

وقد قال أحد المعلقين على ما قاله الرئيس روزفلت خاصاً بهذه الرسالة « إن خير ما يرد به على أقوال مكولى هو ماضى حكومة الولايات المتحدة لا مستقبلها ، وأضاف إلى ذلك أن تاريخ الجمهورية الأمريكية والدمقراطية الأمريكية من عام ١٨٥٧ إلى عام ١٩٣٧ هو خير رد على نبوءة لورد مكولى » . وقال معلق آخر إن « الدمقراطية لم تخفق كما لم تخفق المسيحية . وكل ما فى الأمر أنها لم تجرب على حقيقتها ... » وإن « العلاج الوحيد لمساوئ الدمقراطية هو التوسع فى النظم الدمقراطية ... » .

شارل بودلير[1] يندم على سوء سلوكه

[رسالته إلى والدته]

كان بودلير شاعرا عظيما ، اتخذ عبادة الشيطان دينا له ، نعنى أنه كان كذلك فى نظر الجماهير . أما حقيقة أمره فإنه كان كاثوليكيا يلوم نفسه أشد اللوم على شروره وآثامه . وكان رجلا غريب الأطوار يسير فى شوارع باريس ينطق بأقوال غريبة عن الموت وعن القتل ، ويصبغ شعره باللون الأخضر ، ويأكل الحشيش ، ويعيش مع امرأة نصف من مغنيات المقاهى تدعى جان دوفال[2] سمراء اللون .

وكان بودلير طول حياته رجلا متلافا لا يوثق به ، نفر منه جميع أصدقائه . وقد أرسله أهله إلى بلاد الهند وهو فى العشرين من عمره ليبعدوه عن مغريات باريس ، وليعيدوا إليه قوة أعصابه المحطمة . فلما عاد منها ورث ثروة لا بأس بها ، ولكنه أتلفها من فوره . وفى عام ١٨٥٧ نشر مجموعة قصائد سماها « زهرات الشر[3] » أعجب بها فكتور هوجو ولكن ولاة الأمور الفرنسيين رأوا أنها تسىء إلى الدولة وإلى الأخلاق ، وحكموا من أجلها على بودلير وعلى طابعها وناشرها بغرامة . ولم تؤد هذه الغرامات بطبيعة الحال ولكن الحكومة حرمت إعادة طبع القصائد . وكان بودلير شديد الإعجاب بكتابات بو[4] ودكونسى[5] وترجم كثيرا منها ، ويفضل كثير من النقاد هذه التراجم عن أصلها الإنجليزى . ويقول بودلير إن سبب إعجابه بكتابات بو أنه كتب أشياء كانت مستقرة من قبل فى عقله هو .

وفى السنة التى نشر فيها « زهرات الألم » تصالح بودلير مع والدته . وكان سبب غضبه منها أنها تزوجت بعد وفاة والده فعد هذا الزواج خيانة منها لذكراه ولم يسامحها على فعلتها . وتنازع معها ومع زوجها وسبها وسب نفسه معها ، وقال إن آباءه كانوا إما بلهاء أو مجانين . فلما مات زوج والدته تصالح مع أمه فأدت عنه ديونه ، وعرضت عليه بيتا يقيم فيه فى الريف . ولكنه رفض هذا العرض أولا وكتب إليها الرسالة الآتية يشرح فيها أسباب رفضه :

---

(١) Charles Baudlaire   (٢) Jeanne Dnval

(٣) Les Fleurs de mal   (٤) Poe   (٥) De quency

— ٣٦ —

« إنى فى حاجة إلى السلام ... »

فى ١٩ فبراير سنة ١٨٥٨ .

والدتى العزيزة .

لقد كتبت إلىَّ رسالة ممتعة من ثلاثة أسابيع ، وهى الرسالة الوحيدة من نوعها التى كتبتها إلىَّ من عشرين عاما — ولكننى لم أرد عليها قبل اليوم ، وما من شك فى أنك قد دهشت دهشة آلمتك كثيرا . وأحب أن أقول لك إنى حين قرأت تلك الرسالة عرفت أنك لا تزالين تحبيننى حبا أعظم مما كنت أتصوره ، وأن ثمة أمورا يمكن أن تتبدل إلى ما هو خير منها ، وأنه لا يزال فى مقدورنا أن نتمتع بالسعادة .

وأكبر ظنى أنك كنت مخطئة فى الأسباب التى حاولت أن تفسرى بها صمتى . أما السبب الحقيقى فهو أن رسالتك الرقيقة التى تفيض بعواطف الأمومة قد آلمتنى ، آلمتنى حين أدركت أنك ترغبين بحق فى أن أكون إلى جانبك ، وحين فكرت أنى سأسبب لك كثيرا من الأحزان لأنى لست مستعدا للاقتراب منك الآن .

والسبب الأول هو أنى لا أجرؤ على مغادرة باريس وأترك فيها كتابا لى فى المطبعة (جوردن بم[١]) ، وأنت تعلمين مقدار ما أبذل من العناية فى كل ما أعمل . ولو أنى تركته لسبب لى هذا مشاغل جمة .

ثم فكرى فى الحياة التعسة المروعة التى أحياها ، وهى حياة لا تترك لى إلا قليلا من الوقت للعمل ، والشئون الأخرى التى يجب علىَّ أن أنظمها قبل أن أغادر باريس . فقد اضطررت فى أول هذا الشهر إلى أن أقضى أسبوعا مختفيا عن الأنظار حتى لا يقبض علىَّ ، وتركت جميع أصول كتبى ناقصة فى المنزل ، وليست هذه إلا مشكلة من آلاف المشكلات التى تواجهنى فى حياتى .

ومن أصعب الأشياء على النفس أن تكون السعادة قريبة المنال ثم لا يجد الإنسان إليها سبيلا ، وأن يدرك الإنسان فوق ذلك أنه لو وجد هذه السبيل فلن يسعد هو وحده بل

(١) Gordon Pym

سيكون سببا فى سعادة إنسان آخر من حقه عليه أن يُسعده . ولك أن تزيدى على هذه الآلام كلها ألما آخر لعلك لا تدركين كنهه ، ذلك أنه إذا كانت أعصاب الإنسان قد أتلفها ما قاساه من قلق وآلام يخطئها الحصر ، فإن الشيطان يتسلل فى كل صباح إلى عقله رغم ما ينتويه من نوايا طيبة ، ويوسوس له فيقول لنفسه : « لم لا أترك هذه الأشياء جميعها يوما آخر . سأنكبُّ عليها فى الليلة المقبلة ، فأفرغ من كل ما هو ضرورى منها . حتى إذا أقبل الليل هال الإنسان ما يجب عليه أن ينجزه من الأعمال ، وطغى عليه الحزن فأجدب عقله ، وأقبل اليوم الثانى وعاد إلى تمثيل الرواية السابقة ومثلها بسابق إيمانه وشرفه وثقته .

ولكنى فى الحقيقة مخلص فى رغبتى أن أغادر هذه المدينة الملعونة التى قاسيت فيها من العذاب ما قاسيت ، وأضعت فيها من عمرى ما أضعت . ومن يدرى لعلى إذا جئت إلى أون فلير[١] عاد إلى عقلى شبابه لما يجده فيها من السعادة والطمأنينة . إن فى عقلى الآن عشرين رواية ومسرحيتين ، ولست ممن يطمحون فى شهرة عادية ينالها أوساط الناس ، بل إنى أريد أن أطلع على الناس بما يذهلهم ويأخذ عليهم مذهبهم كما فعل بهم بيرُن وبلزاك وشتوبريان[٢] . ولكن ترى هل يمتد بى الأجل حتى أبلغ ما أبتغيه ؟ آه ليتنى كنت أعرف فى شبابى قيمة الوقت والصحة والمال ! وهذه « الأزاهير » الملعونة التى لا بد لى أن أكتبها من جديد . إنى فى حاجة إلى راحة البال ، ولا بد لى من قوة العزيمة لأعود كما كنت شاعرا ... وأعالج موضوعا ظننت أنى فرغت منه . وليس ذلك كله إلا إطاعة لأوامر ثلاثة من الحكام . وإنى لأعتقد بحق ومن غير أن يكون فى اعتقادى هذا شىء من المغالاة أن سنتين أقضيهما فى أون فلير مجدا فى عملى كفيلتان بأن توفيا بجميع ديونى ، أى أنى أكسب فيهما ثلاثة أضعاف ما أكسبه فى هذا المكان . وما أشد أسفى على أنك لم تعرضى علىّ هذا من عام واحد تقريبا حين لم أكن قد أحاطت بى الصعاب الشديدة التى تحيط بى الآن .

ولنعد الآن إلى قصة ما وضعته من الخطط لسعادتى . سيكون فى وسعى أن أقرأ وأقرأ وأقرأ ، دون أن تقلل هذه القراءة من إنتاجى ، وسأقضى كل أيامى فى تجديد نشاط عقلى !

(١) Honfleur

(٢) Chateaubriand ، Balzac ، Byron

ولست أخفى عنك يا والدتى العزيزة أن حمقى وما توالى علىّ من محن قد أفسدا علىّ تعليمى وهو ما يؤسفنى كل الأسف . وها هو ذا عهد الشباب ينقضى على عجل ، و إذا فكرت فى السنين وهى تمر مسرعة هالنى الأمر وتولانى الرعب . نعم إن هذه السنين تتكون من ساعات ودقائق ، ولكن الإنسان وهو يضيع وقته إنما يفكر فى أجزائه الصغيرة لا فى مجموعه كله .

ها هى ذى خطط طيبة ، ولست أظن أن تحقيقها مستحيل ، ولن يكون لى فى أون فلير عذر إن لم أحققها كاملة .

و إذا قرأت رسالتى فلا تظنى أن أنانيتى وحدها هى التى أملتها علىّ . بل إن أهم ما يشغل بالى هو هذا : إن أمى لا تعرفنى ، فهى لم تكد ترانى لأن الأيام لم تسمح لنا بأن نعيش معا ، ولكن علينا مع ذلك أن نسعد معا بضع سنين . وداعا يا أماه . الساعة الآن الرابعة والنصف ، و إنى أقبلك فى الخيال بكل ما فى قلبى من حرارة الحب . لقد كتبت هذا الخطاب بخط ردىء ولكننى تعمدت أن أكتبه بحروف كبيرة لاعتقادى أنه بهذه الصورة أقل إيذاء لعينيك .

* * *

وأخذت الديون تتراكم على بودلير بعد كتابته هذه الرسالة ، وظلت چان دوڤل تنهبه وتخدعه ، وأخذ هو يدمن الخمر والأفيون ، فأصابه الشلل ومات فى السادسة والأربعين من عمره . وقد خلف فضلا عن أشعاره كثيراً من المقالات الانتقادية ، وكان هو أول من شاد بفضل ڤاجنر ، ومانيه ، ودلاكروا[1] .

---

(١) Vagner ، Manet ، Delacroix

رتشرد ڤجنر يطلب إلى أحد المعجبين به أن يقرضه من فوره عشرة آلاف فرنك

[رسالتان متبادلتان بينه و بين البارون ربرت ڤن هورنشتين]

كان رتشرد ڤجنر[١] حين كتب الرسالة التالية فى حالة نفسية سيئة للغاية . ولكن المطالب التى كان يتقدم بها إلى مريديه والمعجبين به كانت رغم هذا عنيفة ملحة صاخبة . لقد فشلت وقتئذ مسرحية ترستان و إيسلد[٢] بعد أن جربت سبعا وخمسين مرة ، وتراكمت عليه الديون ، وساءت سمعة أسرته ، ووجهت إليه سهام النقد والسخرية ، وأصبح فى واقع الأمر رجلا فاشلا أفاقا ، ولكن كبرياءه و إيمانه بعبقريته لم يتزعزعا مطلقا رغم هذا كله .

ولما نشر فردناند[٣] ابن البارون ربرت ڤن هورنشتين[٤] مذكرات والده لأول مرة فى عام ١٩٠٨ حذف منها الرسالتين التاليتين « احتراما لڤجنر وأسرته » ، ثم نشرت بعدئذ سيرة ڤجنر التى كتبها بنفسه فوجدت فيها إشارة إلى البارون فن هورنشتين أغضبت فردناند فعدل عن رأيه الأول ونشر الرسالتين لتكونا شاهدا آخر على « صغار ڤجنر وحقده على الشاب الذى يطلب إليه أن يقرضه المال رغم تشهيره به » . والرسالتان تفصحان عن نفسهما من غير حاجة إلى تعليق :

— ٣٧ —

« ... ولم تحجم عن بذل التضحية ... »

١٩ كى ڤلتير ، باريس .

فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٦١ .

عزيزى هورنشتين

ترامى إلى أنك أصبحت من ذوى الثراء ، أما أنا فليس يصعب عليك أن تعرف من خيبتى المتكررة ما أنا فيه من بؤس وشقاء . وها أنذا أحاول أن أصلح حالى بعزلتى وقيامى

---

(١) Richard Wagner (٢) Tristan and Isolde (٣) Ferdinand

(٤) Baron Robert von Hornstein

بعمل جديد . ولـكنى فى حاجة إلى قرض عاجل قدره عشرة آلاف فرنك أستعين به على سلوك هـذه السبيل التى اخترتها للإبقاء على نفسى — أى للنجاة من محنتى الشديدة ومن أسباب قلقى وحاجاتى التى لم تترك لى شيئاً من الحرية الفكرية . إنى أستطيع بهذا القرض أن أنظم حياتى من جديد ، وأن أقوم بأعمال مثمرة .

إنى أعلم أن من الصعب عليك أن تقدم لى هـذا المال ، ولـكنك لن تعجز عن تقديمه إذا أردت ، ولم تحجم عن بذل التضحية . وهذا ما أرغب فيه وما أطالبك به ، وأعدك بأنى سأحاول أن أؤدى لك هذا الدين مما أحصل عليه من الدخل فى خلال الثلاث السنين التالية .

والآن فلأنظرن هل وقع اختيارى على الرجل الحق !

فإذا تبين لى أنك ذلك الرجل — ولم لا يكون هذا هو الذى ينتظر من بعض الناس فى يوم من الأيام ؟ — فإن العون الذى تقدمه لى سيوثق الصلة بينى و بينك ، وسيكون عليك أن تتفضل باستضافتى فى إحدى ضياعك ثلاثة أشهر فى الصيف المقبل ، وحبـذا لو كان ذلك فى مقاطعة الرين .

وحسبى هذا فى الوقت الحاضر . ولست أزيد عليه إلا شيئاً خاصا بالدين الذى عرضت عليك أمره ، وهو أنك تستطيع أن تخفف عنى كثيرا من متاعبى إذا قدمت لى مبلغا عاجلا ولو لم يزد على ستة آلاف فرنك . فإن فعلت فإنى أرجو أن أوفق إلى تنظيم شئونى من الآن إلى شهر مارس المقبل من غير حاجة إلى الأربعة الآلاف الأخرى ؛ لـكن لا شىء أقل من تقديم المبلغ كله ، ومن تقديمه فى الحال ، يمكن أن يسدى إلىّ المعونة التى أحتاجها فى الحالة النفسية التى أعانيها فى الوقت الحاضر .

فلنر الآن ما سيكون ، ولنرج أن تشرق الشمس علىّ قليلا من الوقت لأول مرة . إن الذى أحتاجه الآن هو النجاح و إلا — فأكبر الظن أنى لن أستطيع القيام بعمل جديد .

المخلص

رتشرد فجنر .

* * *

ويقول رتشرد ڤجنر بعدئذ فى كتابه « حياتى » إنه كان يظن أنه « يولى » البارون فن هورنشتين « شرفا عظيما » حين يطلب إليه ما طلب ، وإنه « دهش أعظم دهشة حين تلقى الرد التالى الذى يعبر عن « فزع » البارون من هذا الاقتراح » .

— ٣٨ —

« يؤسفنى ألا أستطيع أن أكون ذا فائدة لك »

عزيزى الهر ڤجنر .

يبدو أن لديك فكرة خاطئة عن ثروتى . إن لى أملاكا غير كثيرة أستطيع بها أن أعيش عيشة بسيطة سهلة مع زوجتى وطفلى ، فعليك إذن أن تولى وجهك شطر الموسرين حقا ، وما أكثر هؤلاء بين أنصارك ونصيراتك فى طول أوربا وعرضها ، أما أنا فيؤسفنى ألا أستطيع أن أكون ذا فائدة لك .

وأما زيارتك الطويلة « لإحدى ضياعى » ، فإنها غير ميسرة فى هذا الوقت ، فإذا ما تيسرت فيما بعد فإنى سأبلغك .

ولقد أسفت حين قرأت فى الصحف أن إخراج مسرحية « ترستان وإيسلد » لن يكون فى هذا الشتاء ، وأرجو أن تكون المسألة مسألة وقت لا أكثر ، وأن نستمتع بهذه المسرحية فيما بعد ، وتحياتى إليك وإلى زوجتك .

من صديقك

ربرت فن هورنشتين

وكتب ڤجنر من باريس فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٦١ إلى البارون فن هورنشتين يلومه على « قلة ذوقه » ويقول : « لم يكن لك أن تجرؤ على أن تسدى إلىّ شيئا من النصح ولو كان مجرد الإشارة إلى من هو الثرى بحق ، بل كان عليك أن تترك لى أمر الأنصار والنصيرات الذين تشير إليهم فى رسالتك ، ولِمَ لم أتقدم إليهم بطلب المعونة . وإذا لم تكن مستعدا لاستقبالى فى إحدى ضياعك فقد كان عليك أن تنتهز الفرصة الفريدة التى أتحتها لك لتعد العدة لاستقبالى فى مكان آخر أختاره لنفسى . لذلك آلمنى منك قولك إنك ستخبرنى عن الوقت الذى تكون فيه مستعدا لاستقبالى . وكان واجبا عليك ألا تشير

فى رسالتك بشىء إلى مسرحية ترستان ، وليس شىء يعفيك من اللوم على هـذه الإشارة إلا الزعم بأنك تجهل أعمالى كل الجهل . فلتكن هذه الرسالة خاتمة الحديث فى هذا الموضوع . إنى أعتمد على حسن تصرفك ، كما أن لك أن تعتمد على حسن تصرفى » .

وصلحت حال فجنر فى العام التالى صلاحا موقوتا بعد أن قبل ضيافة لدفج الثانى[1] ملك بافاريا فى ميونخ ، فقد عاش فى تلك المدينة عيشة البذخ ، وأدى الملك عنه كثيرا من ديونه ؛ وأشرف فجنر فيها على العرض الأول لمسرحية ترستان و إيسلد ، وأتم مسرحيتين أخريين .

وكتب أحد الكتاب المشهورين يعتـذر عما فى أخلاق فجنر من شذوذ فقال : « إذا نظرت إلى ما كتبه فجنر — وهو ثلاث عشرة مسرحية موسيقية وغنائية ، منها إحدى عشرة لا تزال تمثل الآن على المسارح ، ومنها ثمان تعد من روائع الفن الخالدة — إذا نظرت إلى هذه الأعمال أيقنت أن الديون التى أداها عنه النـاس لا تعد إلى جانبها شيئاً مذكورا ... إن دينا لا يزيد على بضعة آلاف من الريالات يؤديه الناس عنه ليس ثمنا غاليا لبعض جهوده . وماذا يضيره إذا لم يكن وفيا لأصدقائه أو لزوجته ؟ لقد كانت له حبيبة واحدة أخلص لها حتى آخر يوم من أيام حياته وهى الموسيقى .

(١) Ludwig II

القائد ربرت لى يودع جيشه الوداع الأخير

فى شهر مارس من عام ١٨٦٤ تولى القائد يلسيز سمسن جرانت[١] قيادة جيش الشرق بعد أن انتصر نصرا مؤزرا فى عدة وقائع فى وادى نهر المسيسپى[٢] وفى تنسى[٣]. وكانت المهمة التى عهدت إليه من أشق ما عهد إلى قائد من قواد الشمال فى الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب، وهى أن يهزم القائد ربرت ا. لى[٤]، أحد قائدين أو ثلاثة لم تنجب أمريكا أعظم منهم. ولم يمض على نقله إلى الشرق ثلاثة عشر شهرا حتى أرغم لى على التسليم فى اليوم التاسع من شهر إبريل سنة ١٨٦٥، وفى اليوم الثانى أصدر لى أمرا رقم ٩ إلى جيشه المرابط فى فرچنيا الشمالية هذا نصه :

— ٣٩ —

« ... فى وسع الضباط والجنود أنه يعودوا إلى منازلهم »

مركز القيادة العامة لجيش شمال فرچنيا :

فى ١٠ ابريل سنة ١٨٦٥.

أمر عام.

رقم ٩.

لقد اضطر الجيش المرابط فى شمال فرچنيا إلى الاستسلام لقوات تفوقه كثيراً فى عددها وعُددها بعد أن ظل أربع سنين فى حرب طاحنة، أظهر فيها ضروباً من الصبر والبسالة لا يضارعه فيها جيش سواه

ولست فى حاجة إلى أن أقول للأبطال الذين بقوا على قيد الحياة بعد المعارك الطاحنة، والذين صابروا وثبتوا إلى آخر لحظة، إنى لم أرض بهذه النتيجة لضعف ثقتى بهم، ولكننى حين شعرت بأنا لا نستطيع أن نجنى من البسالة والإخلاص ثمرة تعوض علينا الخسارة

(١) Ulysses Simpson Grant
(٢) R. Mississippe
(٣) Tennessee
(٤) Robert E. Lee.

الفادحة التى لا مفر منها إذا واصلنا القتال ، صممت على ألا أضحى من غير جدوى بأولئك الأبطال الذين جعلتهم خدماتهم الماضية أعزاء على مواطنيهم .

وتنص شروط الاتفاق على أن فى وسع الضباط والجنود أن يعودوا إلى منازلهم ، وأن يبقوا فيها حتى يتم تبادلهم . وستعودون إليها ونفوسكم راضية لأنكم تعلمون أنكم أديتم واجبكم مخلصين ، وأدعو الله من صميم قلبى أن يبارك فيكم ويدفع عنكم السوء .

وسأظل ما حييت معجباً بثباتكم وإخلاصكم لوطنكم ، ذاكراً بالشكر فضلكم وتقديركم العظيم لشخصى ، وأودعكم جميعاً من صميم قلبى .

ر . ا . لى

القائد

چون استيورت مل ينقذ هربرت اسپنسر
أكبر منافسيه فى الفلسفة من محنته

فكر هربرت اسبنسر[١] فى عام ١٨٥٨ فى مشروعه العظيم وهو وضع عدة كتب يشرح فيها تطور المادة والعقل من السديم إلى الإنسان ، ومن الرجل الهمجى إلى شيكسپير . وكان وقتئذ قد بلغ الأربعين من عمره ، ولكنه كان معتل الصحة رقيق الحال . وعرض له هذا المشروع الضخم وهو يراجع مقالاته لينشرها كلها فى مجلد واحد ، فأدهشه مارآه فيها من وحدة وتسلسل فى التفكير . وفى ذلك يقول ول دورانت[٢] « وخطر له فجأة أن نظرية النشوء والارتقاء يمكن أن تطبق على العلوم كلها كما تطبق على علم الأحياء ، ونفذت هذه الفكرة إلى عقله كما ينفذ شعاع الشمس من أبواب مفتحة ، واعتقد أن هذه النظرية لا تفسر نشوء الأنواع والأجناس فحسب ، بل إنها يمكن أن تفسر أيضاً نشأة الكواكب ، وطبقات الأرض ، وتاريخ الأمم الاجتماعى والسياسى ومبادئ الأخلاق والجمال . وكانت هذه آراء اسپنسر الأولى فى الفلسفة التكوينية[٣] ، وكانت مشكلة اسپنسر الأولى هى الطريقة التى يستطيع بها أن يمول مشروعه الضخم وأن يكسب قوته فى آن واحد . ثم أوصى له أحد أقاربه بألفى ريال وخمسمائة ، فاستقال من تحرير «الإكونومست»[٤] ، وحاول أن يحصل على اشتراكات لكتبه قبل طبعها ، وأن يقنع « بالكفاف من العيش» . ثم نشر وصفاً موجزاً لمشروعه مشتملا على خطوطه الرئيسية ، وحصل بذلك على وعد بالمعاونة من عدد كبير من جلة العلماء ، وعلى اشتراكات تضمن له ألف ريال وخمسمائة فى السنة فبدأ العمل من فوره .

وفى عام ١٨٦٢ نشر الجزء الأول من المبادئ الأولى فأثار نشره عاصفة من الجدل ، وتصدى هكسلى للدفاع عن أنصار التطور ضد هجمات الأساقفة الحانقين . وأثرت هذه المعركة العلمية القائمة حول « المبادئ الأولى » و « أصل الأنواع » فى اشتراكات اسپنسر

(١) Herbert Spencer .
(٢) Will Durant .
(٣) Synthetic Philosophy .
(٤) Economist .

فانخفضت كثيراً ولم يرسل معظم المشتركين ما وعدوه من الاشتراكات ، ونقصت شجاعة اسپنسر بنقص أمواله ، واضطر أن يعلن فشل المشروع كله . وفى هذه الساعة الحرجة تلقى الرسالة التالية من چون استيورت مل[1] أكبر منافسيه فى الفلسفة :

— ٤٠ —

« ... هو عرض بسيط للتعاون على تحقيق غرض عام جليل ... »

فى ٤ فبراير سنة ١٨٦٦

سيدى العزيز

جئت إلى هنا فى الأسبوع الماضى فرأيت عدد شهر ديسمبر من كتابك فى علم «الأحياء» ، ولست بحاجة إلى أن أعبر لك عن مقدار أسفى حين اطلعت على الإعلان المنشور فى الورقة الملحقة به ... وأنا أعرض عليك أن تصدر رسالتك التالية وأنا كفيل بأن أؤدى للناشر كل ما يلحقه من الخسارة . . . وأرجو ألا تنظر إلى هذا الاقتراح على أنه جميل شخصى أسديه إليك ؛ على أنه حتى لو كان كذلك فإنى مازلت أرجو أن تسمح لى بعرضه عليك . فما بالك إذا كان لا يمت إلى هذا بصلة — بل هو عرض بسيط للتعاون على تحقيق غرض جليل ، بذلتَ فيه جهدك وضحيت فيه بصحتك ، ولا أزال ياسيدى العزيز .

صديقك المخلص

ج . اس . مل

* * *

ورفض اسپنسر أول الأمر ماعرضه عليه مِلْ ، رفضه رفضاً باتا ولكن فى أدب جم . غير أن مل أصر على اقتراحه وأقنع كثيرين من أصدقائه بالاشتراك فى الأجزاء الباقية من الكتاب . وعارض اسپنسر مرة أخرى ، ولكن جماعة من الأمريكيين المعجبين باسپنسر انضموا إلى مل وجمعوا سبعة آلاف ريال ، خصصوا فوائدها أو أرباحها إلى اسپنسر .

---

(١) Part One of First Principles

وقبل الفيلسوف هذا العرض ، وواصل عمله الضخم فى البحث والدرس بحماسة و إيمان ، وأكب عليه أربعين عاما كاملة نشر فى خلالها جميع ما أراد نشره من فلسفته التكوينية ...

وكتب اسپنسر فى عام ١٨٩٦ إلى أندروكرنيجى(١) أحد المعجبين به يقول : « لن يصعب عليك أن تدرك السبب فى أنى لا أحفل بما يظهره الناس لى من دلائل التعظيم والإجلال فى السابعة والسبعين من عمرى ، بعد أن منعوها عنى طويلا ، و بعد أن ظالت أبدد ما كان لدىّ من موارد ضئيلة حتى كدت أعجز عن العمل لما كان يتهددنى من خطر الإفلاس » ... فكتب إليه كرنيجى يقول : « لقد كانت لك رسالة سابقة لزمانها بزمن طويل ، ولهذا لم يكن يتوقع أن يقر الناس لك بفضل ... وكيف تشكو أيها الصديق إهمال الناس لك و إساءتهم إليك واستهزاءهم بك ؟ إن هذا يا سيدى هو أثمن جزاء يجزى به معلمو الإنسانية » .

ويقول بعض المؤرخين إن اسپنسر طلب قبل وفاته ببضعة أيام أن يؤتى له بالمجلدات الثمانية عشر من فلسفته التكوينية وأن توضع فى حجره ، ولما « شعر بثقلها عجب من أنه لم يفضل عليها أن يكون له حفيد يضعه فى مكانها ... »

(١) Andrew Carnegie

بسمرك يغتبط بانتصار الألمان فى سيدان

رسالته إلى زوجته

بدأت حرب عام ١٨٧٠ فى ١٤ يوليه يوم عيد الحرية الفرنسية وسقوط الباستيل فى عام ١٧٨٩ ، أى فى ذكرى اليوم الذى خال فيه الفرنسيون أنهم أصبحوا أقرب مما كانوا من قبل إلى الحرية . وقد اختار إميل ألفييه[١] كبير وزراء نابليون الثالث هذا اليوم بالذات ليعلن فيه الحرب إلى بروسيا وقال فى ذلك قالته الشهيرة : « لقد أخذت أنا وزملائى على عاتقنا فى هذا اليوم تبعة خطيرة ، ولكننا أخذناها وضمائرنا مستريحة »

وكان العالم فى عام ١٨٧٠ يجهل المهارة المكيفلية التى نصب بها بسمرك الشرك للإمبراطور . فقد استطاع هذا السياسى الداهية أن يبذر بذور الشقاق بين فرنسا وانجلترا بنشر مطامع نابليون فى باجيكا ، و بينها و بين بفاريا بنشر مطامعه فى پلاتينات[٢]

ولما كانت الوسائل التى استخدمها بسمرك لم تعرف على حقيقتها إلا بعد عام ١٧٩٠ فإن العالم لم يدرك أن فرنسا كانت هى المجنى عليها . ألم يغير نابليون الثالث خريطة أوربا أكثر مما غيرها عمه ؟ وهل يمكن أن يتهم بسمرك بغير النوايا السلمية وهو الذى قال فى إحدى الأزمات الأوربية : إنى لا أرغب فى الحرب ولكننى لا أرغب أيضاً فى السلم .

وهكذا دخل نابليون الحرب والعالم يظن أنه هو المعتدى ، و بعد شهر ونصف شهر من دخوله إياها أسر فى واقعة سيدان[٣] ثم التقى ببسمرك ذلك اللقاء التاريخى الذى وصفه رجل الدم والحديد لزوجته فى رسالته الآتية :

— ٤١ —

« . . . تلك حادثة من الحوادث . . . التاريخية العالمية . . . »

فندرس فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٠

حبيبة قلبى :

غادرت محل إقامتى هنا أمس الأول قبل مطلع الفجر ، ولكننى عدت إليه اليوم ، بعد أن خضنا فى أول يوم من هذا الشهر معركة سيدان العظيمة وأسرنا فيها نحو ثلاثين

(١) Emile Ollivier . (٢) Palatinate . (٣) Sedan

ألفاً ، وسقنا سائر الجيش الفرنسى إلى القلعة ؛ بعد أن طاردناه من بارله دوك[١] وضيقنا عليه الخناق حتى اضطر إلى التسليم هو والإمبراطور نفسه ، فأخذناهم أسرى حرب . وفى الساعة الخامسة من صباح أمس جاءنى القائد رى[٢] وهو رجل أعرفه شخصياً وقال لى إن نابليون يريد أن يتحدث إلىّ ، وكنت قبل ذلك قد ظللت حتى الساعة الواحدة صباحاً أبحث شروط التسليم مع مولتكه[٣] والقواد الفرنسيين

ولم أنتظر حتى أغتسل أو أفطر بل ركبت إلى سيدان ، ووجدت الإمبراطور فى الطريق العام أمام المدينة راكباً فى عربة مكشوفة ومعه ثلاثة من كبار الضباط ، وبالقرب منه ثلاثة آخرون على ظهور الخيل . فلما رأيته نزلت عن ظهر جوادى وحييته بأدب كأنى فى قصر التويلرى[٤] وسألته ماذا يأمر به ، فقال إنه يريد أن يقابل الملك ، فأجبته إن جلالته مقيم على بعد أربعة عشر ميلا من ذلك الموضع — وكنت صادقاً فى هذا — أى فى المكان الذى أكتب فيه الآن . ولما سألنى عن المكان الذى سيؤخذ إليه ، عرضت عليه محل إقامتى أنا فى دنشرى[٥] وهى قرية على نهر الماس[٦] قريبة من سيدان ، وذلك لأنى غير خبير بهذا الموضع . فقبل ما عرضته عليه وسار بعربته ، وصحبته أنا ورجاله الستة الفرنسيون وكارل[٧] وكان قد جاء فى أثرى إلى صفوف جنودنا فى صباح ذلك اليوم الجليل . واكتأب الإمبراطور قبل أن يصل إلى مقره لأنه كان يخشى أن تشاهده الجماهير ، وأشار إلى بيت منعزل يسكنه رجل من العمال فى الطريق ، وسألنى هل يستطيع أن ينزل فيه ، فأرسلت كارل ليبحث ذلك البيت ، ولما جاء قال إنه بيت قذر حقير . فأجاب الإمبراطور : « هذا لا يهم » ، وصعدت معه سلما ضيقاً متهدماً .

وجلسنا ساعة من النهار فى حجرة لا تزيد مساحتها على عشر أقدام مربعة ، بها من الأثاث منضدة من خشب التين وكرسيان من القش ، وظل سائر الجماعة ينتظروننا فى أسفل الدار . ألا ما أعظم الفرق بين هذه الجلسة وجلستنا الأخيرة فى عام ٦٧ ، فى التويلرى ! ولم يكن حديثنا بالأمر الهين لأنى أردت أن أتحاشى الخوض فى أمور تؤلم أولئك الذين أذلهم العزيز الجبار . وكلفت كارل أن يستدعى لنا ضباطا من المدينة ، وطلب مولتكه أن يحضر

---

(١) Bar-le-Duc (٢) General Reille (٣) Moltke (٤) Tuileries
(٥) Donchery (٦) The Maas (٧) Carl

هو أيضاً . ثم أرسلنا أحد الضباط ليستطلع المكان ، فعثرنا على قصر صغير ذى حديقة فى فرزنوى[١] على بعد ميلين من المكان الذى كنا فيه . ومررنا بالإمبراطور إلى ذلك المكان ومن حوله حرس خاص من الجند المدرعين استدعيناهم لهذا الغرض ، وهناك أتممنا وضع شروط التسليم مع ومپفن[٢] القائد الفرنسى الأعلى . وتقضى هذه الشروط بأن يسلم نحو أربعين أو ستين ألفاً من الجنود الفرنسيين — ولست أعرف الآن عددهم بالضبط —هم وجميع ما معهم ويصبحوا أسرى حرب لقد خسرت فرنسا فى اليومين السابقين إمبراطورها ومائة ألف من رجالها . وقد غادر نابليون هذا القصر فى صباح اليوم هو وحاشيته وخيله وعرباته إلى ولهلمشوه[٣] بالقرب من كاسل[٤] .

تلك حادثة من الحوادث التاريخية العالمية ، وذلك نصر حاسم نحمد الله عليه خاضعين ، وإن كان علينا أن نواصل الحرب مع فرنسا التى أصبحت لا رئيس لها .

أستودعك الله ياحبيبة قلبى ، وقبِّلى الأطفال .

المخلص

ق . ب

* * *

وأخذ الناس بعد نكبة الإمبراطور فى سيدان يعطفون عليه ، بعد ما نسوا آثامه . وكان نصر الألمان الحاسم السريع مما آثار شكوكهم فى الخرافة التى ذاعت عن براءة الألمان .

وبعد عدة سنين من ذلك الوقت لما مات نابليون الثالث فى منفاه كتب المؤرخ الكبير تين[٥] إلى صديق له يقول : « إن ما ذكرته عن بسمرك لترتعد منه فرائصى » . وأى شىء هذا الذى ارتعدت منه فرائص تين فيلسوف التاريخ ؟ لا شىء أكثر مما نقل إليه من أن بسمرك قال للسفير الفرنسى فى برلين : « لن أتردد فى الهجوم عليكم ، وسنكون مستعدين لذلك الهجوم ، أما أنتم فإنى أعلم أنكم غير مستعدين له ، ولن أتوانى قط عن ذلك الهجوم »

(١) Fresnoi (٢) Wimpffen (٣) Wilhelmshohe
(٤) Cassel (٥) Taine

بنچمين دزرائيلي يعرض على تومس كارليل رغبته في أن ينجيه من متاعبه فى أخريات أيامه

ها هى ذى رسالة من رئيس الوزراء الأريب الذى اشتهر بخطبه الطنانة الرنانة و بشدة احترامه للملكة فكتوريا .

و يقال إن أعضاء البرلمان سخروا من دزرائيلى حين قام أول مرة ليلقى خطابه فى البرلمان ، ولم ينقطعوا عن الضحك حتى أجلسوه ، ولكنه رد عليهم بقوله إنه سيرغمهم على أن يصغوا إليه يوماً ما . وقد كان ، وذاع صيت دزرائيلى واشتهر أولا برواياته ثم اشتهر فوق ذلك بمقدرته السياسية و بتدعيم الإمبراطورية البريطانية .

ومنحت حكومة بروسيا كارليل نوط الجدارة حين نشر كتابه عن فردرك الأكبر، فرأى دزرائيلى أن يمنحه هو أيضاً نوط الصليب الأعظم من وسام الحمام و يرتب له معاشاً سنويا ، وكتب إليه بذلك الرسالة اللطيفة الآتية :

— ٤٢ —

« يجب على الحكومات أن تعترف بالذكاء لأصحاب الذكاء »

بورنموث فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤ (خاص)

سيدى :

يجب على الحكومات أن تعترف بالذكاء لأصحاب الذكاء ، لأن ذلك يحفظ على الأمة نشاطها و يزيد من قدره . ولكن أداء هذا العمل على الوجه الأكمل يتطلب شجاعة وحسن تدبير ، و إلا هوى إلى المحسوبية و إلى مناصرة ذوى المواهب المتوسطة ، وهذا عمل لا يسمو بالشعور القومى بل ينزل به آخر الأمر إلى الدرك الأسفل و يفسده .

ولقد أشارت الحكومة على جلالة الملكة بإعداد بعثة إلى الأقاليم القطبية ، واقترحت عليها أعمالا أخرى من ذلك النوع ، فأظهرت بذلك عطفها على العلم ، وأنا أريد ألا يقل نصيب الآداب الرفيعة من اعتراف الحكومة عن نصيب العلم نفسه ، ولكن هذا ليس

بالأمر المبين لأن من طبيعة الأشياء ألا يبلغ تقدير القيم فى الآداب من الدقة ما بلغه فى العلوم

وإذا نظرتُ إلى عالم الأدب لم أجد فى أسماء الأحياء من رجاله إلا اسمين أعتقد أنهما سيخلدان ، وقد بلغا من علو الشأن منزلة لا ينازعهما فيها أحد . فأما أحدهما فاسم شاعر إن لم يكن عظيما فهو شاعر بحق ، وأما الآخر فاسمك أنت .

لذلك أشرت على الملكة أن تمنح مستر تنسن[1] لقب بارون ، وهذا اللقب عينه رهن إشارتك إن أحببت . ولكنى ذكرت أنك مثلى لا ولد لك ، وأنك قد لا تعبأ بالألقاب الوراثية ، ولهذا اعتزمت أن أشير على الملكة — إذا وافقت أنت — أن تمنحك أرق ما لديها من أوسمة الشرف ، وهو وسام أعتقد أنه لم يمنح من قبل إلا لمن أسدوا للدولة خدمة حقة . ذلك هو نوط الصليب الأعظم من وسام الحمام .

وسأحدث إليك حديثاً صريحاً فى مسألة أخرى : ليس من اللائق أن تتعرض فى أخريات أيامك المتاعب التى يتعرض لها الناس عادة . ولست أرى مايمنع الأمة أن تمنح المؤلف الكبير ما تمنحه المحامى أو رجل الحكم من معاش . لكن من سوء الحظ أن سلطة الملكة فى هذا مقيدة محدودة ، على أن من حق الملكة مع ذلك أن تمنح أى فرد من المال مايعادل القدر الذى تمنحه إياه كلية أو جامعة ؛ وقد قبل هذا جنسن[2] العظيم عن رضا وتمتع به عن طيب خاطر ، ولم ير فيه سوذى[3] ما ينافى صلاحه واستقامته .

فهل لك أن تتفضل بإنبائى عن رأيك فى هذين الموضوعين

ولى الشرف بأن أكون ياسيدى

خادمك الأمين

ب . دزرائيلى

* * *

ورفض كارليل وسام الشرف الذى عرض عليه فى حزم ولكن فى أدب ، ولقد كان من قبل ذلك كثير الاعتراض على سياسة دزرائيلى الاستعمارية ، ورفض فضلا عن ذلك أن يدفن فى مقبرة وستمنستر ، واختار أن يرقد بجوار والديه فى مسقط رأسه قرية إكلفشن[4] باسكتلندة .

---

(١) Tennyson (٢) Samuel Johnson (٣) Robert Suthey

(٤) Ecclefeshen

سارة برن هارد تقول لفكتورين ساردو إن باريس قد أصبحت بعدأن خلت منه صحراء موحشة

كتبت ساره[١] عدداً لايحصى من الرسائل ، وكانت كثيرة الاستدانة ولكنها كانت هى المسيطرة على المسرح فى أيامها .

وكان مولدها فى باريس عام ١٨٤٤ ، ونشأت فى أحد الأديرة ، وتغلبت على خوفها من المسرح فى عهد شبابها بما كان لها من ذاكرة قوية وصوت رخيم ، وما لبثت أن تلألأ نجمها فى سماء المسرح حتى أدهشت العالم القديم والعالم الجديد ، ودامت صلتها بساردو[٢] الشاعر المسرحى مؤلف فدورا[٣] التى كتبها لها خاصة سنين طوالا . وكان من عادتها فى الحب أن تكون هى المهاجمة والمطاردة . وقد رأته أول مرة فى مقهى رقص فى باريس ، فصممت على أن تغزو قلبه وتخضعه ، ونجحت فى ذلك كل نجاح . وها هى ذى إحدى الرسائل التى بعثت بها إليه :

— ٤٣ —

« . . ألفاظك غذائى وأنفاسك خمرى . . »

[من غير تاريخ]

أيها الغلام العجيب

أين أنت الليلة ؟ إن رسالتك لم تصلنى إلا من ساعة واحدة — وما أقساها من ساعة — لقد كنت أرجو أن تقضيها معى فى هذا المكان

ليست باريس بعد أن خلت منك إلا معرضاً للموتى . لقد كانت باريس قبل أن أعرفك ، وكنت أظنها جنة العالم ، أما الآن فقد أصبحت صحراء موحشة لا أنيس فيها ولا رفيق ، إنها كميناء الساعة خلت من عقاربها

---

(١) Sarah Bernhardt ، هو الاسم المسرحى لروزين برنارد الممثلة الفرنسية (١٨٤٤ — ١٩٢٣)

(٢) Victorien Sardou (٣) Fedore

إن الصور التى كانت منطبعة فى ذاكرتى قبل أن أعرفك قد انمحت كلها وحلت مكانها الساعات البهيجة التى قضيناها معاً .

ولست أستطيع الآن أن أعيش بعيدة عنك ، إن ألفاظك وإن قست تبدد جميع متاعب العالم وتحيطنى بالسعادة ، وهى التى غذت فنى وهزته فى مهده الوثير ، وهى الآن لازمة لى لزوم الشمس والهواء .

ولا تقل حاجتى إليها عن حاجتى إلى الطعام ، وأنا ظمأى لها أشد الظمأ ، فألفاظك غذائى وأنفاسك خمرى وأنت كل شىء لى . سارتك

***

وقطعت إحدى ساقى سارة برنهارد بعد أن بلغت سن السبعين ، ولكنها لم تنقطع عن الطواف فى أوربا وأمريكا . ومثلت للسينما قبيل وفاتها فى الثامنة والسبعين من عمرها . وتوفيت فى لندن عام ١٩٢٣ ، وبعد وفاتها هى وساردو نشرت رسائل حبهما .

بين پيوتر إليتش تشيكوفسكى(١)

وندچدا(٢) فيلارتڤنا ڤن مك نصيرته وحبيبته

لما نشرت كترين درنكر بون(٣) وبربارا ڤن مك(٤) فى فبراير من عام ١٩٣٧ كتابهما المسمى « صديق محبوب » والذى جمعتا فيه رسائل تشيكوفسكى ، عرف العالم لأول مرة تفاصيل « قصة من أعجب قصص الحب فى العالم وأكثرها إثارة للأشجان » . فقد حوت هذه الرسائل الحزينة ما كان بين الموسيقى الروسى العظيم ونصيرته « التى هامت بحبه وبحب موسيقاه ، والتى أعانته فى السراء وواسته فى الضراء ، وكانت له أما رؤوما تحنو عليه وتكتب له فى كل يوم تقريبا ، وتنظم له حياته اليومية ، والتى دام حبها ودامت صداقتها له ثلاثة عشر عاما كاملة لم تتحدث إليه فيها وجها لوجه » . وفى وسعنا أن نتبين فى عواطف الكاتب الثائرة ذلك السر — الكامن أيضا فى موسيقاه نفسها — الذى جعل من هذا الرجل المولع بفنه إنسانا بائسا حزينا .

وكان تشيكوفسكى فى شبابه شابا وسيما رشيقا سطحى التفكير مستهترا ، ولم يكن أحد من أسرته من المولعين بالموسيقى ، وكانت هذه الأسرة تريد أن تنشئه للاشتغال بالقانون .

ولما بدأ هو وندچدا ڤن مك يتراسلان ، كان هو فى السادسة والثلاثين من عمره وكانت هى فى الخامسة والأربعين . وكانت سيدة أرستقراطية مزهوة بنفسها ترملت من زمن قريب واعتزلت مباهج الحياة ، فلما سمعت موسيقاه أعجبت بها وهامت بحبه .

وكان تشيكوفسكى وقتئذ رجلا شديد الحياء ، وكان أكبر أسباب حيائه خوفه أن يعرف العالم ما كانت تنطوى عليه حياته من سر عميق ، وهو عجزه عن أن يحب النساء . أما السيدة ڤن مك التى أعجبت به وهامت بحبه فكانت أما لاثنى عشر ولدا .

وكان واسطة التعارف بينهما بطريق التراسل رجل من كبار الموسيقيين يدعى

---

(١) Piotr Ilyich Tchaikovsky
(٢) Nadejda Philaretovna von Meck
(٣) Catherine Drinker Bowen
(٤) Barbara von Meck

ر بنشتين[١] ، وقد أوضحت له أنها لا ترغب فى لقائه كما لا يرغب هو فى لقائها ، وقال كلاهما إنه يحس بأن هذا البعد يزيد قلبيهما قربا . وهكذا بدأت هذه الصداقة العجيبة .

ولكن تشيكوفسكى لم يلبث أن خدع وغلب على أمره وزوج مرغما من إحدى تلميذاته المسماة أنطونيا إيفانوفا ميلوكوفا[٢] التى أعجبت هى الأخرى به . وذلك أن أنطونيا بعثت إليه على ما يظهر برسالة عاطفية أجاب عنها بمثلها ، ثم خشى عاقبة فعلته فحاول من فوره ألا يشجعها فى عواطفها ، ولكنها هددته بأن تقتل نفسها ، و بلغ من أمره أن اعترف لها بما كان يتصف به من شذوذ جنسى ، ولكنها لم تيأس ، فلم ير بدا من الخضوع لما أرادته ، وتزوجا فى الثامن عشر من شهر يوليو سنة ١٨٧٧ .

و بعد أن أقام مع زوجته أسبوعين لاقى فيهما الأمرين حاول أن يتخلص من حياته بالانتحار غرقا ، لكنه لم يوفق . ثم استطاع آخر الأمر أن يفر منها مذعوراً مشرد العقل مستعينا بالمال الذى أمدته به السيدة فن مك . وأبلغ أخو تشيكوفسكى وأحد أصدقائه أنطونيا أن تشيكوفسكى لن يعود إليها أبداً فاختلت موازين عقلها ، ولم تكن من قبل سليمة ، ولكنها عاشت بعدئذ أربعين عاما وماتت فى أحد مستشفيات الأمراض العقلية سنة ١٩١٧ .

ثم وظفت السيدة فن مك لتشيكوفسكى معاشا سنويا قدره ستة آلاف روبل ، فبعثت فيه هذه الهبة الكريمة فيضا من النشاط كانت خاتمته السمفونية الرابعة[٣] التى أهداها إلى السيدة فن مك . و بعد عامين من ذلك الوقت بعثت إليه بالرسالة التالية :

— ٤٤ —

« . . . هل تعرف مقدار حبى ؟ . »

بريلوف .

فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩

يوم الجمعة الساعة الثامنة صباحا .

يحزننى يا أعز الأصدقاء ما تعانيه فى بطرسبرج ، ولكنى أرجو أن تعذرنى إذا قلت

---

(١) Rubinstein

(٢) Antonia Ivanova Milukova

(٣) The Fourth Symphony

إنى يسرنى أن تكون شديد الحنين إلى بريلوف — ولست أدرى هل تستطيع أن تدرك كيف أغار عليك على الرغم من أننا لم نلتق قط . هل تعرف أنى أغار عليك غيرة أستحق عليها أشد اللوم ، فهى غيرة المرأة على الرجل الذى تحبه ؟ هل تعرف أن نبأ زواجك كان شديد الوقع علىّ ، وأنى أحسست كأن شيئاً فى داخل قلبى قد تحطم ؟ لقد كان تفكيرى فى أنك قريب من تلك المرأة مؤلما لى أشد الألم ، ولم أكن أطيق صبرا عليه .

وهل تعرف مقدار خبثى ؟ لقد انشرح صدرى حين عرفت أنك لم تكن سعيدا معها . لقد لمت نفسى على هذا الشعور ، ولست أظن أنى كشفت عنه بطريقة ما ، ولكنى مع ذلك لم أستطع التخلص منه نهائيا . ذلك أنه شىء لا يخضع لإرادة الإنسان .

لقد كرهت تلك المرأة لأنها لم تسعدك ، ولو أنك كنت سعيداً معها لكرهتها أكثر من ذلك ألف مرة . فقد كنت أرى أنها سلبتنى ما كان يجب أن يكون لى وحدى ، سلبتنى حقى ، لأن حبى إياك لا يعادله حبى لأى إنسان غيرك ، ولأنى أقدرك أكثر مما أقدر أى شىء فى العالم .

فإذا كان لا يسرك أن تعرف هذا فاصفح عن اعترافى الذى اضطررت إليه اضطرارا . إن سبب هذا الاعتراف هو السمفونية . ولكنى أرى أن من الخير لك أن تعرف أنى لا أهيم فى بيداء الخيال كما تظن . هذا إلى أن الاعتراف لا يغير من علاقتنا ، ولست أريد أن أغير شيئاً منها ، وأحب أن أثق بأن شيئاً منها لن يتغير حين تقترب حياتى من نهايتها ، وأن إنساناً لن … ولكن ما لى ولهذا ؟ إن هذا القول ليس من حقى . فسامحنى وانس كل ما قلته . إن عقلى مضطرب .

أرجوك مرة أخرى أن تسامحنى وأن تثق أنى لا أشعر بشىء من الألم ، ولا أحتاج إلى شىء قط .

تحياتى إليك أيها الصديق العزيز ، انس هذه الرسالة ولكن لا تنس من تحبك من كل قلبها .

ن . فن مك

حاشية : هل تتفضل فتخبرنى بوصول هذه الرسالة إليك ؟

وردت تشيكوفسكى على هـذه الرسالة برسالة أخرى حوت من الإخلاص ورقة الشعور ما تحويه موسيقاه نفسها :

— ٤٥ —

« ... حركات نفسى الخفية البعيدة الغور »

جرنكينو .

فى العاشر من اكتوبر سنة ١٨٧٩

ليس فى وسعى أن أصف لك سرورى حين رأيت خطك وعرفت أننـا قد عدنا إلى التراسل . وقد نسى چرچنسن[١] أن يبلغنى أن ألحان البيـان التى فى سمفونيتنا قد نشرت آخر الأمر ، ولهذا كان ما ذكرته عنها فى رسالتك أول نبأ تلقيته عن هـذا الحادث ، وقد اغتبطت أشد الاغتباط لأنك راضية عن هذه الألحان ، وهى فى الحق ألحـان جيدة متقنة غاية الإتقان .

أما الموسيقى نفسها فقد كنت أعرف من قبل أنك ستحبينها ، وهل يمكن أن يكون الأمر غير هذا ؟ لقد كنت أكتبها وأنت على الدوام حاضرة فى فـكرى . نعم إن صـلتى بك لم تكن وقتئذ قوية كما هى الآن ، ولـكننى حتى فى ذلك الوقت كان يخالجنى شـعور غامض بأن لا أحد غيرك فى هذا العالم يستطيع أن يستجيب لحركات نفسى الخفية البعيدة الغور كما تستجيبين أنت لها . ولم تُهد إلى أحد قطعة موسيقية بروح أكثر جداً وصـدقاً من الروح التى أهديتُ بها السمفونية إليك . فهى لا تعبر عن مشاعرى وحدى بل تعبر عن مشاعرك أنت أيضاً ، لأنها لم تكن من عمـلى بل من عملنا معاً ، وستبقى أبد الدهر أحب الأعمال إلىّ ، وستظل هى الأثر الخالد من ذلك الوقت الذى أصاب فيه عقلى مرض خبيث خطير أخذ يزداد شـدة على مر الأيام ، وحلّ بى ما لا أطيقه من الألم والحزن واليأس ، ثم لاح لى فجأة ضياء الأمل ، وأشرقت علىّ شمس السعادة فى صورة الإنسان الذى أهديتُ إليه السمفونية .

(١) Jurgenson

و إنى لترتعد فرائصى حين أفكر فيما كان يؤول إليه أمرى لو لم تهيئك المقادير إلىّ . ذلك أنى مدين لك بكل شىء : بحياتى ، وبالفرصة التى أتيحت لى لأن أسعى لنيل حريتى — ذلك المطمح الذى كان أبعد من مناط النجم لى — وذلك الحظ السعيد العظيم الذى لم يلح قط لخاطرى من قبل ولا فى الأحلام

ولقد قرأت خطابك ولسانى يلهج بالشكر لك ، وقلبى يفيض بالحب الذى لا يمكن التعبير عنه بأية وسيلة غير الموسيقى ، ولعلى أستطيع فى يوم من الأيام أن أعبر عنه بتلك الوسيلة !

صديقتى العزيزة : متعك الله بالهناءة ، إنى أرجوها لك أكثر مما أرجوها لنفسى ، إنى حين قرأت ما سببته لك سمفونيتنا من الأرق ليالى طوالا ، أحسست بأن قلبى يتمزق . ولست أريد بعد الآن إلا أن تكون موسيقاى منبع غبطة لك وسلوى ، وأرجو لك من صميم قلبى سعادة وطمأنينة .

المخلص لك

ب . تشيكوفسكى

* * *

ودامت صداقة التراسل هذه ثلاثة عشر عاماً ، ثم انقطعت فجأة ، فمنعت نادجدا فن مك عن تشيكوفسكى معاشه السنوى على غير انتظار فى اكتوبر سنة ١٨٩٠ معتذرة عن هذا العمل بعذر كاذب هو العسر المالى . ولعل السبب الصحيح أنها سمعت آخر الأمر « بالداء الوبيل » الذى كان صنيعتها مصابا به ، أو لعل موت ابنها ومرضها قد أثرا فى نفسها ، أو لعل هناك سبباً غير هذا وذاك لم تكشف عنه رسائلهما . وعرف تشيكوفسكى ذلك فآلمه أشد الألم ، ورحل فى اليوم التالى إلى نيويورك فى رحلة كانت فى ظاهرها ومن الناحية الموسيقية رحلة موفقة ، ولكنه وُجد قبل أول حفلة أقامها يبكى بمفرده بكاء مرا فى الفندق الذى نزل فيه ... وأنشأ فى آخر سنى حياته سمفونيته السادسة ؛ ولما حضرته الوفاة فى عام ١٨٩٣ وهو فى الثالثة والخمسين من عمره (وقبل موت نصيرته بأشهر قلائل) سُمع يهمس اسم ندجدا ويلومها على فعلتها

بين جى ده موپسان وماری بشكرتسف

كانت مارى بشكرتسف[1] فتاة روسية موهوبة احتضرت فى الرابعة والعشرين من عمرها؛ ولو أنها عاشت لكانت من نابغات الكاتبات الأوربيات. كانت مارى فتاة طيبة القلب، حاضرة البديهة، معتلة الصحة، دائمة التفكير، يعجب كثيرون من القراء برسائلها ويومياتها. وهذه الرسائل واليوميات تكشف عن طبيعتها المعقدة وعن أحوال الطبقات العليا فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر، من النواحى الاجتماعية والأدبية والفنية.

وأخذت مارى تكتب يومياتها وهى فى الثانية عشرة من عمرها، وبدأت فى الوقت نفسه تكتب رسائل حب بأسماء مستعارة للكثيرين من العظماء الذين وقع عليهم اختيارها، ومن بينهم الملك فرنسيس الثانى المخلوع ودوق هملتن. وقد نجحت أيضا بعض النجاح فى التصوير والموسيقى، ولكن شهرتها فى الوقت الحاضر تقوم على رسائلها التى بعثت بها إلى العظماء من معاصريها.

وكتبت مارى قبيل وفاتها إحدى هذه الرسائل إلى جى ده موپسان[2]، وكان نجمه وقتئذ قد التمع فى سماء الأدب، وكان فوق ذلك قد غزا كثيرا من قلوب المعجبات به من الفتيات والسيدات. ووقعت الرسالة بإمضاء مستعار هو الآنسة هيستنجس[3]، الاسم الذى اختاره هو من قبل عنوانا لإحدى قصصه التى نشرت فى صحيفة الجولوا[4]، والتى اختار لها فيما بعد عنوان «الآنسة هريت[5]».

— ٤٦ —

«... يبعث فى آمالا لذيذة فى أنه أصبح أمينة أسرار روحك الجميلة...»

سيدى:

إنى أقرأ كتبك، ولعل فى وسعى أن أقول إنى أطرب لقراءتها، ذلك أنك تجد فى الطبيعة التى تصورها بإخلاص لا يقل عن إخلاص الإنسان لعقيدته الدينية إلهاما رفيعا ساميا

---

(۱) Marie Bashkirtseff
(۲) Guy de Maupassant
(۳) Miss Hastings
(٤) Le Gaulois
(٥) Miss Harriet

بحق ؛ وأنت تؤثر فى قرائك بما يسرى فى كتاباتك من شعور إنسانى عميق يخيل إلينا معه أننا نجد صورنا مرسومة فى صحف كتبك ، فنحبك لأننا نحب أنفسنا . فهل ترى أن هذا ثناء لا معنى له ؟ إن رأيت هذا فأرجو أن تغض النظر عن هذا العيب لأن فيه مع ذلك كثيرا من الإخلاص .

وفى وسعك أن تعرف أنى أريد أن أحدثك عن أشياء لطيفة عجيبة ، ولكنى أجد بعض الصعوبة فى أن أحدثك عنها كلها مرة واحدة بهذه الطريقة ؛ ويزيد فى أسفى لهذا العجز أنك قد بلغت من العظمة مبلغا يبعث فىّ أمالا لذيذة فى أن أصبح أمينة أسرار روحك الجميلة ، لأنى أظن على الدوام أن روحك جميلة بحق .

فإذا لم تكن روحك جميلة ، وإذا « كانت هذه الأشياء مما لا يروقك » ، فإنى أولا سيؤسفنى هذا من أجلك ، وسأنظر إليك بعدئذ نظرتى إلى رجل أديب فحسب ، ولا أعود بعدئذ أفكر فى هذه المسألة .

ولقد كنت طوال السنة الماضية أتوق إلى الكتابة إليك ، بل إنى هممت فعلا أن أحقق هذه الرغبة ولكنى ... كنت أظن أحيانا أنى أبالغ فى تقدير مواهبك ، وأن لا داعى لتحمل هذه المشقة . ولكنى فوجئت من يومين بنبأ فى صحيفة الجولوا يقول إن إنسانا قد شرفك برسالة يثنى فيها عليك ، وإنك بحثت عن عنوان هذا الإنسان الظريف لترد على رسالته . فبعث هذا الغيرة فى نفسى على الفور ، وبهرتنى مواهبك الأدبية من جديد ، و — وها هى ذى رسالتى .

والآن أرجو أن تسمح لى بأن أقول لك إنى سأخفى عنك شخصيتى على الدوام ، بل إنى لا أريد حتى أن أراك عن بعد — فقد لا يسرنى وجهك — ومن يدرى ؟ إن كل ما أعرفه عنك الآن أنك فى سن الشباب وأنك أعزب ، وهما شرطان أساسيان لكل حب حتى الحب عن بعد .

ولكن من واجبى أن أخبرك أنى فاتنة ساحرة ، وما من شك فى أن هذه الفكرة الجميلة ستدفعك دفعا إلى أن ترد على رسالتى ، إذ يخيل إلىّ أنى لو كنت رجلا لما رغبت

فى أن يكون بينى و بين إنجليزية عجوز شمطاء اتصال من نوع ما ، ولو كان هذا الاتصال مقصورا على المراسلة ، مهما تكن آراء

الآنسة هيستنجس
محطة بريد مدلين (١)

وأثارت هذه الرسالة فى نفس ده موپسان الرغبة الشديدة فى معرفة كاتبتها ولذلك أجاب عنها بالرسالة التالية :

— ٤٧ —

« أى سحر تضفيه الرسائل الخفية على ما بين الناس من صلات »

سيدتى :

لست أشك فى أن رسائلى لن تكون هى الرسالة التى كنت تتوقعين صدورها منى . وأحب بادئ ذى بدء أن أشكر لك عطفك وثنائك علىّ ثم نتحدث بعدئذ كما يجب أن يتحدث العقلاء .

إنك تطلبين أن تكونى أمينة أسرارى ، فبأى حق تطلبين هذا ؟ إنى لا أعرفك و لِمَ أفضى إليك — وأنت إنسان لا أعرفه وقد لا يكون عقله ومزاجه وما إليهما منسجمة مع ما يتصف به عقلى — بما قد أفضى به سرا أو جهرا إلى صديقاتى من النساء ؟ أليس هذا مسلك الإنسان الأبله والصديق غير الوفى ؟

وأى سحر تضفيه الرسائل الخفية على ما بين الناس من صلات ؟ أليس كل ما فى الحب — الحب الطاهر — بين الرجل والمرأة من جمال ينبعث معظمه من سرورهما حين يلتقيان و يتحادثان ، وحين يستطيع الإنسان أن يصور لصديقه صورة صاحبه الماثلة بينه و بين الصفحة التى يكتب فيها رسالته ؟

وكيف يستطيع الإنسان أن يصور نفسيته ومشاعره الخفية إلى إنسان لا يعرف شيئاً عن شكله أو لون شعره ، أو ابتسامته أو ملامح وجهه ؟

وأنت تشيرين إلى رسالة تلقيتها من وقت غير بعيد . لقد جاءتنى هذه الرسالة من رجل

(١) P. O. Satation of Madeleine

يستشيرنى فى أمر من الأمور ، فانظرى الفرق . ولنعد الآن إلى الرسائل التى تبعث بها نساء مجهولات . لقد تلقيت من هذه الرسائل فى العامين الماضيين حوالى خمسين أو ستين رسالة ، فكيف أستطيع أن أختار من بين كاتبات هذا العدد الكبير من النساء من تكون أمينة أسرار روحى الجميلة على حد قولك ؟

أما إذا رغبن فى أن يكشفن عن حقيقتهن ، وأن نتعارف كما يتعارف الناس فى الجتمعات المحترمة ، فإن روابط الصداقة والثقة تنشأ حينئذ بيننا ، وإلا فكيف أترك من أعرفهن من صديقاتى الفاتنات ، وأفضل عليهن صديقة قد تكون فاتنة ولكنها غير معروفة لى ، أى أنها قد لا توافقنى من حيث منظرها أو عقليتها ؟ ليس هذا كله من الشهامة فى شىء ، أليس كذلك ؟ وإذا ألقيت بنفسى أمام قدميك فهل تعتقدين أنى مخلص فى محبتى الروحية لك ؟

أرجو يا سيدتى أن لا يسوءك منطق رجل على أكثر منه شاعرا ، وثقى أنى الشاكر الوفى .

جى ده موپسان

حاشية : أرجو أن تصفحى عما فى رسالتى من ترميج فإنى لا أستطيع أن أكتب من غير أن أرمج ووقتى لا يتسع لإعادة كتابتها .

* * *

ودام هذا التراسل زمانا . فكتبت إليه مارى بشكرتسف ردا على هذه الرسالة سخرت فيه من الرسائل الستين التى جاءته من سيدات لا يعرفهن ومما جاء فيها : « إنك لست محبوبا كما كنت أظن ، وإنى لأرفض أن أكون أنا الحادية والستين لا أكثر » وما لبثت هذه الرسائل أن كشفت عن كثير من أحوالهما . فقد اعترف موپسان فى واحدة منها أنه يكتب ليطرد عن نفسه الملل ، وحاول عبثا أن يستدر عطف «الآنسة هيستنجس» ، وأبت هى أن تعتقد أنه جاد فيما يقول . وادعى فى أخرى أنه يظن أن « الآنسة هيستنجس » رجل لا فتاة ، وسرعان ما وافقته هى على هذا الظن .

وأخيرا سئمت مارى الأمر كله ، وأرادت أن تمتنع عن الكتابة ، ولكن موپسان ،

وقد زاد اهتمامه بالموضوع كله ، جدد جهوده للكشف عن حقيقة هذه الكاتبة ، غير أنها أبت أن تكشف له عن نفسها .

وكتبت فى آخر رسالة لها تقول بصراحة هى إحدى مميزاتها : « إن ما يحيط بك من ظروف على هذه الأرض لا يهمنى قط ، فهل تهمك ظروفى أنا ؟ وانفرض أن ذوقك قد فسد فلم تجدنى فتاة عجيبة ؟ فهل تظن أنى أحب ذلك منك مهما خلصت نياتى ومقاصدى؟ » وبهذا اختتمت سلسلة المراسلات العجيبة . ومن الأقاصيص الشائعة أن مارى قابلت موپسان قبيل وفاتها . وقد شيدت كنيسة صغيرة فى پاسى[١] وسميت باسمها ، كما سمى به أيضا شارع من شوارع نيس[٢] .

---

(١) Passy (٢) Nice

لوى باستير[1] يعلن نجاحه العظيم في تجاربه على الجمرة الخبيثة

[رسالته إلى أبنائه]

« إن العلم سيكد كدا متواصلا لإطالة الحياة ، وهو يعمل فى ذلك طوعا لقانون الإنسانية العام » .

هذا ما قاله لوى باستير الذى عرف كيف يطيل الحياة . وسيظل هذا الرجل العظيم مثلا أعلى للفضيلة الإنسانية من جميع نواحيها . وكيف لا يكون كذلك وقد كان فى حياته باحثاً قديراً ، يعطف على البائسين المعذبين ، كما كان قوى الشعور بدينه ، صادق الحب لوطنه ، نبيلا كريماً فى حياته ، مخلصاً لعلمه . وقد أحاطته هذه الصفات كلها بجو من الحب والإجلال منقطع النظير . ولباستير كشوف علمية جمة نذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : علاج مرض دودة القز ، وكلرا الدجاج ، والجمرة الخبيثة ، وسعور الحيوانات ، وأسباب التخمر ، ووسائل حفظ الأطعمة من التلف . وقد وضعته هذه الكشوف وغيرها فى المكان الأول بين علماء الجراثيم . وظل باستير يواصل أبحاثه رغم ما كان يلقاه من مقاومة شديدة من أصدقائه وأعدائه فى جميع العلوم ، حتى استطاع أن يشهد ثمرة جهاده المضنى العظيم .

ولما شرع يجرى تجاربه ويقوم بأبحاثه لمعرفة سبب مرض الجمرة الخبيثة ووسائل علاجها ، وهو المرض الذى كان يقضى فى كل عام على ملايين الضأن والماشية فى جميع أنحاء العالم ويسبب خسائر عظيمة للزراع ، سخر الناس منه ولم يصدقوا أقواله . وبعد أن قضى فى تجاربه هذه عدة شهور كتب الرسالة التالية إلى أبنائه يعلن لهم فيها ما وصل إليه من النتائج فى وقاية الماشية .

(١) Louis Pasteur

— ٤٨ —

« وتسرو البهجة المعمل »

فى الثانى من شهر يونيه سنة ١٨٨١

اليوم يوم الثلاثاء لا أكثر ، ومع هذا فأنا أكتب إليكم . وسبب ذلك أننا قد وصلنا الآن إلى نتيجة عظيمة ؛ وهذا النبأ قد أعلنته فى هذه الساعة برقية من ملون[١] . ذلك أننا لقحنا فى يوم الثلاثاء الماضى الحادى والثلاثين من شهر مايو جميع الغنم ما طعم منها قبل وما لم يطعم — بجراثيم حمى الطحال الحادة . ولم يكد يمضى على عملنا هذا حتى الآن ثمان وأربعون ساعة . وتقول البرقية إنه لن تنقضى الساعة الثانية بعد الظهر حتى تكون جميع الغنم التى لم تطعم من قبل قد نفقت ، فقد مات منها حتى صباح اليوم ثمانية عشر والباقى منها يحتضر ، أما التى طعمت من قبل فكلها سليمة . وجاء فى ختام البرقية تلك العبارة : « نجاح يذهب بالعقل » ، ومرسلها هو الجراح البيطرى مسيو روسنيول[٢]

ولم يحن الوقت بعد لإصدار حكم قاطع فى هذه المسألة ، فقد تمرض الغنم المطعمة باللقاح الواقى ، ولكن إذا سارت الأمور على أذلالها كان لكم أن تستيقنوا حين أكتب إليكم فى يوم لأحد المقبل أن هذه الغنم ستحتفظ بصحتها ، وأن نجاحنا سيكون بعدئذ نجاحاً مدهشاً عظيماً . وقد ظهرت لنا باكورة النجاح فى يوم الثلاثاء ، وذلك أن اثنين من الأغنام الخمسة والعشرين التى لقحت بالطعم الواقى واثنين من الخمسة والعشرين التى لم تلقح به لقحت جميعها بميكروبات قوية ، فلما أقبل الزوار جميعاً فى يوم الثلاثاء ومن بينهم مسيو تسران ، ومسيو باتينو حاكم مقاطعة السين والمارن ، ومسيو فوشيه ده كرى[٣] وأعضاء من مجلس الشيوخ وغيرهم ، وجدنا أن الخروفين اللذين لم يلقحا بالطعم الواقى قد ماتا ، أما اللذان لقحا به فقد ظلا سليمين .

وقلت يومئذ لواحد ممن كانوا حاضرين من الجراحين البيطريين : ألم أقرأ لك مقالا موقعاً باسمك تقول فيه بمناسبة كشف ميكروب اللعاب الصغير القوى ، ها كم الآن

---

(١) Melun   (٢) M. Rossignol

(٣) Foucher de Careil و Tisserand و Patinot

ميكروباً جديداً ، وعما قليل ستبلغ عدتها مائة ؟ » . فأجاب من فوره جواباً صريحاً :
« ولكنى رجل تاب وأناب » . فقلت له : « هل لى أن أذكرك بما جاء فى الإنجيل[١] :
أقول لكم إنه هكذا يكون فى السماء ، فرح بخاطئ واحد يتوب ، أكثر مما يكون بتسعة
وتسعين صديقاً لا يحتاجون إلى التوبة » :

وقال جراح بيطرى آخر من الحاضرين : « سآتيك برجل آخر هو مسيو كولن[٢] »
فأجبته : « لقد أخطأت ، إن مسيو كولن يعارض حيًّا فى المعارضة ، وهو لا يصدق ما نقول
لأنه لا يريد أن يصدق ، فعليكم أن تداووه أولا من مرض العصابية وليس هذا فى مقدوركم ! »
إن البهجة تسود المعمل والبيت ولكم أن تغتبطوا يا أولادى .

* * *

وقد قال تومس هنرى هكسلى[٣] فى يوم من الأيام إن القيمة المالية لكشوف باستير
العلمية الخاصة بمقاومة الجمرة الخبيثة وكلرا الدجاج تزيد على قيمة الغرامة الحربية الضخمة
التى فرضتها ألمانيا على فرنسا بعد الحرب الفرنسية البروسية . على أن باستير لم يقنع بما نال
من نصر عظيم وتقدير منقطع النظير ، بل أخذ يعمل فى علاج مرض الكلب حتى قضى
هذا العمل على حياته . ثم أنشئ معهد باستير لتطبيق هذا العلاج ومواصلة البحث .

وقال باستير يوم افتتاح المعهد فى معرض المفاضلة بين العلم والحرب : « إن العلم يجعل
لحياة الشخص الواحد قيمة أعظم من جميع الانتصارات الحربية ، أما الحرب فتضحى بحياة
مئات الآلاف لتحقيق مطامع فرد واحد »

ولما حضرت باستير الوفاة فى عام ١٨٩٥ بعد أن جاوز السبعين من عمره التفت إلى
طلابه الأوفياء المخلصين وقال لهم : « أين أنتم جميعا ؟ ما ذا تعملون ؟ هيا إلى العمل »

---

(١) لوقا : الآية رقم ٧ الإصحاح الخامس عشر
(٢) M. Colin
(٣) Thomas Henry Huxely

إيفان ترجنيف وهو على فراش الموت يتوسل إلى ليو تولستوى أن يعود إلى أعماله الأدبية

فى عام ١٨٤٥ حدث أمر غريب لنقولا الثانى قيصر الروس، وهو ذلك الرجل الذى بذل غاية جهده ليكسب لنفسه لقب « القيصر الحديدى » . ذلك أنه قرأ وصف ما يعانيه جنوده فى حصار سبستپول ، و بلغ من تأثره بهذا الوصف أن أمر بأن يعفى كاتبه الشاب من الخدمة العسكرية فى الميدان لأن حياته أثمن من أن تضحى بها روسيا . وهكذا ذهب ليوتولستوى إلى سان بطرسبرج فى إجازة ، وفيها قابل إيڤان ترجنيف[1] لأول مرة . وكان أولهما فى السادسة والعشرين من عمره وترجنيف يكبره بعشر سنين و يتزعم الأدباء الروس فى وقته . وأصبح الرجلان من ذلك الوقت صديقين رغم أنفهما ، ولعل الذى فرق بينهما هو تلك السنوات العشر التى تفصل بين سنيهما . وكتب ترجنيف إلى صديق له يقول فى هذا : « يؤسفنى أنى لا أستطيع الاقتراب من تولستوى أكثر مما اقتربت منه — إن ما بين أفكارنا من تعارض ليقف فى سبيل هذا الاقتراب »

والحق أن كل ما كان بينهما من تشابه هو أنهما كانا يستمدان أدبهما من الحياة الروسية . وكان كلاهما ينظر إليها بطبيعة الحال نظرة تخالف نظرة صاحبه . فأما ترجنيف فكان ينظر إلى الحياة الروسية على حقيقتها ، لم يخدع نفسه فيها قط ، وأما تولستوى فقلما كان ينظر إليها دون أن يُخدع فيها ؛ و يؤثر عن تولستوى أنه قال عن ترجنيف : « إنى كلما تقدمت بى السن قل حبى له » .

وفى عام ١٨٦١ شجر النزاع بين تولستوى وترجنيف ، ولاح وقتا ما أن لا سبيل إلى فض هذا النزاع إلا أن يتبارز الأديبان . على أنهما لحسن الحظ لم يتبارزا ولكن الخصام دام بينهما أربعة عشر عاما كاملة . ثم مرض تولستوى وظن أنه لن يشفى من مرضه ، فكتب إلى ترجنيف يستسمحه ، ورد عليه هذا رداً كريما قال فيه : « يسرنى أعظم

---

(١) Ivan Turgenev (٢) Leo Tolstoi

السرور أن أقول إنى على استعداد لأن أجدد عهد صداقتنا القديمة ، وأن أصافح اليد التى مددتها إلىّ » . وقضى فى ذلك العام نفسه عدة أيام مع تولستوى ، ووصفه وقتئذ بقوله إنه كان « شديد الصمت ، ولكنه ارتقى كثيرا عن ذى قبل » . وكان صلحهما صلحا حقيقيا لا شك فيه ، وإن لم يكن بينهما شىء من الحب .

وقضى ترجنيف معظم سنى حياته الأخيرة فى خارج روسيا ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى ما لقيته بعض أعماله الأدبية فيها من إعراض ، كما يرجع بعضه إلى رغبته فى أن يكون قريبا من المغنية العظيمة فيادرو جارشيا[1] التى كان يعبدها عبادة . وفى عام ١٨٨٣ تبدلت الحال غير الحال ، وحدث عكس ما حدث فى عام ١٨٦١ ؛ فقد مرض ترجنيف واتجهت أفكاره إلى تولستوى ، وكان قد طال انقطاعه عن الأعمال الأدبية ، لما كان مصابا به وقتئذ من اضطرابات نفسية ، فكتب إليه ترجنيف وهو على فراش المرض الرسالة الآتية :

— ٤٩ —

« إنى جد فخور بأنه كنت من معاصريك ... »

[بوجفال فى ٢٧ و ٢٨ من شهر يونية سنة ١٨٨٣]

صديقى الطيب العزيز ليوف نقولا يفتش :

لم أكتب إليك من زمن طويل لأنى كنت ولا أزال فى واقع الأمر على فراش الموت ، وليس ثمة أمل فى أن أستعيد صحتى ، بل إن هذا الأمر غير خليق بأن يفكر فيه . وفى الحق أنى لم أكتب إليك إلا لأخبرك أنى جد فخور بأن كنت من معاصريك ، وأن أرجوك رجاء حارا هو آخر ما أرجوك فيه وهو أن تعود يا صديقى إلى أعمالك الأدبية ! إن هذه الموهبة التى وهبتها قد جاءتك من مصدر الأشياء جميعها كما تعرف . وكم أكون سعيدا إذا أيقنت أن رجائى هذا سيكون له أثر فى نفسك !

إن سراج حياتى يوشك أن ينطفئ — بل إن الأطباء أنفسهم لا يعرفون ماذا يسمون مرضى ... فيقولون إنه مرض عصبى مِعدى نقرسى . وقد عجزت عن المشى والأكل ، وامتنع

---

(١) Pauline Viadrot Garcia

عنى النوم . وما ذا أستطيع أن أفعله بعد ؟ إن مجرد التحدث عن هذا المرض ليضايقنى ويقض مضجعى .

أتوسل إليك يا صديقى يا كاتب أرض الروس العظيم أن تستجيب لرجائى .

* * *

ومات ترجنيف بعد خمسة أسابيع من ذلك الوقت ، واستجاب تولستوى لدعوته وإن لم يستجب لها من فوره . فكتب بعد ذلك روايتى « البعث »[١] « ما هو الفن ؟ »[٢] . وظهر هذا الكتاب الأخير فى عام ١٨٩٨ . وما من شك فى أن القارئ النزيه لا يسعه بعد قراءته إلا أن يتذكر قول ترجنيف قبل أربعين سنة من ذلك الوقت حين كانت صداقته مع تولستوى توشك أن تنقطع : « لو أن تولستوى لا يتفلسف لأحسن إلى الناس وإلى نفسه »

(١) Resurrection

(٢) What is Art

ب . ت . بارنم يعرض عملا على القائد يولسيز . س . جرانت

حلت بالقائد يولسيز . س . جرانت[١] فى عام ١٨٨٤ ضائقة مالية شديدة وهو فى الثانية والستين من عمره بعد سبع سنين من نهاية رياسته الثانية للجمهورية الأمريكية . وذلك أن إفلاس أحد المصارف الأمريكية حمله دينا يبلغ مائتين وخمسين ألف ريال أصبح مدينا بها إلى و . ﻫ . فندربلت[٢] . ولم يجد لديه وسيلة لأدائها إلا أن ينزل لدائنه عن جميع أملاكه وأملاك زوجته . ولما سمع بذلك « أكبر رجال المعارض فى العالم » الذى يسمى نفسه « أمير المحتالين » ، وكان قد قابله من قبل ، عرض عليه بنفسه العرض الآتى :

— ٥٠ —

« . . . سأعطيك مائة ألف ريال نقدا . . . »

نيويورك فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٥

إلى القائد ى . س . جرانت رئيس جمهورية الولايات المتحدة مرتين ... الخ

أيها السيد المبجل ؛ إن العالم كله يجلك ويعزك ، والناس كلهم يرغبون فى أن تعيش سعيدا مستريحا من المتاعب والهموم . وهم وإن أعجبوا بشهامتك التى دفعتك إلى أن ترفض المبلغ الكبير الذى عرضه عليك أصدقاؤك من عهد قريب ، فإنهم يرغبون فى أن يروك وقد استمدت استقلالك المالى من أشرف السبل . وقد قرأنا كلنا عما أهدى إليك بعد انتصاراتك من تذكارات قيمة فريدة فى نوعها ، وإنا لنرغب جميعا فى أن نرى بأعيننا ما حباك به الملوك والأمراء والأفراد فى جميع أنحاء العالم من دلائل الحب والإجلال — وتلك رغبة محمودة من غير شك .

فإذا سمحت لبنى جنسك من رجال ونساء أن يروا هذه الشواهد الناطقة بفضلك ، فإنك تسدى إليهم بذلك جميلا مخلدا ، وتنجو فى الوقت نفسه مما أنت فيه من متاعب بأحسن الوسائل وأشرفها ؛ ذلك أنى أعطيك مائة ألف ريال نقدا ونسبة معينة مما أحصل عليه من

---

(١) Ulysses S. Grant (٢) W. H. Vanderbilt

الأرباح إذا سمحت لى بأن أعرض هـذه الآثار على الجمهور الشاكر لك المقدر لفضلك . وسأودع لديك فضـلا عن هذا صكوكا مالية ترتضيها قيمتها نصف مليون ريال ضمانا لاحتفاظى بها وردها إليك سليمة .

وستعرض هذه الآثار القيمة التى يفخر بهـا جميع أصدقائك على الملايين من المعجبين بك عرضا يسرك أنت وترضى عنـه خيرُ عناصر المجتمع كله . وإذا ذكرت أن آثار واشنجتن ونابليون وفردرك الأكبر وغـيرهم من العظماء قد بعثت السرور فى قلوب الملايين الذين سمح لهم برؤيتها ، فإنى لا يخالجنى شك فى أنك لن تحرم الجماهير من هـذه المتعة التى ستعرض عليهم بهذه الطريقة الشريفة المقترحة ، وبذلك تغرس فيهم فضائل الشرف والجد والوطنية الحقة التى تمثلها حياتك أصدق تمثيل .

ويشرفنى أن أكون صديقك المخلص لك المعجب بفضلك

ب . ت . بارنم

***

ورفض جرانت هـذا العرض فى أدب جم محتجا بأن مستر فندر بلت وعد أن يهدى هذه الآثار إلى أحد متاحف واشنجتن ، حيث يستطيع أن يراها كل من يشاء . فرد عليه بارنم بقوله : « هذا صحيح يا سيدى القائد ولـكن ملايين الناس الذين لن يزوروا واشنجتن سيأسفون لأنى لم أحمل إليهم هذه الآثار التاريخية حيث يستطيعون رؤيتها »

وتحسنت أحوال القائد جرانت المالية إلى حد كبير بعد أن أتم مذكراته الشخصية فى ظروف صعبة مجهدة ، وهو يقضى أيامه مريضا بالسرطان فى حلقه . وقد أتم الصفحة الأخيرة منها قبل موته بأربعة أيام فى يوليه سنة ١٨٨٥ ، بعد ستة شهور من الرسالتين المتبادلتين بينه وبين بارنم .

أنطون تشكوف يؤنب أخاه نقولاى ويصفه بأنه رجل غير مثقف

كان تشكوف[١] يعتقد أن الناس سينسونه بعد خمس سنين أو عشر، وأن كل ماله على الأدب من فضل «أن الطريق الذى مهده سيظل سالما أمينا». ولكن تشكوف لا يزال حتى اليوم عميد كتاب القصص القصيرة، لا ينازعه فى هذا المقام إلا موبسان[٢]، ولا يزال يحتفظ فضلا عن هذا بمكانة عالية بين كتاب المسرحيات، تشهد بذلك مسرحيته الشهيرة «بستان الكراز»

وقد قال تشكوف عن نفسه إن قصصه كانت تكتب نفسها بنفسها، وإن كل ما كان يفعله هو أن يجلس على مقعده، ويمسك بقلمه فى يده، ثم يكتب. وسأله صديق عن الطريقة التى يتبعها فى عمله فأمسك بمنفضة الدخان وقال لهذا الصديق إنه سيقرأ فى غد قصة اسمها «منفضة الدخان». وكان تولستوى يأسف لأن تشكوف كان طبيبا ويقول عنه إنه لو نسى الطريقة العلمية لكان خيرا مما هو. وتسرى فى مقالات تشكوف وأقاصيصه كلها روح الفكاهة. وكان يوقع بعضها بأسماء مستعارة غريبة منها «طبيب بلا مرضى»، «أخو أخى»، «رجل بلا طحال». ولا تقل رسائل تشكوف عن قصصه بهجة ومتعة، ومنها الرسالة الآتية التى كتبها إلى أخيه نقولاى ينصحه :

— ٥١ —

« ... معظم زجاجة الفودكا ... »

مسكو

١٨٨٦

طالما شكوت إلىّ من أن الناس «لا يفهمونك». إن جوت و نيوتن[٣] لم يشكوا

---

(١) Anton Chekhov (٢) Maupassant (٣) Goethe و Newton

من ذلك . . . ولم تصدر هذه الشكوى إلا من المسيح ، ولكنه فى شكواه كان يتحدث عن عقيدته لا عن نفسه . . . إن الناس يفهمونك حق الفهم ، وإذا كنت أنت لم تفهم نفسك فليسوا هم الملومين .

وأؤكد لك تأكيد الأخ والصديق أنى أفهمك وأعطف عليك من كل قلبى ، وأعرف فضائلك كما أعرف أصابع يدى ، وأقدرها وأجلها أعظم إجلال . وإذا شئت أن أبرهن لك على أنى أفهمك فإن فى وسعى أن أعدد لك تلك الصفات .

إنى أظن أنك رقيق القلب إلى حد الضعف ، وأنك نبيل بعيد كل البعد عن الأثرة، لا تتردد فى أن تقتسم مع غيرك آخر درهم معك ، لا تحسد الناس ولا تكرههم ، طيب القلب سليم من المكر ، رحيم بالناس والحيوان ، كثير الثقة ، سليم من الحقد والغيظ ، سريع النسيان للشر . . . قد أنعم الله عليك بنعمة لم ينعم بها على غيرك . ذلك أنك رجل موهوب ، وهذه النعمة ترفعك فوق آلاف الآلاف من بنى الإنسان ، لأن الفنانين فى هذه الدنيا لا يزيدون على واحد فى كل مليونين . فموهبتك الفنية تميزك من غيرك . ولو أنك كنت ضفدعة أو عنكبوتا لأجلك الناس مع ذلك لأنهم يغتفرون كل شىء للرجل الموهوب :

وليس فيك إلا عيب واحد ، هو منشأ كل ما تعانيه من مركز زائف ، وشقاء ، والتهاب فى الأمعاء . ذلك أنك رجل غير مثقف . وأرجو الا يسوءك هذا فإن الحب أعظم دعامة للصداقة .

... وأنت ترى أن للحياة ظروفها الخاصة ، وأن الإنسان إذا أراد أن يعيش مرتاح البال بين المتعلمين ، سعيدا بينهم وعلى وئام معهم ، فلا بد أن يكون له نصيب من الثقافة . وقد حشرتك مواهبك فى زمرتهم ، فأصبحت واحدا منهم ولكنك ... أبعدت عنهم فأنت تارة داخل دائرة المثقفين وتارة أخرى على أطراف هذه الدائرة .

وأنا أرى أن المثقفين يجب أن تتوافر فيهم الشروط الآتية :

١ — أنهم يعظمون الشخصية الإنسانية ، ولهذا تراهم دائما رحماء ، ظرفاء ، مؤدبين ، على استعداد لأن يكونوا لينى الجانب مع غيرهم من الناس ، لا يتنازعون على التافه من الأمور ، إذا عاشروا الناس لم يعدوا ذلك تفضلا منهم ، وإذا فارقوهم لم يقولوا لهم « إن أحدا

لا يستطيع أن يعيش معكم » يعفون عما يصادفهم من الضوضاء والبرد والطعام غير الشهى والنكات ، ولا يتألمون لوجود الغرباء فى بيوتهم .

٢ — وهم لا يخصون بعطفهم المتسولين والقطط فحسب ، وتتفطر قلوبهم مما لا تراه أعينهم ... وهم يقومون الليل يفكرون فيما يقدمونه من عون لغيرهم . . . ، أو فى أداء الرسوم الجامعية لأخوتهم ، أو شراء الملابس لأمهاتهم .

٣ — وهم لا يعتدون على ملك غيرهم ، و يؤدون ما عليهم من ديون .

٤ — وهم أوفياء مخلصون يرهبون الكذب كما يرهبون النار ، فلا يكذبون حتى فى صغائر الأمور . ذلك أن فى الكذب تحقيرا للسامع لأنه يضعه فى منزلة أخطر من منزلة المتكلم . وهم لا يتصنعون فلا يختلف مسلكهم فى الطريق عن مسلكهم فى البيت ، ولا يتباهون بأنفسهم أمام من هم أقل منهم درجة من رفاقهم ، لا يثرثرون ولا يفضون بأسرارهم إلى الناس يرغمونهم على الاستماع إليها دون أن يطلبوها ، يصمتون أكثر مما يتحدثون رأفة منهم بآذان غيرهم من الناس .

٥ — وهم لا يحقرون أنفسهم ليستثيروا شفقة الناس عليهم ، ولا يلعبون على أوتار قلوب غيرهم ليرثوا لحالهم و يحسنوا الظن بهم . ولا يقولون قط : « إنا قد أسىء فهمنا » أو « إنا قد أصبحنا فى المنزلة الثانية » لأن هذا كله ليس إلا سعيا وراء الكسب الرخيص ، وهو عمل دنىء ، مبتذل باطل . . .

٦ — وهم بعيدون عن الغرور السخيف ، لا يبالون بالعظمة الكاذبة التى ينالونها من وراء معرفة عظيم أو مصافحة سكير ، أو الشهرة فى الحانات أو الإصغاء إلى طرب مشاهد ساقتة الصدفة إلى معرض للصور . . . و إذا عملوا عملا يستحق أن يجزوا عليه بدرهم لا يختالون به كأنهم عملوا ما يستحقون عليه مئات الدنانير ، ولا يفخرون بأنهم يدخلون حيث لا يسمح لغيرهم بالدخول . . . إن ذوى المواهب الحقة يحبون أن يبقوا على الدوام بعيدين عن أعين الجماهير ، وهم أقل الناس إعلانا عن أنفسهم . . . وقد قال كريلوف[1] إن الإناء الفارغ أعلى صوتا من الإناء المليء :

---

(١) Krylov

٧ — وإذا كانت لهم موهبة عظموها ، وضحوا فى سبيلها بالراحة وبالنساء والخمر والكبرياء . . . وهم يفخرون بموهبتهم ويتأنقون فى أعمالهم ...

٨ — وهم ينمون حاسة الجمال فى أنفسهم ، ولا ينامون بملابس النهار ، ولا يطيقون رؤية الشقوق ملأى بالبق فى الجدران ، أو تنفس الهواء الفاسد ، أو المشى على أرض بصق عليها الناس ، أو طهى طعامهم على موقد زيت . وهم يحاولون جهدهم أن يكبحوا جماح غريزتهم الجنسية وأن يسموا بها . . . وليس الذى يطلبونه من المرأة أن تكون ضجيعتهم . . . ولا يطلبون ذلك النوع من الحذق الذى يظهر فى القدرة على الكذب المستمر . وإذا كانوا فنانين فإن أهم ما يطلبونه فى المرأة هو النضارة والرشاقة والإنسانية والقدرة على الأمومة ... وهم لا يحتسون الخمر فى جميع ساعات النهار والليل ، ولا يتشممون الأشياء المخبوءة لأنهم ليسوا خنازير ولأنهم يعلمون أنهم ليسوا كذلك . وهم لا يشربون إلا فى المناسبات الخاصة على شريطة ألا يكون لديهم عمل . . . . لأنهم يريدون لأنفسهم عقولا سليمة فى أجسام سليمة .

هذا بعض ما يتصف به المثقفون ، فإذا أردت أن تكون مثقفا ، وألا تكون فى منزلة أقل من منزلة من حولك من الناس فليس يكفيك أن تقرأ رواية پكوك پيبرز[١] أو تحفظ حديثا من فوست[٢] . . . .

إن الذى تحتاجه هو الدأب على العمل بالليل وبالنهار والقراءة المستمرة ، والدرس والإرادة القوية ... لا تضيع وقتك سدى لأن كل ساعة من ساعات النهار عظيمة القيمة.. تعال إلينا ، وحطم زجاجة الفدكا ، ولا تنقطع عن القراءة حتى وأنت نائم . . . اقرأ ترجنيف إذا شئت فإنك لم تقرأه .

دع الكبرياء جانبا ، فلست طفلا صغيرا . . . وستبلغ الثلاثين بعد قليل . . . لقد حان الوقت !

إنى فى انتظارك ... بل كلنا فى انتظارك .

* * *

(١) Pickwick Papers (٢) Faust

ولسنا نعرف هل أفاد أخوه من هذا النصح أو لم يفد منه ، ولكن تشكوف كان من غير شك مؤمنا بما يقول . وأصدقاؤه كلهم مجمعون على أنه كان رجلا رؤوفا رحيما ، دمث الأخلاق ، رقيق الطباع مخلصا . ولما اختير صديقه جوركى[١] عضوا فى مجمع العلوم ، ثم حالت آراؤه السياسية بينه و بين العضوية استقال تشكوف من هذا المجمع « لأن ضميره لا يرتاح إلى هذا العمل »

وقد شاهد تشكوف قبيل وفاته مسرحيته الشهيرة « بستان الكراز » تمثل بنجاح فى مسرح الفن بمسكو . ومن أشهر رواياته الأخرى « الأخوات الثلاث » و « العم فنيا » وقد مات تشكوف بذات الرئة فى ألمانيا ثم نقلت جثته إلى روسيا .

(١) Gorki

رسالة من الجنة :

سير وليم أزلر يرسل تقريراً عن الحياة في الدار الآخرة على لسان ابنه المتوفى

[رسالته إلى زوجته]

كان سير وليم أزلر[1] رجلا طيب القلب ، شفيقاً ، خيراً ، ذا فضل كبير على التعليم الطبي وعلى الطب بوجه عام . وكان مرضاه وطلابه وزملاؤه يلقبونه «بالرئيس» ؛ وكان هو محبوهم بعلمه الواسع وفكاهته وطيبة قلبه . ولما أعلنت « مدرسة جون هپكنز الطبية[2] » المؤهلات العلمية التي تجيز الدخول فيها ، وكانت مؤهلات عالية في تلك الأيام ، قال أزلر لأحد زملائه : « من حسن حظنا ياولش[3] أننا ندخلها أساتذة لأنا لن يكون في وسعنا قط أن ندخلها طلاباً »

وكان أزلر شديد الحب للأطفال ، يتبادل الرسائل الكثيرة مع صغار الأولاد والبنات ، يضايقهم تارة ويسليهم ويظهر لهم الحب تارة أخرى . وقد تحدث عنه صديق له في حفلة شاى حضرها فقال : إنه كان يصر على أن تقطع الكعكة مربعات من داخلها ، وكان يقدم للضيوف أكواباً ملأى بالسكر وليس فيها من الشاى إلا نقطتان أو ثلاث نقط . وكان يؤكد لنا فوق هذا عكس ما تعلمناه طوال حياتنا ، وهو أن من واجب الإنسان أن يلعق أصابعه جميعها إصبعاً بعد إصبع إذا أكل شيئاً لزجا ، وأن الطريقة المثلى الوحيدة للتلذذ بأكل الخبز والمربى أن تملأ الصفحة بالمربى وأن توضع فيها فتات قليلة من الخبز وأن تؤكل كلها بالملعقة ! ومن أقواله أيضاً إن خير طريقة لأكل الشوكولاتة أن يفتح الإنسان فاه ويغمض عينيه ثم يقذف قطعها في فم شخص آخر يجلس في الجهة المقابلة له من المائدة »

وفي عام ١٨٩٢ تزوج أزلر بجريس رڤير جرس[4] من غير أن يخبر بذلك زملاءه أو أصدقاءه . وزار صديق له مسز جرس فوجد أزلر جالساً معها في الحديقة ، وطلب أزلر

(١) Sir William Osler (٢) John Hopkins (٣) Welch
(٤) Grace Revere Gross

إلى الصديق أن يتغدى معهما . و بعد الغداء استأذنت مسز جرس قائلة إن عربة فى انتظارها ؛ وقال أزلر إنه هو أيضاً ذاهب فى طريقها ، و إنه يريد أن يرافقها . فلم يسع الضيف إلا أن يحييهما و ينصرف ، ولـكنه تلقى بعدئذ برقية جاء فيها :

« إنا نشكر لك كل الشكر أن حضرت مأدبة زفافنا » . وكانا سعيدين فى حياتهما الزوجية ، فقد كان كلاهما شديد الصبر ، عذب الفكاهة مخاصاً محباً . ولما ولد لهما أول طفل ابتهجا به أعظم ابتهاج ، لأنهما كانا يحبان الأطفال . ولـكن هذا الطفل مات قبل أن يتم الأسبوع الأول من حياته ، و بعـد هذه الفاجعة بزمن قصير وجدت مسز أزلر رسالة على منضـدة زينتها معنونة « إلى أمى العزيزة » ومرسلة من « الجنة » وموقعة بإمضاء « بول رڤير أزلر »[1] . وكان زوجها بطبيعة الحال كاتب هـذه الرسالة الغريبة الفكهة المحزنة .

— ٥٢ —

« . . . استيقظت فى بقعة جميلة خضراء . . . »

[فبراير سنة ١٨٩٣]

إذا كنا صالحين ، وكنا نجيد الغناء ، و إذا ظل آباؤنا فى الدنيا يظهرون اهتمامهم بنا بالدعاء لنا فى صلواتهم ، سمح لنا بأن نكتب مرة كل ثلاثة أشهر أو أربعة . لقد وصلت إلى هنا سالما ، ولم ألق إلا مشقة يسيرة جداً ، وظللت أجهل كل شىء حتى استيقظت فى بقعة جميلة خضراء ، فيها عيون وأشجار وآرائك وثيرة وحورعين يعنين بنا . ولو أنك رأيت المئات الذين جاءوا معى فى نفس اليوم لسرك هذا ، ولـكن علىّ أن أحدثك أولا عن نظامنا االذى لم أهتد إليه إلا بعد عدة أيام . إن الجنة من حيث سكانها صورة طبق الأصل من الأرض . فالذين يأتون من الولايات المتحدة مثلا يذهبون كلهم إلى مكان واحد ، فيقيم جميع الذين يأتون من ميرى لاند[2] مثلا فى مركز واحـد ، بل إن الذين يأتون من مدينة واحدة أو بلدة واحدة يخصص لهم مكان وحدهم . و بفضل هذه الطريقة يستطيع الملائكة الموكلون بالحراسة أن يحتفظوا بثبت الأسماء بعناية ، كما أن هذه الطريقة تيسر الاتصال بين الأقارب . وهم فى الجنة يهتمون بهذا التنظيم كل الاهتمام ، ولديهم طريقة لطيفة مهلة يعرف

(١) Peul Revere Osrel (٢) Maryland

بها القادمون الجدد من فورهم هل لهم صلات بمن فى الجنة ؟ ولم أدهش قط فى وقتى — ونحن فى الجنة نقول وقتى ولا نقول حياتى ولا الخلد لأن الحياة والخلد لم يبدءا بعد بالنسبة إلينا — كما دهشت حين جاءتنى أليتا[١] بعد يوم واحد من وصولى وقدمت إلىّ ريشتين كتب على إحداهما يوليوس قيصر وعلى الأخرى إما أزلر[٢]. فأما الاسم الأول فقد عرفت صاحبه من فورى ... وأما الثانى فلم أعرفه قط ، ولكنها قالت لى إن صاحبته كانت أخت أبى الصغرى ، وإنها أرسلت إليّ لتشعرنى بالسعادة والطمأنينة ...

ونحن نختلف عن الملائكة الحقيقيين فى أننا لا علم لنا بالمستقبل ، ولا نستطيع أن نعرف ما سيحدث لمن هم على الأرض من أحبائنا . وأعظم ما نبتهج به فى غير أيام الأعياد الكبرى التى نغنى فيها جماعات فى أقسامنا فى السموات العلى هو أن نرقب الأرواح حين وصولها إلى أقسامنا ، وأن نساعد الملائكة على تنظيم هذه الأرواح وتدريبها أحسن تدريب . ولا تكاد تمضى ساعة فى قسم الأطفال حتى يستثير مشاعرنا قدوم أب أو أم أو أخ أو أخت وانضمامه أو انضمامها إلى واحد منا . ومنا ألف يعرف بعضهم بعضا ، ولهذا فإنا يسرنا كل السرور أن نشاهد رفاقنا وأصدقاءنا يعنون بأقاربهم ويشعرونهم بأنهم بين أهلهم وذويهم .

***

وولد لأزلر ابن ثان كان شديد الحب له ، وعلّمه أن يعجب بما يعجب به هو ، وظل طول حياته أخلص أصدقائه . وكان أزلر فى الحرب العالمية يعنى بالجرحى فى المستشفيات ، أما ابنه إدورد فقد انضم إلى الجيش وسافر إلى فرنسا . ولما قتل حزن عليه والده أشد الحزن وقال : « إن الأقدار لم تسمح لى بأن يلازمنى السعد حتى أوارَى فى قبرى . فلا تقولوا عن أحد إنه سعيد حتى يموت . . . » . وأثرت هذه الفاجعة فى أزلر فمات بعدها بعامين مقروح الكبد كسير القلب ، ولكن حزنه لم يفقده إنسانيته وحبه وفكاهته .

---

(١) Althea (٢) Emma Osler

لفكاديو هيرن يوازن بين فكرتى الحب عند الشرقيين والغربيين

رسالته إلى بازل هول تشيمبرلن

لما سافر لفكاديو هيرن[١] إلى اليابان لبس ملابس يابانية ، وتجنس بالجنسية اليابانية ، وتزوج بامرأة يابانية ، واتخذ له اسما يابانيا هو ياتومو كيزومى[٢] ، واعتنق الديانة البوذية . وغريب أن يكون هذا هو مصير رجل أمه يونانية وأبوه أيرلندى .

ولكن حياته كلها كانت حياة غريبة غامضة . ولد هذا الرجل فى عام ١٨٥٠ فى جزيرة لوكاديا أو لفكاديا[٣] من جزائر اليونان . ثم انتقل أثناء طفولته إلى أيرلندة حيث تبنته عمته ، ثم تراه فى ويلز ثم فى إحدى كليات اليسوعيين فى شمال فرنسا ، ثم فى درم[٤] فى إنجلترا . وعاش بعدئذ فقيرا معدما فى لندن . ولما ماتت عمته هاجر إلى أمريكا ونزل فى نيويورك ، ولكنه لم يجد فيها غير الفقر ، ففر منها إلى سنسناتى[٥] وعمل فى إحدى الصحف ، ولم يبدأ عمله المنتج الحقيقى إلا بعد أن استقر فى جزيرة مرتنيك[٦] حيث أرسلته إحدى الجرائد ليكون مراسلا لها . ولما عاد إلى نيويورك فى عام ١٨٨٩ استطاع أصدقاؤه أن ينجوه من الموت جوعا بأن أرسلوه إلى اليابان حيث أعانه صديقه بازل هول تشيمبرلن[٧] على أن يوظف مدرسا فى مدينة متسو[٨] .

وفى اليابان بدأ يحيا حياة مستقرة ، فنبذ الإلحاد كما نبذ من قبل المذهب الكاثوليكى ، واعتنق الديانة البوذية ، وكتب عن اليابان كتباً وصف فيها حياة أهل البلاد وعاداتهم وتفكيرهم وصفاً يفيض عطفاً عليهم . ورسائله وكتبه كلها ملأى بالموازنة الممتعة بين الشرق والغرب ، ومنها الرسالة الآتية التى بعث بها إلى تشيمبرلن والتى يوازن فيها بين فكرة الحب عند اليابانيين وعند الغربيين :

---

(١) Lafcadio Hearn
(٢) Yatumo Koizumi
(٣) Lafcadio or Leucadio
(٤) Durham
(٥) Cincinati
(٦) Martinique
(٧) Basil Hall Chamberlain
(٨) Matsu

« ... والياباني يرى أنه مجرد ذكر زوجته عيب كبير ... »

في ١٧ إبريل سنة ١٨٩٣

عزيزي تشيمبرلن :

... لقد وجدت أن ليس من المألوف في هذا البلد أن يزور الإنسان مدير المدرسة ، وأنا لم أتحدث إليه مرة واحدة إلى هذا اليوم ، ولكن الذي يتضح لي أنه رجل يحب النظام . فقد أصبحت الأمور بعد مجيئه أكثر دقة مما كانت قبل . لقد ضبطت الساعة التي كانت من قبل تدق الثانية عشرة قبل موعدها بساعة كاملة ، ووضعت ألواح كتبت عليها بحروف صينية أوامر وقواعد محددة دقيقة . ولما اجتمع الطلاب ليستمعوا إلى خطب طويلة لم يكادوا يقفون في الصفوف حتى صرفوا ولم تلق عليهم إلا بضع كلمات مختصرة صريحة. والمدير الجديد رجل ظريف ، يبدو كأنه يهودي وسيم ، يسير بخطى واسعة كخطى النعامة ، وليتني أعرف ما يكتنفه من غموض ، ولكن لِمَ أكتب هذه الرسالة ؟ إني أكتبها لأن فكرة طرأت على محددة بعض التحديد . إن المشكلة اليابانية مشكلة ضخمة ، ولذلك لا أراني مخطئاً إذا اعتقدت أن من واجبك أن تستمع إلى فكرة طرأت لي عنها لا أزال مستمسكا بها . وقد لاحت لي هذه الفكرة حين أطلعت على الصحيفة الأمريكية التي كنت محررها الأدبي . فهي تأتي إليّ ملأى بالأعمدة المعنونة « هذر النساء » «والأزياء الحديثة» والنساء في الفن ورسالة كلارا بل[1] عن صغر القدمين وما إلى ذلك . وكل هذه الأقوال تصحبها صور تمثل نسوة عجيبة في ملابس عجيبة وما فيها من شعر جديد يدور كله حول الحب واليأس ؛ أما القصص فكلها عن العاشقين المتيمين والغواني القاسيات القلوب ، وتلك كلها أمور تعافها الآن نفسي ، ومع هذا فقد كنت أعتقد أن هذه الصحيفة مهذبة إذا قيست إلى غيرها من الصحف . وسواء كان هذا أو لم يكن فإنها مثل لمئات غيرها ، وهي مثل يوحي إلى الإنسان بالشيء الكثير .

(١) Clara Bell

وينادينى طلابى قائلين : « أى أستاذنا ! لم كانت الروايات الإنجليزية كلها تدور حول الحب والزواج ؟ إن هذا يبدو لنا غريباً » ، وهم حين يقولون « غريباً » إنما يقصدون أنه « بذىء » وأحاول أن أفسر لهم هذا فأقول :

— « أى أبنائى الأعزاء ! إن دنيا الغرب ليست كدنيا الشرق ، فليس بخاف عليكم أن النظام الذى يقوم عليه المجتمع فى الغرب لايشبه النظام الذى يقوم عليه فى الشرق ؟ فالرجل فى الغرب هو الملزم بتكوين الأسرة ، وليست الأسرة هى التى تكوّن الرجل . أما الشىء الذى لاتعرفونه فهو أن الحياة للرجل العادى المتعلم الذى لامال له ليست إلا كفاحاً وهيباً مريراً — كفاحا لا رأفة فيه ولا رحمة . والزواج الذى يعد فى اليابان من أسهل الأمور وأكثرها مجاراة للطبيعة تراه فى الغرب من أكثر الأمور صعوبة وأشدها خطورة . ومع هذا فإن الزواج هو المحور الذى تدور عليه حياة الرجل كلها . فإذا لم يكن له زوجة لم يكن له بيت . وهو يسعى للنجاح ليجمع من المال ما يعينه على الزواج ، والنجاح فى الحياة يؤدى إلى النجاح فى الزواج ، ولكن العقبات التى يصادفها فى طريقه كثيرة فى عددها عجيبة فى نوعها » ... (وأواصل شرحى قائلا) : « ومن أجل هذا تتحدث الروايات الإنجليزية عن الحب والزواج أكثر مما تتحدث عن أى شىء آخر ، وذلك لأن الحب والزواج هما كل شىء فى حياة الطبقات الإنجليزية الوسطى على الأقل ، والطبقات الوسطى تحب هذه الكتب ، وتغدق المال على من يجيدون تأليفها ، لأنهم يظهرون العطف على آلام المحبين الخيالية — وهذا ما لا تفعلونه أنتم — لأنكم لا تستطيعون فعله — وأظنكم على حق فى هذا ، كما هم على حق فى ذاك » .

ومع أننى أعلم أن فى تفسيرى هذا كثيرا من التحيز ، فإنى لا أستطيع أن أدخل فيما عدا هذا من التفاصيل دون أن أجازف بالإساءة إلى سمعتى . أما هذه التفاصيل الأخرى فيمكن الحصول عليها من الصحيفة الأمريكية التى أشرت إليها من قبل . وهى نموذج لطراز معين من الصحف ، وفى إنجلترا من أمثالها ما لا يمكن حصره . ولكن الصحف التى لا تجارى فى هذا المضمار هى الصحف الفرنسية كالشاريفارى ، والفيجارو ، وبتى جورنال پور رير (الصحيفة المضحكة الصغيرة[١]) وما إليها .

---

(١) Le Sharivari ، Le Figaro ، Le Petit Journal pour Rire.

وأى شىء تحدثنا عنه هذه الصحف ؟ أظنها تحدثنا عن هـذا : وهو أن المدنية الغربية مغمورة فى جو من . . . الشهوانية المصطنعة ، وأن كل ما يستطاع فهمه من الفنون والآداب يوجه بأجمعه إلى الناحية النسائية الخالدة ، وأن مسراتنا كلها — من تمثيليات عادية وغنائية، ومن روائع النحت والتصوير والموسيقى الحديثة — قد وضعت كلهـا بقصد إثارة الأفكار الجنسية . وليس هذا كل شىء ، بل إن التلذذ بهذه الأفكار — الشهوانية — لتظهر فى أدق تفاصيل عملهم أو مخترعاتهم — سواء كانت رسما على علبة للسجاير لممثلة أو راقصة فى حفلة ، أو كانت نقشا على بناء حكومى ، أو لعبة طفل ، أو مصباحا برنزيا فى يد تمثال لحسناء عارية تقف عند أسفل الدرج فى قصر من القصور .

وإذا كان المال هو معبود الغربيين فهم إنما يعبدونه لأنه يقربهم من النساء . ولست أنكر أننا فى تربية أبنائنا نرمى إلى تأخير وقت البلوغ وما يصحبه من انفعالات نفسية بقدر ما نستطيع — وذلك لكى نوفر للفرد قوة مختزنة ، ومن أجل هذا نسلك سبيل الكذب والخداع وإخفاء الحقائق والرياء للوصول إلى غرض شريف ؛ ولكن الأطفال إذا أصبحوا رجالا ونساء ، وجدوا أنفسهم فجأة وقد أحاط بهـم جو الأوثة الذى لا نهاية له ، والذى لا يستطيعون أن ينجوا منـه فى مستقبل حياتهم ، إلا بالفرار إلى بلد أقل مدنية من بلدهم . ولا حاجة بى إلى التحدث هنا عما ينجم عن هذه الهجرة من الشرور ، لأن هذه الهجرة وشرورها من الحوادث العارضة ، ولذلك كان الحديث عنها لا يشفى غليلا .

واليابانى يرى أن مجرد ذكر زوجته عيب كبير ، وأن أقل ما يمكن أن يوصف به التحدث عن أطفاله أنه من سوء الأدب . وليس معنى هذا أن اليابانى مجرد من عاطفة الحب ، — فالحب فى رأيه لا غبار عليه — ولكنه يظن أن مجرد ذكره يوحى بأمور أخرى — وهى أمور لا غنى عنها للحياة ، ولكنها مع ذلك أمور مشئومة . وهو يعرف زوجته بصديقه الأوربى ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه قيل له إن هذا العمل عادة متبعة عند الأوربيين وإن كان هو يراها عادة غريبة همجية . وفيما عدا هذا فإن النساء اليابانيات يعشن فى عزلة وقد ألفن هذا النوع من الحياة — ويعتقدن أنهن سيفقدن سعادتهن وظرفهن إذا أكرهن على الخروج منها . واليابانى لا يتحدث عن زواجه إلا لنفر قليل من خاصة أصدقائه يدعوهم

لحفلة عرسه، وهو أقل من هذا ذكرا لمولد طفله، وذلك لأسباب لاتخفى على أحد . وهو ينظر إلى الرواية الإنجليزية على أنها قطعة من السفه السقيم القبيح ، ويرى فى المرقصة[1] البار يسية من الآثام أكثر مما كانت تراه فيها الشيمة البروتستنية المتزمتة . . . . وهو يعيش فى جو هادئ خال من الخداع ، والفنانون اليابانيون يصيبون أكبر قسط من النجاح إذا ما حاكوا الطبيعة وأقل قسط منه إذا ما صوروا الإنسان . أما نحن فالأمر لدينا على عكس هذا . ترى أى الظروف أكثر ملاءمة للرقى العقلى فى المستقبل ، أهى ظروفنا نحن أم ظروفهم ؟ (إنى أجازف بهذا القول كله) . ويبدو لى أن الظروف المحيطة بالتفكير العاطفى فى الغرب سقيمة تثير فى الإنسان أشد الغيظ ، على أنى لا أظن أن هذه الظروف تبعث على الشر دون غيره ، بل أعتقد أنها قوة مبدعة بأرقى معانى الابداع . ولست أنكر أن هذه العملية بطيئة وأنها تصحبها حوادث قبيحة ، ولكن نتائجها قد تكون عظيمة . إن عبادة النساء وعبادة الغرائز الجنسية تعمل على إيجاد بعض الفضائل الخلقية وتنميتها إلى حد كبير . وكما أن سرور العين باللون قد نشأ من تعودها النظر إلى ما يشبع شهوة الطعام ، كذلك تنمو المتعة الروحية من الإحساس الغامض بجمال الجسم ، ومامن شك فى أن هذه المتعة الروحية سترفع آخر الأمر من شأن الإنسان وترقق إحساساته ، وتقلل من شأن متعته الجسمية ومن أنانيته . نعم إن هذه المتعة وتلك الأنانية هما اللتان تبدوان لمن ينظر إلى الصحيفة الأمريكية السالفة الذكر مثلا ، ولكن هذه النظرة السطحية لا تكشف عن الحقيقة . فكما أن العقول غير المثقفة تحب القوة التى تبعثها فيها الألوان الساذجة الزاهية ، ولا تعنى مطلقا بالظلال الرقيقة الخفيفة ، فكذلك العقول التى لم تنل حظا كاملا من الثقافة تحتاج إلى دوافع غليظة قوية لتحركها فى الاتجاهات العاطفية ، واعتقادى أن الاتجاه العام الذى لا بد أن تسير فيه هذه النفوس هو اتجاه نحو الرقة والتعاطف الروحى والكرم الخلقى . وما من شك فى أن ثمة قدرا عظيما من هذه الرقة كامنا حتى فى أخشن الطباع الغربية لا يظهر إلا وقت اشتداد الخطوب كما تظهر النار من قدح الصوان . ولست أقصد بالرقة مجرد الحب النسائى والميل الجنسى بل أقصد بها شيئا أجل من هذين شأنا وأسمى مكانة نما وتطور من ذلك الحب البدائى وما إليه . وهذا الشىء هو رقة الشعور وقوة الإدراك والاستعداد الغريزى للأخذ بناصر الضعيف .

---

(١) Ballet

ولست أرى هذا فى الشرق — اللهم إلا بين النساء . ألم تقل أنت إن المرأة اليابانية كانت سببا فى احتفاظ اللغة القومية بنقائها وجمالها ؟ إنى أعتقد أنها قد حافظت فوق ذلك على استعداد الشعب كله للتحلى بالصلاح وطيب الأخلاق واختزنته كله فى نفسها .

وهنا لا بد لى من أن أختم رسالتى المتشائمة .

الخالص على الدوام

لفكاديو هيرن

حاشية : إن الفكرة الرئيسية التى أريد أن أعرضها هى هذه : إذا أريد فهم اليابان فهما جيدا وجب أن ننظر إلى المسألة الجنسية بنظرة جدية ، على أنها عامل فى تكوين الفروق النفسانية . وذلك موضوع واسع لا أقدر أنا عليه ، ولكن فى وسع رجل مثل لوول[1] أن يفيد منه الشيء الكثير . أما أنا فلست أجرؤ على معالجته . ولقد أشار لوول مرة إلى هذا الموضوع ولكنه فى اعتقادى ليس من الموضوعات الفرعية التى تكفى فيها الإشارات العارضة .

* * *

وكان هيرن رجلا قبيح المنظر قصير القامة ، يكاد أن يكون قزما ، فقد إحدى عينيه فى حادث وقع له فى طفولته . وكان قوى الشعور بضآلة جسمه حتى قال مرة وهو يتحسر إنه يسره أن يقيم فى اليابان حيث الناس قصار مثله . وكان لسوء الحظ حاد الطبع ، شديد التأثر ، حييا . وقد كتبت زوجته اليابانية بعد وفاته تقول : « لقد كان يحب اليابان بكل قلبه ، ولكن اليابانيين لم يفهموا حبه الخالص لليابان » .

---

(١) Lowell

پيير كورى يطلب إلى مارى اسكلودوفسكا أن تتزوجه

لم يكن اسم پيير كورى[١] من الأسمــاء المعروفة فى فرنسا عام ١٨٩٣ ، ولــكن صاحبه كان ذا شهرة واسعة فى سائر أنحاء أوربا لمــا قام به من الأبحاث فى المغنطيسية وغيرها من فروع علم الطبيعة . وكان إلى هذا قد اخترع جهــازاً للقياس و يعرف « بمقياس كورى » و يفوق فى حساسيته سائر ما كانــ معروفا من الأجهزة . وقد أقر اللورد كلفن[٢] نفسه وقتئذ بأن كورى أستاذ عظيم . وكانت الحــكومة الفرنــسية تدفع له فى نظير أعماله العلمية المبتكرة وقيامه بالتدريس لثلاثين من الطــلاب مرتباً شهريا قدره ثلثمائة من فرنكات تلك الأيام ؛ وكان لقبه الرسمى هو « رئيس معمل مدرسة الطبيعة والــكيمياء فى مدينة باريس »

وكان أصدقاؤه الأخصاء القلائل يقولون إن « پيير كورى يصرف كل ما وهب من قوة الجسم والعقل فى الأبحاث العلميــة ...» و إنه « لا يحب أحداً » . وكتب هو نفسه مرة فى يومياته : « إن النساء ذوات العبقرية نادرات الوجود » .

ثم حدث أن قابل پيير كورى مارى اسكلودوفسكا[٣] ... وهى فتاة أقبلت من وارسو فى پولندة لتدرس فى السربون . وكانت الأولى بين الناجحين والناجحات فى امتحان الطبيعة فى العام السابق للقائهما ، وكانت وقتئذ تستعد للتقــدم لامتحان الرياضيات . « ولم يلبث حديثهما فى أول لقائه بها بمنزل صديق أن انتقل إلى حوار علمى ... فكانت مارى تسأل فى حياء و إجلال وتستمع إلى آراء پيير ... وأخذ هو بعــدئذ يعرض عليها مشروعاته العلمية و يشرح لها ظاهرة التبلور التى كانت تستأثر وقتئذ بكل عنــايته . ودهش پيير حين وجد نفسه يتحدث فى العمل الذى يحبه إلى امرأة ، وأنه و إن كان يعــبر عن آرائه بألفاظ علمية وقوانين معقدة ، يراها وهى جميلة فاتنة فى نضرة الشباب تشغف بحديثه وتفهمه ، بل تبحث معه دقائق العلم ، وتدلى فى تلك الأبحاث بآراء واضحة وتفــكير ســديد لا يخطئ ... ألا ما أحلى هذا وما أعظمه ! »

وأخذت الصــداقة التى بدأت وقتئذ تقوى وتتوثق أواصرها ، ولشــد ما كان پيير

---

(١) Pierre Curie (٢) Lord Kelvin (٣) Marie Sklodovska

يعجب بها حين يراها فى المعمل ، مرتدية معطفها الأبيض ، مكبة على أجهزتها فى صمت وهدوء . ثم أرسل لها الطبعة الجديدة من أحدث كتاب نشره عن « التناسب فى الظواهر الطبيعية ، تناسب المجال الكهربائى وتناسب المجال المغنطيسى » .

وكانت مارى قبل انتقالها إلى باريس تعمل مربية فى أحد البيوت ، ولما جاءت إلى باريس كانت تعيش فى عُلِّية[1] ، وكانت على حد قول ابنتها وكاتبة سيرتها إيف[2] قد أقسمت ألا تحب إنسانا قط ، وأبعدت فكرة الزواج من برنامج حياتها ، وشادت لنفسها عالما صارماً يسيطر عليه حُب العلم

ولما عرض عليها بيير أن تتزوجه رفضت فى بادئ الأمر ، ولكنه واصل خطبته بعد أن عادت هى إلى بولندة لتقضى فيها عطلة الصيف ، ولم ينقطع فى هذه الأثناء عن الكتابة إليها . وها هى ذى إحدى الرسائل التى بعث بها إليها فى ذلك الوقت :

— ٥٤ —

« ... كل كشف نصل إليه مهما يكن صغيرا يبنى ذخيرة علمية ... »

فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٤

لا شىء يدخل السرور على نفسى أكثر من تلقى أخبارك . ولقد كان الظن بأن هذه الأخبار ستنقطع عنى شهرين كاملين مؤلما لى أشد الألم ، ومن أجل ذلك وقعت كلمتك القصيرة برداً وسلاماً على قلبى .

ولعلك الآن تدخرين قدراً عظيما من الهواء النقى ، ولعلك عائدة إلينا فى شهر أكتوبر ؟ أما أنا فلست أظن أنى سأبرح هذا المكان ، فأنا باق فى الريف ، أقضى النهار كله أمام نافذتى المفتوحة أو فى الحديقة

لقد تواعدنا على أن نكون صديقين وفيين على الأقل — أليس كذلك ؟ ألا ليتك

---

(١) Garret انظر مقال الدكتور جنسن فى مزايا السكنى فى علية البيت فى كتابنا « مقالات مختارة من الأدب الإنجليزى »

(٢) Eve (حواء)

لاتغيرين رأيك ! أقول هذا لأنى أعتقد أن ليس ثمة وعود ملزمة ، فإن هذه الأشياء وأمثالها لايصرِّفها الإنسان كما يشاء . وليس أقل من هذا جمالا أن نقضى حياتنا متقاربين نسبح فى أحلامنا اللذيذة ! أحلامك الوطنيــة ، وأحلامنا الإنسانية ، وأحلامنا العلمية ؛ وهذا ما لا أكاد أصدقه .

ويقينى أن ليس من بين هذه الأحلام كلها ما هو طبيعى مشروع إلا الأحلام العلمية . والذى أقصده بقولى هذا أنا عاجزون عن تغيير النظام الاجتماعى ، وحتى لولم نكن عاجزين عن هذا التغيير فإنا لا ندرى ماذا نفعل . فإذا خطونا خطوة مهما يكن الاتجاه الذى نخطوها فيــه ، فإنا لا ندرى هل نخطوها فى الطريق الصواب أو نعطل بها تطوراً كان لا بد منه ، فيكون ضررها أكثر من نفعها . أما فى العلم فإنا نرجو على الدوام أن نعمل شيئاً ، لأن الأساس الذى نبنى عليه ثابت مكين ، ولأن كل كشف نصل إليــه مهما يكن صغيرا يبقى ذخيرة علمية .

فلننظرى الآن ماذا يكون من أمرنا . لقد اتفقنا على أن نكون صديقين وفيين ، فإذا غادرتِ فرنسا بعد عام أصبحت صداقتنا صداقة أفلاطونية محضة ، أى صداقة شخصين لن يرى أحدهما الآخر أبد الدهر . أليس خيرا لك إذن أن تبقى معى ؟ إنى أعرف أن هذا السؤال يغضبك ، وأنك لا ترغبين فى أن تتحدثى فى هذا الشأن مرة أخرى — وفوق هذا فإنى أشعر أنى غير جدير بك بأى وجه من الوجوه .

ولقد فكرت فى أن أستأذنك فى أن نتقابل مصادفة فى فريبورج[1] ، ولكنك لن تقيمى فيها أكثر من يوم واحد — إلا إذا كنت مخطئا فى هــذا — وستكونين فى ذلك اليوم فى ضيافة أصدقائنا آل كوڤالسكى[2] .

صديقك الوفى المخلص

بيير كورى

* * *

(١) Fribourg (٢) Kovalski

حاشـية : كم أكون سعيدا إذا كتبت إلىّ لتؤكدى أنك تعتزمين العودة فى شهر اكتوبر ، وإذا بعثت برسائلك إلىّ مباشرة فإنها تصلنى بسرعة !

بيير كورى ١٣ شارع سابلن سو (السين)[١] .

***

وتعلق إيف كورى على تلك الرسالة وغيرها بقولها : « ألا يكفى الإيحاء بهذه الرسائل لأن يخلد ذكرى من أوحت بها ، و يذيع شهرتها فى أنحاء العالم ؟ » : ولما عادت مارى إلى معملها فى شهر اكتوبر تابع بيير خطبته . وفى ذلك تقول إيف كورى أيضا : « وكان قلبه ينطوى على نفس الإيمان الذى ينطوى عليه قلب زوجته المستقبلة ، وهو إيمان يزيده قوة ويزيده طهرا بعده عن كل ما يشينه ... وكان على الدوام مستعدا لأن يضحى بكل مايسميه الناس سعادة فى سبيل الحصول على سعادة أخرى لا يعرفها أحد غيره ، أى أنه عرض على مارى صداقة فحسب ، بل ذهب إلى أبعد من هذا ، فعرض عليها أن يذهب معها إلى پولندة ... ودامت خطبته عشرة أشهر كاملة .

وأخيرا كتبت مارى فى شهر يولية من عام ١٨٩٥ إلى صديقة لها تقول : حين تصلك هذه الرسالة تكون صديقتك قد غيرت اسمها . فأنا أوشك أن أتزوج الرجل الذى حدثتك عنه فى وارسو فى العام الماضى . إنى شديدة الأسف لاضطرارى أن أبقى فى باريس ، ولكن ما حيلتى فى هذا ؟ لقد أوثقت الأقدار صلاتنا ، ولسنا نطيق التفكير فى الافتراق .

لم أكتب إليك من قبل لأن رأيى لم يستقر على هذا كله إلا من وقت قريب ، فقد بقيت أتردد عاما كاملا ، ولم أستطع أن أقطع فى الأمر برأى . وأخيرا رضيت بالإقامة هنا . فإذا وصلتك رسالتى هـذه فاكتبى إلىّ « السيدة كورى مَدْرسة الطبيعة والكيمياء ٤٢ شارع لوموند[٢] »

هكذا سيكون اسمى بعد الآن ، وزوجى مدرس فى تلك المدرسة ، وسأجىء به فى العام المقبل إلى پولندة ليعرف بلادى ، ولن يفوتنى أن أعرفه بمن اخترتها لى أختا صغيرة عزيزة ، وسأطلب إليها أن تحبه ...

---

(١) Rue des Sablons Sceaux (Seine)   (٢) Rue Lhomond

وأحبت إحدى صديقاتها أن تهديها فى يوم زفافها ثوب عرس ، فطلبت إليها أن تتفضل بإمدائها ثوبا « لائقا بعملها أدكن اللون تستطيع لبسه فى المعمل » . وقضت هى وزوجها شهر العسل يطوفان على دراجتين فى الريف ، و يرتادان الحراج مشيا على الأقدام .

وهكذا اختتمت رواية زواج مارى و پيير كورى . وقد لخصت إيف كورى حياتهما أجمل تلخيص فى العبارة الآتية :

كانت امرأة من أمة مظلومة ؛ وكانت فقيرة ؛ وكانت جميلة . غادرت پولندة وطنها الأصلى استجابة لدعوة قوية لتدرس العلم فى باريس ، وعاشت فيها عدة سنين وحيدة فقيرة ، وفيها قابلت رجلا تتفق عبقريته مع عبقريتها ، فتزوجت به وسعدا بهذا الزواج سعادة منقطعة النظير ، واستطاعا بجهودهما المضنية المتئدة أن يكشفا عنصرا سحريا عجيبا هو عنصر الراديوم ، وهو كشف لم يؤد إلى نشأة علم جديد وفلسفة جديدة فحسب ، بل إنه فوق ذلك قد مكن بنى الإنسان من علاج مرض من أخطر الأمراض .

وقد يكون هذا هو أنسب موضع نذكر فيه قول أينشتين المأثور . « إن مارى كورى هى المرأة الوحيدة التى لم تفسدها الشهرة دون سائر المشهورين والمشهورات من بنى الإنسان »

ولما قتل پيير كورى تحت عجلات إحدى المركبات فى عام ١٩٠٦ عينت زوجته أستاذة فى جامعة السربون فى المحل الذى خلا بوفاته ، وبدأت محاضراتها من النقطة التى وقف عندها بالضبط ؛ ثم زارت أمريكا فى عام ١٩٢١ فقدم لها الرئيس ورن جاليل هاردنج[١] بيده نائبا عن نساء أمريكا جراماً من الراديوم لا يقل ثمنه عن مائة وعشرين ألف ريال . وتوفيت فى عام ١٩٣٤ من أثر داء زادته حدة تجاربها على الراديوم .

---

(١) Warren Gamaliel Harding

من إميل زولا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية يطلب إليه أن يرد على الناس إيمانهم بالعدالة الإنسانية

يصف أناتول فرانس[١] إميل زولا[٢] بأنه أكبر قوة دافعة فى ضمير الإنسانية ، وسترى فى هذه الرسالة التى كانت نقطة الانقلاب فى قضية دريفوس كيف استحق إميل زولا هذا الوصف :

فى عام ١٨٩٤ اتهم الكبتن ألفرد دريفوس[٣] ، وهو ضابط نابه من ضباط المدفعية الفرنسية ، كريم الخلق وابن صانع يهودى ، اتهم بأنه باع إلى الأعداء وثائق هامة ذات قيمة حربية خطيرة ، وأيدت التهمة بخطاب قيل إنه بعث به إلى موظف ألمانى وصودر قبل أن يصل إلى المرسل إليه . وحوكم الضابط الشاب وأيدت التهمة بأدلة مزوّرة ، وحكم بإدانته ، فجرد من رتبته وشرفه العسكرى ، وحكم عليه بالسجن فى جزيرة الشيطان[٤] بالقرب من جيانا الفرنسية[٥] . وجرد دريفوس من رتبته فى احتفال عام ، ونزعت شاراته العسكرية وأزراره ، وكسر سيفه . وبينما كان الجمهور الصاخب المهتاج يطالب « بقتل الخائن » وقف دريفوس رابط الجأش وخاطب الضباط والجمهور قائلا : « إنى برىء ، وستعرفون الحقائق يوما ما ؛ لتحيى فرنسا »

وقاسى دريفوس الأمرين فى جزيرة الشيطان الموحشة المنعزلة ، وكلف ستة من الحراس بمراقبته ليلا ونهاراً ، وعذب عذاباً أليماً فى الجسم والعقل . ولما ثبت بعد ثلاث سنين من هذا الحكم أن الخطاب المزعوم مزور ، وأن كاتبه رجل من أسافل الناس يدعى إسترهازى[٦] ، وقفت القيادة العليا الفرنسية فى طريق العدالة ، وأبت أن تنقض الحكم لئلا تفقد سمعتها فى نظر الأمة . وفى ذلك الوقت أخذ الأحرار فى جميع أنحاء أوربا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص يعنون بهذه القضية ، وانقسمت الأمة الفرنسية بين مؤيد لإعادة النظر ومانع فيها ،

---

(١) Anatole France
(٢) Emile Zola
(٣) Alfred Dreyfus
(٤) Devil's Island
(٥) French Guiana
(٦) Esterhazy

وأثارت القضية من أول الأمر اهتمام إميل زولا ، وكان وقتئذ فى عنفوان مجده الأدبى ، ذائع الصيت فى جميع أنحاء العالم بفضل ما كتبه من الروايات الخالدة أمثال نانا[١] وجرمنال[٢] ، يهابه الناس ويخشون قلمه ، ويجلونه أعظم إجلال لما اشتهر به من عداء شديد للظلم والرياء . وفى شهر يناير من عام ١٨٩٨ تطوع للدفاع بقلمه عن قضية الحق والعدالة ، وثارت ثائرته وغضب غضبة مضرية حين حكم ببراءة إسترهازى بعد محاكمة صورية .

وقدم الأحرار الفرنسيون لزولا ما جمعوه من الحقائق المتصلة بالقضية ، فاعتمد عليها ووجه الخطاب المفتوح التالى إلى فليكس فور[٣] رئيس الجمهورية الفرنسية فى جريدة لورور « الفجر »[٤] إحدى جرائد الأحرار فى ذلك الوقت . وتعد هذه الرسالة من أشد الرسائل التى كتبت فى التاريخ كله . وقد قضى يوماً كاملا فى كتابتها ، وكان وهو يكتبها « يلهث من الغضب ومن خوفه ألا يكون أول من كتب مثلها » . ولما نشرت كان لها أعظم الأثر فى البلاد . وكتب چورج كلمنصو[٥] وكان وقتئذ شابا صحفيا متطرفاً — عنوانها الشهير :

— ٥٥ —

« إنى أتهم . . . »[٦]

[يناير سنة ١٨٩٨]

يا جناب الرئيس :

أرجو أن تسمح لى أن أصرح لك نظير ما أسديت إلىّ فى سابق الأيام من جميل بشدة خوفى على ما نلت بحق من مجد وسؤدد ، وأن أخبرك أن سجل أعمالك الذى ظل حتى الآن أبيض ناصعاً ، يهدده فى هذه الأيام عار ينكس الأبصار ، ولا يمحى أبد الدهر .

لقد نجوت من أشنع التهم فلم تصب منها بسوء ، ولقد أسرت جميع القلوب ، وهأنت ذا تنعم الآن بمجد الاحتفالات الوطنية ... وتستعد لرياسة المعرض العام الذى ستختتم به جهود مائة عام من العمل ، ومن الجهاد فى سبيل الحق والحرية . ولكن أية وصمة سيوصم بها اسمك — ولقد كدت أقول عهدك — من جراء هذه القضية اللعينة قضية دريفوس . لقد جرأت

(١) Nana (٢) Germinal (٣) Felix Faure
(٤) L'Aurore (٥) George Clemenceau (٦) J'accuse

محكمة عسكرية من زمن قريب على أن تخضع لأمر صدر إليها فبرأت رجلا يدعى إسترهازى، وكان عملها هذا فى واقع الأمر لطمة للعدالة ما أشدها . وقد قضى الأمر وتسربلت فرنسا بهذا العار، وسيقول التاريخ إن هذه الجريمة الاجتماعية قد ارتكبت فى أيام إدارتك .

لقد جرؤوا على ارتكاب هذا الإثم، ومن أجل هذا سأجرؤ أنا أيضاً على قول الحق لأنى عاهدت نفسى على قوله، إذا كان القضاء قد أبى أن يقوله، وكان من حقه أن يفعل، وسأقوله كاملا لا أجامل فيه ولا أخفف من وقعه . ذلك أن الواجب يقتضينى أن أتكلم لكيلا أكون شريكا فى الجريمة، ولكيلا ينغص علىّ أحلامى شبح ذلك المخلوق البرىء وهو يكفر بأشد أنواع العذاب عن جريمة لم يرتكبها قط .

وسأجهر لك أنت يا جناب الرئيس بهذا الحق، وأجهر به بكل ما لدىّ من قوة تبعثها فى الرجل الشريف ثورته على الظلم . ولست أشك فى أنك تجهل هذه الجريمة، فهى إذن لم تمس شرفك، ومنذا الذى أشكو إليه إذن أولئك السفلة الأراذل المجرمين بحق، إذا لم أشكهم إليك، وأنت أكبر المهيمنين على شئون البلاد ؟ ...

إنى أتهم الكولونل دو باتى ده شام[١] بأنه هو الأداة الشيطانية التى استخدمت فى ارتكاب الغلطة القضائية، وسأحمل نفسى على الاعتقاد بأن ذلك كان على غير علم منه، ولكنه كان خلال الثلاث السنين الماضية يدافع عن عمله المشئوم بأسخف الوسائل وأبعثها على الاشمئزاز .

وأتهم القائد مرسيه[٢] بأنه اشترك فى ارتكاب أشنع جريمة اقترفت فى التاريخ كله، وأكبر الظن أنه فعل ما فعل لخبال فى عقله .

وأتهم القائد بيلو[٣] بأنه كان يملك الأدلة القاطعة على براءة دريفوس، ولكنه أخفى هذه الأدلة وارتكب جريمة الخيانة العظمى ضد العدالة والإنسانية، مدفوعاً إلى ذلك بأسباب سياسية، وبالرغبة فى ستر جريمة هيئة أركان الحرب العامة

وأتهم القائدين بوادفر[٤] وجنز[٥] باشتراكهما فى هذه الجريمة نفسها، فأما أولهما

---

(١) Colonel du Paty de Sham
(٢) General Mercier
(٣) General Billot
(٤) General Boisdeffre
(٥) General Gonce

فكان مدفوعاً فى ارتكابها بأحقاد دينية ، أما ثانيهما فقد فعل ما فعل انتصاراً لزملائه .

وأتهم القائد ده پلبيه[١] والميجر رفرى[٢] بالتزوير فى التحقيق ، أقصد أن تحقيقهما كان أبعد ما يكون عن النزاهة ، وإن التقرير الذى يتضمن هذا التحقيق لهو الوقاحة المجسمة فى أبشع مظاهرها

وأتهم خبراء الخطوط الثلاثة : بلوم ، وڤاريتار ، وجوار[٣] بأنهم وضعوا تقارير كاذبة مزوّرة ، إلا إذا أثبت الفحص الطبى أنهم تعوزهم قوة الإبصار والقدرة على التمييز

وأتهم وزارة الحربية بأنها دبرت حملة دنيئة فى الصحف وبخاصة فى جريدتى لكلير « الضياء » ، والإكو[٤] « الصدا » ، لتضليل الرأى العام ولستر جرائمها

وأخيراً أتهم المحكمة العسكرية الأولى بأنها اعتدت على جميع الحقوق البشرية بحكمها على سجين بناء على أدلة بقيت سراً مخفياً عنه فلم يطلع عليها ؛ وأتهم المحكمة العسكرية الثانية بأنها سترت هذه المخالفة القانونية بأمر أصدرته ، وبأنها ارتكبت جريمة قضائية إذ برأت رجلا مذنباً رغم كامل علمها بجريمته

ولست أجهل أنى حين أتهم هؤلاء كلهم بما اتهمتهم به أعرض نفسى للعقاب بمقتضى المادتين ٣٠ و ٣١ من قوانين جرائم القذف الصادرة فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٨١ ، وهما المادتان اللتان تنصان على عقاب من يطعن فى الناس ، ولكنى أعرض نفسى باختيارى لهذا العقاب

أما الذين أتهمهم فإنى لا أعرفهم ، ولم أرهم قط ، ولست أشعر نحوهم بشىء من الكراهية أو الحقد ، وليسوا جميعاً بالنسبة لى إلا مجرد كائنات ورموز للإجرام الاجتماعى ، وليس العمل الذى أضطلع به هنا إلا خطوة ثورية يقصد بها التعجيل بانفجار بركان الحق والعدالة

وكل الذى أهدف إليه هو أن أزيح الستار عن هذه المأساة باسم الإنسانية التى أوذيت وطال صبرها ، والتى ترى أن السعادة من حقها . وليس احتجاجى الملتهب إلا صرخة

(١) General de Pelleux — (٢) Major Ravary

(٣) Gouarp, Varinard, Belhomme — (٤) L'Echo ، L'Eclair

صادرة من أعماق قلبي ، فليكن لديهم من الشجاعة ما يكفي لإرسالي إلى محكمة الاستئناف لتحقق معي في ضوء النهار الساطع .

وإني لمنتظر

وأرجو يا جناب الرئيس أن تقبل عظيم إجلالي

إميل زولا

* * *

وسيق زولا على أثر نشر هذا الخطاب إلى المحكمة بتهمة القذف الجنائي ؛ وكانت البلاد وقتئذ تغلي كالمرجل ، وقامت المظاهرات والاضطرابات في كل مكان ، وتعرض زولا وزملاؤه المدافعون عنه ، وكانوا كلهم من الأحرار النابهين ، لأشد أنواع الأذى من اعتداء الرعاع عليهم .

وحرّم على زولا وعلى المدافعين عنه أن يقدموا إلى المحكمة في أثناء الإجراءات الهزلية الهوجاء أية حقائق تتصل بقضية دريفوس نفسها . وأدين زولا بطبيعة الحال ، وحكم عليه بالسجن سنة وبغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك . ولكنه استطاع بمساعدة أصدقائه الأحرار أن يفر من سجنه وأن يهرب إلى إنجلترا .

وحدث في أثناء إقامة زولا في منفاه أن اعترف اللفتننت كولونل هنري[1] أحد كبار المتآمرين بأنه زور الوثائق التي قضت بإدانة دريفوس ، ثم انتحر بعد هذا الاعتراف ، وأقر إستر هازي نفسه بما كان له من يد في هذه المؤامرة .

وفي عام ١٨٩٩ استدعي دريفوس وهو معتل الصحة من جزيرة الشيطان بعد ست سنين من الحكم عليه ، وصدر عنه « عفو عن جريمة الخيانة » ، ولكنه لم يصدر عنه عفو شامل إلا في ٢١ يوليه سنة ١٩٠٦ ، حين أعيد إلى الخدمة في الجيش ، وبرئ من جميع التهم ، وأعيدت إليه شاراته العسكرية في نفس المكان الذي جرد فيه منها قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وعاد زولا بعدئذ ظافرا إلى فرنسا .

---

(١) Lieutenant Colonel Henry

وتطوع دريفوس للخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الأولى ، وعين فيها ضابطا فى المدفعية ، وأظهر شجاعة فائقة فى الدفاع عن باريس أولا ، وفى الجبهة الغربية ثانيا ، ثم صار أخيرا ضابطا فى فرقة الشرف ، وتوفى فى يوليه سنة ١٩٣٥ فى الخامسة والسبعين من عمره .

ويقول ولتر لتلفيلد[1] وهو من الذين يوثق بأقوالهم فى هذا الموضوع إن دريفوس « ظل إلى آخر أيامه يعتقد أنه لم يكن إلا ضحية خطأ قضائى شنيع ؛ ولكنه خطأ من السهل الوقوع فيه ، وإن معظم الشهود الذين جىء بهم ليشهدوا عليه وجميع القضاة الذين أدانوه قد أخطأوا غير أنهم كانوا أشرافا ... لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا أشرافا ولا مخطئين ، فقد كانوا على بكرة أبيهم يعلمون أن دريفوس برىء ، أو أنهم كان فى وسعهم على الأقل أن يصلوا إلى الحقيقة لو أنهم أرادوا أن يصلوا إليها . لقد كان دريفوس هو الضحية التى إختاروها لينفذوا فيها جريمة دنيئة يقصد بها القضاء على الجمهورية الفرنسية ... ومما هو جدير بالذكر أن دريفوس منع لابورى[2] أحد المدافعين عنه من إلقاء خطبة تكشف الستار عن المتآمرين وعن جرمهم الشنيع ، ولم يكن الدافع له إلى ذلك العمل خوفه من إغضاب القضاة وإثارتهم عليه ، بل كان ذلك الدافع هو حرصه على ألا تضيع الثقة بقيادة الجيش الفرنسى ، وعلى ألا يعرض على أنظار الألمان ما كانت عليه القيادة الفرنسية وقتئذ من انحلال وضعف معنوى ومادى ، والحق أن هذا الرجل كان ذا شخصية عجيبة غامضة لا يستطاع سبر أغوارها ... »

أما زولا نفسه فإنه لم ير فى حياته الرجل الذى دافع عن حريته دفاع الأبطال وضحى من أجله بكل شىء . ومات كاتب « إنى أتهم » فى عام ١٩٠٢ فى الثانية والستين من عمره .

(١) Walter Littlefield

(٢) Labori

هنرى پوانكاريه[١] ومارى كورى يوصيان جامعة زيورخ[٢] بأن تعين أينشتين أستاذا فيها

يحدث فى بعض الأحيان أن يكون الدليل على عبقرية إنسان ما هو قدرته على أن يكشف مخايل العبقرية فى غيره من الناس . وحسب هنرى پوانكاريه ومارى كورى دليلا على عبقريتهما أنهما تنبآ بما سيكون لأينشتين من شأن علمى فى المستقبل القريب . ذلك أن ألبرت أينشتين[٣] حين طلع على العالم فى عام ١٩٠٥ « بالنظرية الخاصة فى النسبية » وهو فى السادسة والعشرين من عمره « دعا غيره من العلماء ليبنوا على الأساس الذى وضعه » . وكان أينشتين وقتئذ شابا مغمورا يؤدى عملا عاديا رتيبا فى مكتب الرخص بسويسرا ، حتى إذا انقضت ساعات العمل الرسمية صرف وقته وجهده فى دراسة الضوء — فبدل النظريات العلمية من أساسها « ولم يكن لديه من الأجهزة العلمية وقتئذ إلا قلم و إضبارة من الورق »

ولم تسترع هذه النظرية وقتئذ إلا أنظار عدد قليل من العلماء والمفكرين ، وكان من بينهم العالم الكبير ماكس پلانك[٤] مكتشف نظرية الكم[٥] ، فبعث إلى أينشتين برسالة يثنى فيها على جهوده ويصف النظرية الخاصة فى النسبية بأنها « انقلاب خطير فى التفكير البشرى » .

وبعد مضى ست سنين من ذلك الوقت كان أينشتين رغم شهرته العالمية الآخذة فى الانتشار لا يزال يبحث عن وظيفة دائمة فى إحدى الجامعات . وفى هذا الوقت (عام ١٩١١) تقدم لمعونته اثنان من جلة العلماء فى ميدانه الخاص ، ميدان العلوم الطبيعية والرياضية ، هما هنرى پوانكاريه ومارى كورى ، وبعثا بالرسالة التالية التى تدل على عبقرية وبعد نظر منقطعى النظير . وقد كتب پوانكاريه الرسالة بيده ثم وقعها هو ومارى وأرسلاها إلى « معهد الاتحاد الفنى فى زيورخ » :

---

(١) Henri Poin aré (٢) Zurich (٣) Albert Einstein

(٤) Max Panlk (٥) The Qeuantum Theory

— ٥٦ —

« سيكشف المستقبل عن أدلة جديدة متتالية على مواهب الهر أينشتين »

[١٩١١]

الهر أينشتين من أعظم من رأينا من أصحاب العقول المبدعة ، وهو بالرغم من صغر سنه يشغل مكانا ممتازا بين أكابر علماء وقته . وأعظم ما نُدهش له من صفاته هو السهولة التى يكيف بها نفسه لقبول الآراء الجديدة ، وكثرة النتائج التى يستخلصها من هذه الآراء . فهو إذا واجهته نظرية طبيعية لا يتشبث بما لديه من أفكار ثابتة قديمة ، بل يدرك من فوره كل ما يمكن تصوره من الاحتمالات ، وسرعان ما تتحول هذه الاحتمالات إلى ظواهر جديدة مرتجاة ، قد تحققها الخبرة والتجربة الواقعية يوما ما . . . وسيكشف المستقبل عن أدلة جديدة متتالية على مواهب الهر أينشتين ، وما من شك فى أن الجامعة التى تفوز بضمه إليها سيشرفها اتصالها بهذا الأستاذ الناشئ .

هنرى بوانكاريه

مارى كورى

* * *

وطبيعى أن يكون لهذه التزكية البليغة القيمة أعظم الأثر لدى المعهد ، فضم إليه أينشتين فى عام ١٩١٢ ، وظل فيه حتى عام ١٩١٤ حين عين مديراً لقسم الطبيعة فى معهد القيصر ولهلم ببرلين . وبعد عام واحد من ذلك الوقت نشر نظريته العامة فى النسبية ولما يتجاوز السادسة والثلاثين . وأثارت هذه النظرية اهتمام العلماء على الفور ، ولكن جمهرة الناس بقيت لا تعلم عنها شيئا حتى عام ١٩١٩ ، إذ حققت اللوحات الشمسية التى صورت خسوف ذلك العام صحة آراء أينشتين ، فذاع صيته فى جميع الأوساط العلمية ، وكان الفضل فى ذلك لجهود كارفان أندا[١] محرر جريدة نيويورك تيمس[٢] ، وهو لحسن الحظ من كبار العلماء فى الفلك والرياضيات

(١) Carr Van Anda

(٢) New York Times

وجدير بنا أن نذكر أن ما أثنى به أينشتين على مارى كورى وهو قوله : « إن الشهرة لا يمكن أن تفسدها » ينطبق عليه هو كل الانطباق . فقد طبقت شهرته العلمية الخافقين ونال جائزة نوبل[1] فى الطبيعة فى عام ١٩٢١ . ولما غادر ألمانيا النازية فى عام ١٩٣٣ عين رئيساً لقسم الرياضيات فى معهد الدراسات العليا بمدينة برنستن[2] فى نيوجرسى[3] بالولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن هذه الشهرة العلمية لم تغير شيئاً من أخلاقه .

(١) Nobel Prize

(٢) The Institute for Advanced Study at Princeton,

(٣) New Jersey.

الكابتن ربرت فلكن اسكت يقول للشعب البريطانى :
إن «هذه المذكرات الساذجة وأجسامنا الميتة ستقص القصة كاملة»

سيظل اسم ربرت فلكن اسكُتْ [١] ، الضابط البحرى فى الأسطول البريطانى وأحد رواد القطب الجنوبى ، من أعظم الأسماء فى سجل الرواد الأبطال والشهداء الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل العلم . ولد ربرت اسكت فى عام ١٨٦٨ ، وانضم إلى رجال البحرية البريطانية وهو لا يزال غلاما ، وارتقى فيها بسرعة فائقة ؛ ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره نظم البعثة التى ذهبت لكشف القطب الجنوبى وسافر فعلا فى عام ١٩٠٢ . ودامت هذه الرحلة الأولى ثلاث سنين . ولم يفلح هذه المرة فى الوصول إلى غرضه ولكنه حصل فيها على معلومات علمية نافعة وتجارب عظيمة القيمة .

وبدأ رحلته الثانية إلى القطب الجنوبى فى عام ١٩١٠ ، ووصل فى هذه الرحلة إلى الأراضى الجنوبية الواسعة المكسوة بالجليد الدائم التى تحيط بها الجبال وتعصف عليها الرياح الشديدة ، والتى لا يقل سمك جليدها فى بعض الأماكن عن ألفى قدم .

وبعد عامين من بداية الرحلة ، أى فى الثامن عشر من يناير سنة ١٩١٢ ، وصل ومعه أربعة من رفاقه وهم ولسن ، وبورز ، وأوتس ، وإيفانز [٢] إلى القطب الجنوبى ، ولكنهم وجدوا أن أمندسن [٣] النرويجى قد سبقهم إليه بخمسة وثلاثين يوما . ذلك أن البحار النرويجى أخفى عن الناس غرضه الحقيقى ، وأعلن أنه ذاهب إلى القطب الشمالى ؛ ووصل إلى القطب الجنوبى فعلا فى الرابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩١١ . فلما ذهب اسكُتْ إلى هناك فى التاريخ السالف الذكر وجد خيمة أمندسن لا تزال مكشوفة غير مغطاة بالثلوج

وأثر ذلك السبق فى نفس اسكت بطبيعة الحال ، واتخذ هو ورفاقه سبيلهم راجعين إلى إنجلترا تحدوهم فكرة أنهم وصلوا فى رحلتهم إلى أبعد مما كان يتوقعه أكثر الناس تفاؤلا فى بداية الرحلة . ولكنهم لقوا حتفهم فى أثناء أوبتهم ؛ وقاسوا قبل موتهم ألوانا من العذاب صبروا

---

(١) Captain Robert Falcon Scott

(٢) Wilson, Bowers, Qates, Evans

(٣) Amundsen

عليها صبر الأبطال ، فقد نفدت مؤونتهم ، وتجمدت من البرد أطرافهم ، وعاشوا فى جو انخفضت حرارته إلى أربعين تحت الصفر ، وجملة القول أن موتهم كان مأساة من أشد المآسى فى التاريخ

وكتب اسكت فى مذكراته فى اليوم الثالث من شهر مارس يقول : « نسأل الله العون ، إننا لا نستطيع الاستمرار على بذل هذا الجهد ، هذا ما لا شك فيه . إننا ونحن مجتمعون لا تفارقنا البشاشة ، ولكن الله وحده يعلم حقيقة ما ينطوى عليه قلب كل منا » . وكان إيفانز أول من قضى نحبه منهم

وكتب بعد أسبوع من ذلك الوقت يقول : « قد نستطيع مع العناية الشديدة أن نجد لنا مخرجا ضيقا مما نحن فيه ، ولا أستطيع أن أرجو أكثر من هذا »

وكتب فى السادس عشر من شهر مارس « ... مامن شك فى أن النهاية ليست بعيدة » ، وفى اليوم التالى خرج أوتس عامداً وسط عاصفة ثلجية شديدة « ليموت بدل أن يكون كلا على رفاقه » . وكانت آخر كلماته : « إنى خارج وقد أغيب بعض الوقت » ، وكان فى الليلة السابقة قد نام وهو يأمل ألا يصحو من نومه ولكنه صحا فى الصباح

وكان آخر ما كتبه اسكت فى مذكراته اليومية قوله فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس بعد أسبوعين من صراع مرير مع البرد القارس والعواصف الثلجية : « يؤسفنى كل الأسف أنى عاجز عن مواصلة الكتابة . ر . اسكت » . ويلى ذلك هذه العبارة المحزنة : « أستحلفكم بالله أن تعنوا بأهلنا » .

وبعد ثمانية شهور من ذلك الوقت عثرت بعثة أرسلت للبحث عن اسكت على جثته وجثتى اثنين من رفقه على بعد خمسة عشر ميلا من أقرب مستودع للمؤن ، وكان ثلاثتهم داخل الأكياس التى يلبسونها وهم نائمون ، وكانوا مدفونين فى الثلج إلى نصفهم ، وإلى جانبهم كل ما كتبوه من وصف على لرحلتهم إلى الأقاليم القطبية الجنوبية ، وعدة رسائل كتبوها إلى أصدقائهم ، ورسالة من اسكت نفسه إلى الشعب البريطانى — وهى رسالة تفيض نبلا وشجاعة

وكان مع هذا كله مذكرة كتبها اسكت إلى صديقه سير جيمس م . برى[1] يقول فيها : « إنا نجاهد الآن فى مكان نلاقى فيه أشد الصعاب ... ونشهد الناس على أنه لا يزال فى مقدور الإنجليز أن يموتوا شجعانا ، وهم يكافحون إلى آخر لحظة من حياتهم ... واست أخشى عاقبة أمرنا بحال من الأحوال ، ولكن الذى يحزننى أن أحرم من كثير من أسباب السرور المتواضع الذى أعددته للمستقبل فى أثناء رحلتنا الطويلة . لعلى لم أبرهن على أنى من كبار الرواد ، ولكننا قمنا برحلة لم يقم بها غيرنا ، وكدنا نظفر فيها بنجاح عظيم » . وها هى ذى رسالة الوداع التى كتبها كابتن اسكت إلى بنى وطنه :

— ٥٧ —

« لا يزال فى مقدور الانجليز أنه يموتوا شجعانا ... »

[رسالة إلى الشعب البريطانى]

ليس سبب هذه الكارثة خطأ ارتكبناه فى التنظيم ، ولكن سببها مالازمنا من سوء الطالع فى اقتحام الأخطار التى كان لا بد من اقتحامها :

١ — إن مافقدناه من أمهار النقل فى مارس من عام ١٩١١ قد اضطرنى إلى أن أبدأ رحلتى بعد الوقت الذى حددته لبدايتها ، كما اضطرنى إلى إنقاص كمية المواد التى كنت أريد نقلها

٢ — لقد عاق سيرنا أثناء عودتنا سوء الأحوال الجوية وبخاصة العاصفة الطويلة الأمد التى هبت علينا عند خط ٨٣° من خطوط العرض الجنوبية

٣ — البطء الذى اضطرنا إليه الثلج اللين فى الأجزاء الجنوبية من أنهار الجليد

ولقد كافحنا هذه الأحداث القاسية بعزم ثابت وتغلبنا عليها ، ولكنها أثرت فيما كان لدينا من المؤن

لقد كان كل ما أعددناه من طعام ولباس وأدوات فى بسيط الجليد الداخلى ، وفى المسافة الطويلة التى تبعد عن القطب نحو سبعمائة ميل ، وافياً بالغرض إلى أبعد حد ؛ فاستطعنا بذلك أن نجتاز هذه المسافة فى الذهاب والعودة . وكان فى وسع فرقة الطليعة أن تعود إلى

(١) Sir James M. Barri

رأس النهر الجليدى على أحسن حال لولا عجز الرجل الذى كنا نظنه آخر من يعجز، فقد كنا نعتقد أن إدجر إيفانز أقوى رجال البعثة .

وليس من الصعب اجتياز نهر بيردمور الجليدى[١] فى الجو الصحو ، ولكننا لم يصادفنا فى أثناء عودتنا يوم واحد ذو جو صحو من أوله إلى آخره . وأقلق ذلك بالنا ، وزاد القلق مرضُ رفيقنا .

وقد سبق القول إننا صادفنا عاصفة جليدية هوجاء ، وقد أصيب إدجر إيفانز بارتجاج فى المخ — ثم مات ميتة طبيعية ولكنها ميتة اضطربت لها أعصابنا . وزاد هذا الاضطراب شدة أن فصل الشتاء حلّ متقدما عن المعتاد .

ولكن هذه الأمور السالفة الذكر كانت كلها تافهة إذا قيست إلى ما بوغتنا به عند الحاجز الجليدى . ويجدر بى هنا أن أؤكد مرة أخرى أن النظام الذى وضعناه لعودتنا كان نظاما محكما وافيا بالغرض من جميع الوجوه ، وأن إنسانا فى العالم كله ليس فى مقدوره أن يظن أننا سنلقى ما لاقيناه فى هذا الوقت من السنة من انخفاض فى الحرارة ومن عقبات فى سطح الأرض .

ذلك أن الحرارة فى أعلى المرتفعات قد انخفضت إلى — ٢٠° ، — ٣٠ عند خطى ٨٥° ، ٨٦° من خطوط العرض الجنوبية . أما فوق الحاجز[٢] نفسه عند خط ٨٠ من خطوط العرض — وهو ينخفض عن المكان السابق بعشرة آلاف قدم — فقد كانت درجة الحرارة على الدوام تقريبا — ٣٠ فى النهار ، — ٤٧ فى الليل . وكانت الرياح تهب بقوة فى وجهنا أثناء سيرنا طوال النهار . ومما لا جدال فيه أن هذه الأحوال تحدث فجاءة ، ولهذا فإن هلا كنا يرجع من غير شك إلى ما فوجئنا به من جو قاس لا يمكن معرفة أسبابه على وجه التحقيق . ولست أظن أن إنسانا مر به شهر من الشهور كالذى مر بنا فى هذه الرحلة ، وكان فى وسعنا أن نخرج من هذه المحنة سالمين رغم هذا الجو القارس لولا مرض زميل آخر من زملائنا هو الكبتن أوتس ولولا نقص ما كان فى مستودعاتنا من وقود

---

(١) Beardmore Glacier

(٢) The Barrier

نقصا لا أعرف له سبباً ، ولولا العاصفة التي هبت علينا على بعد أحد عشر ميلا من المستودع الذي كنا نرجو أن نحصل منه على آخر ما نحتاجه من مؤن .

وما من شك في أن هذه الكارثة الأخيرة كانت أعظم ما أصابنا من الكوارث في رحلتنا ؛ ذلك أننا أصبحنا على بعد أحد عشر ميلا من معسكرنا القديم — معسكر الطن الواحدة —[1] وكان فيه من الوقود ما نستطيع به إعداد وجبة واحدة من الطعام ، ومن الأغذية ما يكفينا يومين كاملين .

وظلت العاصفة الهوجاء تهب من حولنا أربعة أيام كاملة عجزنا في أثنائها عن مغادرة خيمتنا . ونحن الآن ضعاف والكتابة صعبة ، ولكنني لست آسفا على قيامي بهذه الرحلة التي أثبتت أن في مقدور الإنجليز أن يتحملوا الصعاب ، وأن يعين بعضهم بعضاً ، وأن يلاقوا الموت بصبر واطمئنان شأنهم في جميع عهودهم السابقة . لقد عرضنا أنفسنا للأخطار وكنا نعلم أننا معرضون لها ؛ ولقد عاكستنا الظروف ، ومن أجل هذا لا نجد ما يدعو إلى الشكوى ، ولكننا نخضع لإرادة الله ولا نزال مصممين على أن نبذل كل ما نستطيع بذله من الجهود إلى آخر رمق من حياتنا . وإذا كنا قد رضينا بأن نضحي بحياتنا في هذا العمل العظيم ، وهو عمل تشرف به بلادنا ، فإني أهيب ببني وطني أن يرعوا من نعولهم وأن يعنوا بهم خير عناية .

ولو مد الله في حياتنا لاستطعت أن أقص على الناس ما اتصف به رفاقي من صلابة وجلد وشجاعة نادرة يهتز لها طرباً قلب كل إنجليزي ؛ وهذه المذكرات الساذجة وأجسامنا الميتة ستقص القصة كاملة ، ولكني لا يخالجني شك في أن بلدا له من الثراء ما لبلدنا سيعنى العناية الواجبة بمن كنا نعولهم

ر . اسكت

***

ودفن الكابتن اسكت ورفاقه تحت الخيمة التي وجدت فيها أجسامهم في سهل يغطيه الجليد بعد أن قطعوا نصف الطريق عائدين من القطب الجنوبي

ولم يذهب نداؤه الأخير إلى الشعب البريطاني صرخة في واد ، فما كاد محافظ لندن يدعو إلى الاكتتاب لأسر الموتى حتى تجمع لديه نصف مليون ريال ، خصص جزء منه

(١) The One Ton Camp

لإعداد الرحلات الذاهبة إلى الأقاليم القطبية الشمالية والجنوبية ووضع تحت تصرف « معهد اسكت للأبحاث القطبية[١] » فى كمبردج . ويوجد تمثال نصفى للكبتن اسكت من صنع أرملته بين الآثار التى خلفها أبطال من طراز اسكت وأمندسن وشكلتن[٢] . وكتبت على واجهة المعهد السالف الذكر بأحرف لاتينية ضخمة لا يقل ارتفاعها عن ثلاث أقدام « ذهب يبحث عن أسرار القطب فعرف أسرار الله »

(١) The Scott Polar Research Institute

(٢) Shackleton

تيودور روزفلت يضع منهجا صارما للولايات المتحدة

[رسالة إلى مسز وليم برون ملُونى]

لم يكن تيودور روزفلت[١] فى يوم من الأيام يعنى بالأمور السياسية وحدها . فقد ارتاد مجاهل الغابات الإفريقية ، وأقاليم البرازيل الاستوائية ، ورسم خريطة لنهر سمى فيما بعد نهر تيودور « ريو تيودور »[٢] ، وكتب تاريخا لحرب عام ١٨١٢ ولمدينة نيويورك ، واشتغل بالصحافة ، ودعا لإصلاح نظام الموظفين المدنيين ، ونظم القوات الأمريكية فى الحرب الأسپانية الأمريكية وحاول أن يعمل هذا العمل نفسه فى الحرب العالمية الأولى

وكان روزفلت من أشد الناقدين لسياسة التردد التى سار عليها الرئيس ولسن ، لأنه كان يعتقد أن الولايات المتحدة ستشتبك حتما فى الحرب العالمية الأولى يوما من الأيام ؛ ولهذا أخذ يدعو للاستعداد لذلك اليوم . ولما أغرق الألمان السفينة لوزيتانيا[٣] أخذ يندد بالألمان ويدعو مواطنيه للثأر منهم ، ولم يكن يعتقد أن هناك خطة وسطا بل كان الأمر لديه إما صوابا وإما خطأ ، خيرا أو شرا ، أسود أو أبيض .

وكان روزفلت قد طاف بأوربا وزار ألمانيا فى عام ١٩٠٩ — ١٩١٠ ، ولما عاد بعد رحلته قال عنها إنها البلد الوحيد فى أوربا الذى شعر فيه « بأن كل رجل وكل امرأة وكل طفل عدوّى الطبيعى — أى عدو بلادى » . ولما رأى الخطر الألمانى يتهدد أمريكا فى بداية الحرب العالمية الأولى عاد إلى ذاكرته ما كان يشعر به من حقد على الألمان فى أثناء رحلته ، فكتب رسالته التالية إلى مسز وليم برون ملونى[٤] الكاتبة المشهورة يصف لها ما تحتاج إليه أمريكا فى ذلك الوقت حتى تكون متأهبة لساعة الخطر :

---

(١) Theodore Roosevelt (٢) Rio Teodore (٣) Lusitania
(٤) Mrs William Brown Melony

— ٥٨ —

« ... يمنعنا كبرياؤنا أن نظلم الناس أو نرضى بالظلم ... »

فى ٥ إبريل سنة ١٩١٦

عزيزتى مسز ملونى :

إن أمريكا فى حاجة إلى أشياء كثيرة ليت العناية الإلهية تمن بها عليها ! و إليك بعض هذه الأشياء :

١ — أن يقبض على كل داعيـة للسلم محترف متردد يحول كبرياؤه بينه و بين الحرب دفاعا عن قضية الوطن إذا كانت عادلة ، ويُنفى إلى تلك الأصقاع النائية ... التى لم تدخل فيها بعد روح الشهامة والرجولة

٢ — أن يكون لكل شاب مهذب أسرة وعمل ، وأن يدرب تدريبا عسكريا يمكنه من أن يبعد خطر الحرب عن هذه البلاد ، ويُشْعِر كل شعب عسكرى خلا قلبه من الرحمة بما يتعرض له من الخطر إذا هاجمنا

٣ — أن يكون لكل فتى أم صالحة عاقلة ، وأن يكون لكل امرأة صالحة طفل تحمله بين ذراعيها

٤ — أن نكون كلنا شعباً قويا محبا لوطنه ، نبيلا فخوراً ، يمنعنا كبرياؤنا أن نظلم الناس أو نرضى بالظلم ...

أسعد الله أوقاتك

صديقك المخلص على الدوام

تيودور روزفلت

* * *

ولما دخلت الولايات المتحدة الحرب عرض روزفلت على الأمة خدمته وخدمة أولاده الأربعـة ، وطلب أن يتولى بنفسه قيادة إحدى الفرق فى الجيش . غير أن صحته أخذت فى

الضعف بعد عودته من البرازيل ، فاضطره ذلك إلى أن يدخل المستشفى وأن تجرى له عملية جراحية . ولهذا رفضت الحكومة خدماته العسكرية . ولما مات ابنه كونتن[١] فى الحرب برح به الحزن وزاد من حماسته للقضية الأمريكية . ومن ذلك الوقت أخذ الحزب الجمهورى يعده أجدر أعضائه بتولى رياسة الجمهورية فى عام ١٩٢٠ ، ولكن المنية عاجلته فتوفى وهو نائم فى ٦ يناير سنة ١٩١٩

(١) Quentin

ليون تروتسكي يحذر رفيقا اشتراكيا من الحوادث الرهيبة المقبلة

كتبت هذه الرسالة قبل اشتعال نار الثورة الروسية بسنة واحدة ، وفيها يتنبأ أحد زعيمى هذه الثورة وواضعى خططها بالطريق التى ستسلكها لتصل بها إلى مقاصدها . وهى إلى هذا شرح واضح للنظرية الاشتراكية فى الحرب والسلم ، والآراء الثورية التى كانت مبعث هذه الأزمة التاريخية العظيمة ونتيجة من نتائجها .

وقد ولد كاتبها ليون تروتسكي[١] فى عام ١٨٧٧ ، وقبضت عليه السلطات الروسية أول مرة لنشاطه الثورى وهو فى سن الحادية والعشرين ، لأن الثورة « كانت أباه وأمه » ونفى إلى سيبيريا ولكنه فر إلى إنجلترا وفيها التقى بلينين[٢] .

واستطاع أن يعود إلى روسيا فى عام ١٩٠٥ ، واختير على أثر عودته رئيسا لسفيت بطرسبرج ، وأخذ ينشر نظرية « الثورة العامة الدائمة » لأنه كان يعتقد أن الثورة لا تنجح إذا قامت فى بلد واحد . وقبض عليه مرة ثانية ولكنه فر إلى فيانه ، وظل طول حياته زعيما ثوريا نشيطا ينشر مبادئه حيثما حل ، وكان إلى هذا جنديا قديرا وسياسيا محنكا ورفيقا للينين ، ثم صار فى منفاه الأخير مؤرخا لحوادث الثورة التى أشعل نارها وخاض غمارها .

والرسالة التالية قريبة العهد بالحوادث التى تصفها ، وفيها ترى الماضى والمستقبل يصطرعان شأنها فى ذلك شأن « تاريخ الثورة الروسية » الذى كتبه بنفسه .

وقد بعث تروتسكى بهذه الرسالة إلى رفيق اشتراكى قديم من أبناء فرنسا يدعى چول جود[٣] وذلك حين أخرج هومن فرنسا بأمر الوزارة الائتلافية القومية التى قامت فيها أثناء الحرب ، والتى اشترك فيها جود وتخلى عن مبادئه المتطرفة القديمة . وكتبت الرسالة فى باريس قبيل الوقت الذى اعتزم فيه أن يغادرها إلى سويسرا . غير أن الحكومة السويسرية رفضت آخر الأمر أن تسمح له بدخول بلادها . فاستبدل بها أسپانيا .

---

(١) Leon Trotsky (٢) Lenin (٣) Jules Guesde

ولم تكن « الأيام العشرة التى زلزلت أركان العالم » فيما بعد غير بعيدة ، وها هو ذا الرجل الذى أعان لينين على إدارة أعمال الثورة فى خلال هذه الأيام المفعمة بالحوادث يبسط مبادئه وعقيدته إلى زميل ثورى قديم فى رسالة من أقوى الرسائل . وكان تروتسكى يشعر بأن چول قد خان زميلا قديما ، وخان المبادىء الاشتراكية الأساسية ، ونكث عهده ، وأساء إلى سمعته ، فكتب إليه يقول :

— ٥٩ —

« إننا نتوقعها ونتعبدها ونتأهب لها »

باريس فى ١١ اكتوبر سنة ١٩١٦

إلى المسيو چول جود وزير الدولة

أرى من واجبى ، قبل أن أغادر أرض فرنسا فى حراسة رجل من رجال الشرطة يمثل الحريات التى تقوم أنت فى الوزارة القومية على حمايتها ورعايتها ، أن أعبر لك عن بعض آراء قليلة أكبر الظن أنها لن تكون ذات فائدة لك ، ولكنها ستكون على الأقل ذات فائدة ضدك . إن زميلك وزير الحربية حين طردنى من فرنسا لم ير من اللائق به أن يبين الأسباب التى من أجلها حرم نشر صحيفة ناشى سلوڤو (كلمتنا)[1] الروسية التى كنت أحد محرريها ، والتى ظلت عامين كاملين تقاسى الأمرين من عنت الرقابة القاسية التى تعمل تحت إمرة هذا الوزير نفسه .

على أننى لا أخفى عنك أنى لا أرى فى أسباب طردى من فرنسا سرا يخفى علىّ . لقد شعرتم بالحاجة إلى اتخاذ إجراءات صارمة بإزاء أحد رجال الاشتراكية الدولية ، أى بإزاء رجل من الذين لا يرضون أن يدافعوا عن الحرب الاستعمارية أو أن يكونوا عبيدا لها طائعين

ومع أن أسباب هذا العمل لم تعلن إلىّ ، وهى تخصنى دون غيرى ، وهى موجهة إلىّ ، فإن المسيو بريان أعلنها إلى النواب و إلى الصحفيين .

فقد قيل إن جماعة من الجنود الروس تمردوا فى مرسيليا فى شهر أغسطس الماضى وقتلوا

---

(١) Nashe Slovo

ضابطهم ، وقيل إن التحقيق أثبت أن عددا من هؤلاء الجند قد ضبطت معهم نسخ من جريدة ناشى سلوفو . وسواء صح هذا أولم يصح فإنه هو الذى يقوله المسيو بريان[١] فى حديث له مع النائب لنجيه[٢] ومع مسيو ليج[٣] رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب ، وهو الذى أذاع هذا الحديث على الصحفيين الروس المنتمين إلى طبقة الملاك .

على أن المسيو بريان لم يجرؤ على أن يلقى تبعة قتل هذا الضابط على ناشى سلوفو التى كانت خاضعة لرقابته ؛ ولعل تفكير المسيو بريان كان يسير على النمط الآتى :

« إن وجود جنود روسيين فى أرض فرنسا يحتم علينا أن نكتسح ناشى سلوفو ومحرريها من أرض الجمهورية ، لأن الصحيفة الاشتراكية التى تأبى أن تذيع الأوهام والأكاذيب قد تسمم عقول الجنود الروس على حد قول المسيو رنودل[٤] المأثور وتقودهم إلى الطريق الخطر طريق التفكير . »

لكن مسيو بريان لسوء حظه بنى آراءه على خطأ تاريخى فاضح ؛ ذلك أن جستاف هيرفيه[٥] كتب من عام واحد ، وكان لا يزال وقتئذ عضوا فى اللجنة الإدارية الدائمة لحزبكم ، يقول إنه إذا أخرج مالفى[٦] من أرض فرنسا أولئك اللاجئين الروس ذوى الأفكار الثورية الدولية فإنه — أى هيرفيه نفسه — يؤكد أن الرأى العام الذى يسيطر هو عليه يقبل هذا العمل من غير معارضة . وما من شك فى أن هيرفيه قد نزل عليه هذا الوحى فى حجرة من حجر الوزراء . وفى آخر شهر يولية نطق هيرفيه نفسه بصفة شبه رسمية بأنى يجب أن أطرد من فرنسا .

وحدث حوالى هذا الوقت نفسه — أى قبل أن يقتل الضابط فى مرسيليا — أن الأستاذ دركهيم[٧] رئيس لجنة اللاجئين الروس المعين من قبل الحكومة — أبلغ أحد ممثلى هؤلاء اللاجئين أن ناشى سلوفو سوف تعطل ، وأن محرريها سوف يخرجون من البلاد (أنظر ناشى سلوفو عدد ٣٠ يولية سنة ١٩١٦)

إذن فقد كان كل شىء معداً من قبل بما فى ذلك الرأى العام الذى يسيطر عليه المسيو

---

(١) M. Briand (٢) Longuet (٣) M. Leygues (٤) M. Renaudel
(٥) Gustave Hervé (٦) Malvy (٧) Durkheim

هيرقيه . ولم يكونوا ينتظرون إلا حجة يتذرعون بها ليضربوا الضربة الأخيرة . وسرعان ما وجدوا هذه الحجة : فقد أقدم الجنود الروس سيئو الحظ فى الوقت المناسب على قتل ضابطهم — وكانوا فى ذلك يعملون لمصلحة بعض الناس .

وهذا الاتفاق الموفق يدعونى إلى أن أفترض فرضا قد يسىء إلى مركزكم الجديد المتواضع فى الوزارة . ذلك أن الصحفيين الروس الذين عنوا ببحث حادث مرسيليا عناية خاصة قد أثبتوا بالدليل القاطع أن أحد المحرضين السياسيين كانت له يد فعالة فى هذا الحادث ، شأنه فى ذلك شأن جميع الحوادث المماثلة له تقريبا .

وليس من العسير أن نعرف الغرض الذى يبغيه هذا المحرض من عمله هذا ، أو بالأحرى غرض الأوغاد المأجورين بالمال الوفير الذين دفعوه إلى هذا العمل . لقد كانوا فى حاجة إلى عمل عدوانى من نوع ما يرتكبه الجنود الروس ليبرروا به من جهة حكم السياط الذى لا يزال بغيضا بعض الشىء لولاة الأمور الفرنسيين ، وليكون من جهة أخرى حجة يستندون عليها فى إجراءاتهم حيال اللاجئين الروس ، الذين يتخذون كرم الفرنسيين وسيلة لإفساد ضمائر الجنود الروس فى إبان الحرب — على حد قولهم .

وليس يصعب علينا أن نقر بأن مدبرى هذه المؤامرة لم يكونوا هم أنفسهم يعتقدون أنها ستصل إلى الحد الذى وصلت إليه ، أو أن هذا كان هو الغرض الذى يهدفون إليه . وأكبر الظن أنهم كانوا يرجون أن يصلوا إلى نتائج أعظم من التى وصلوا إليها بتضحيات أقل من التى ضحوا بها . لكن هذا العمل وأمثاله ينطوى دائما على عنصر من عناصر الخطر يحيق بالقائمين به . على أن الضحية فى هذه المرة لم تكن ذاك المحرض السياسى نفسه ، بل كانت الضابط كروس[1] والذين قتلوه . وحتى الصحفيون الروس الوطنيون من المعادين لناشى سلوفو لم يترددوا فى الجهر بأنهم لا يستبعدون أن يكون هذا المحرض السياسى نفسه قد أعطى الجنود الروس نسخا من صحيفة ناشى سلوفو فى الوقت المناسب .

وكل الذى أطلبه إليك أيها الوزير أن تحاول إجراء تحقيق فى المسألة يسير فى هذا الطريق الذى رسمته مستعيناً على ذلك بمسيو مالفى . ستقول إنك لا ترى فائدة من هذا التحقيق ولست أخفى عنك أننى أنا أيضا لا أرى فائدة فيه . وإذا شئت أن

(١) Krause

أكون صريحا معك قلت لك إن سبب هذا هو أن المحرضين المأجورين لم من القيمة في أعمال « الدفاع الوطنى » المزعوم ما للوزراء الاشتراكيين إن لم يكونوا أكبر قيمة منهم . وقد بقى عليك أنت ياچول جود بعد أن توليت أمور السياسة الخارجية فى الجمهورية الثالثة ، وأخذت على عاتقك تبعة الحلف الفرنسى الروسى ومايترتب عليه من عواقب ، وأطماع القيصر الاستعمارية وكل ماتهدف إليه الحرب من أغراض وما تستعين به من وسائل — أقول قد بقى عليك بعد هذا كله أن تقبل ، مع الفصائل الرمزية من الجنود الروس ، الأعمال الرمزية التى يقوم بها الدساسون المأجورون من عمال جلالة القيصر .

لقد تفضل سمبات[١] أقرب زملائك إليك فأشار للصحفيين الروس فى بداية الحرب ، حين كانت الوعود تبذل بسخاء ذات اليمين وذات الشمال ، إلى ما سيكون للديمقراطيات المتحالفة من تأثير حسن فى نظام الحكم فى روسيا . وكانت هذه الحجة فضلا عن ذلك أقوى الحجج التى استعان بها الاشتراكيون الحكوميون فى فرنسا و بلچيكا على الدوام للتوفيق بين القيصر والثوريين الروس ، ولكنها لم تجدهم نفعا

غير أن التعاون الحزبى الذى لم تنقطع أسبابه ستة وعشرين شهراً ، والاتصال الدائم طوال هذه المدة بين كبار القواد العسكريين ورجال السياسة والنواب ، وزيارات ڤيڤيانى[٢] وتومس[٣] إلى ساركوسيلو[٤] ، وقصارى القول إن ستة وعشرين شهراً من « تأثير » الديمقراطيات الغربية فى القيصرية الروسية لم تفلح إلا فى تثبيت دعائم أكثر أنواع الرجعية غطرسة واستبداداً فى بلادنا ، ولم يخفف من استبدادها إلا الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع فروع الإدارة ؛ وأفلحت فى الوقت نفسه فى تبديل نظام الحكم فى إنجلترا وفرنسا حتى أصبحتا ولا فرق فى ذلك بينهما و بين الروسيا ، وليست وعود سمبات كما نرى بأكثر قيمة من لحمه . وليس أدل على حكم الإرهاب الذى يسيطر عليه رجال الشرطة والعسكريون على جانبى القناة الإنجليزية من الضربة التى أصابت حق اللاجئين السياسيين فى البلدين

وخير من يمثل روح هذه الحرب ومقدار انطباقها على الحق والعدالة والمبادئ الأخلاقية العالية ، وما يسيطر عليها من شهوات فردية وطائفية — أقول إن خير من يمثل روح هذه

---

(١) Sembat (٢) Viviani (٣) Thomas (٤) Tsarkoe Selo

الحرب رجلان أولها لويد چورج جلاد دبلن الاستعماري الصميم الذى له خُلق كخلق القس السكير؛ وثانيهما أرستيد بريان ، وأنا أحيلك ياچول جود على مقالاتك التى كتبتها فى الأيام الخالية ، إذا شئت أن تعرف أخلاقه . وهل ثمة أجدر من مسيو استرمر[١] ، هذا الألمانى الروسى الصميم الذى شق طريقه فى الحياة بتملق رجال الدين والتذلل إلى رجال البلاط الحمقى المتعصبين ، بأن يكون شريكا لمستر لويد چورج ومسيو بريان ؟ لعمرى إنه لثالوث فذ لم أر له مثيلا قط . وما من شك فى أن التاريخ لم يكن يستطيع أن يجود بزملاء ورؤساء لجود الوزير خير من هؤلاء .

وهل فى مقدور اشتراكى شريف ألا يقف فى وجهك ويقاتلك ؟ لقد قلبت الحزب الاشتراكى إلى جوقة طيعة تردد نغمات اللصوص الرأسماليين بعد أن حسر المجتمع الرأسمالى — الذى كنت أنت ياچول جود ألد أعدائه — عن لثامه وكشف عن حقيقة أمره . وقد عجزت أنت يا چول جود عن أن تفيد من الحوادث التى تتابعت على العالم وأشاعت فيه الخراب والدمار ، والتى طالما تنبأنا نحن بنتائجها ، أو من الدماء التى أريقت والعذاب والآلام التى قاستها الإنسانية ، ومن الجرائم التى ارتكبت ، ومما اقترفته الحكومات من أوزار ، وما انتهبته من أموال ، عجزت عن أن تفيد من هذا كله إلا عبرة واحدة لقنتها للطبقة العاملة الأجيرة من الفرنسيين ، وهى أن غليوم الثانى[٢] وفرانزچوزف[٣] مجرمان لم يرعيا حرمة القانون الدولى وقواعده كما يرعاها نيقولا الثانى[٤] وبوانكاريه[٥] .

ونشأ جيل جديد من الشبان يبلغ الملايين عدا ، أيقظت ضمائرهم لأول مرة كوارث الحرب وأهوالها ، ولكنهم لا يعرفون من أسباب هذه المجزرة التى يخوض غمارها العالم القديم إلا ما ينبئهم به الكتاب الأزرق الذى أصدره دلكاسيه[٦] وبوانكاريه وبريان . وأما أنت يازعيم العمال القديم فتخر راكعا أمام هذا الإنجيل المنزل للشعوب ، وتنبذ كل ما تعلمته وعلمته فى مدرسة الصراع بين الطبقات .

وقد وَجَدت الاشتراكية الفرنسية صاحبة الماضى المجيد ذى الأعمال التى تجل عن

---

(١) M. Sturmer (٢) William II (٣) Franz Joseph امبراطور النمسا وقتئذ
(٤) Nicholas II قيصر الروسيا (٥) Poincaré (٦) Delcassè

الحصر ، وذات التاريخ الحافل بالمقاتلين والشهداء — وَجَـدَت هذه الاشتراكية من بنيها آخر الأمر رنودل[١] يترجم فى أشـد عصور التاريخ هولا ما حواه الـكتاب الأزرق من آراء سامية إلى لغة سخافة هى والـكتاب الأزرق سواء .

أجل لقد وجدت اشتراكية بابوف[٢] ، وسانت سيمون[٣] ، وفورييه[٤] و بلانكى[٥] ، وچول جود — نعم وچول جود أيضا — وجدت هذه الاشتراكية آخر الأمر فيها رجلا كألبرت توماس[٦] يتشاور مع رومانوف فى أضمن الوسائل للاستيلاء على الأستانة ، ووجدت رجلا مثـل مارسل سمبات[٧] يطأ بقدميه دون حيـاء أو مبالاة أنقاض المدنية الفرنسية وخرباتها ، ووجدت چول جود — نعم وجدته هو أيضا — يسير فى ركاب بريان الظافر .

وكنت أنت تعتقد ، وكنت تأمل ، أن العمال الفرنسيين الذين استنزفت دماؤهم فى هذه الحرب الطاحنة التى ليس لهـا معنى ولا يرجى منهـا خير ، تدفعهم إليها جريمة الطبقات الحاكمة — كنت تعتقد وكنت تأمل أن هؤلاء العمال سيظلون هادئين قانعين راضين عن هذا الائتلاف الشائن بين الاشتراكية الرسمية وألد أعداء الطبقات العاملة . لقد أخطأت فى اعتقادك وخاب رجاؤك ، فقد نهضت المعارضة ، وها هى ذى تلك المعارضـة الثورية تتقدم خطوة خطوة وتثبت أقدامها كل يوم فى وجه الأحكام العرفية وجنون القومية التى تحتفظ على الدوام بطابعها الرأسمالى مهما تكن صورتها ، سـواء كانت ملـكية أو جمهورية متطرفة أو اشتراكية .

وعاشت ناشى سـلوفو الصحيفة التى كتمت أنفاسها وتنفست فى جو الاشـتراكية الفرنسية المستيقظة . ذلك أنها بعد أن انتزعتها من أرض روسيا ثورة معارضة انتصرت بفضل بيوت المال الفرنسية — التى تخدمها الآن يا چول جود — جاءت إلى هذه البلاد وكان لها فضل ترديد صوت الشعبة الفرنسية من الدولية الجديدة ، التى بدأت ترفع رأسها بعد فظائع الحرب الطاحنة وويلاتها — مهما يكن هـذا الصوت ضعيفا بسبب القيود التى فرضتهـا عليها الرقابة .

---

(١) Renaudel (٢) Babeuf (٣) Saint Simon (٤) Fourier
(٥) Blanqui (٦) Albert Thomas (٧) Marcel Sembat

ومن دواعى فخرنا أننا نحن « الأجانب غير المرغوب فيهم » ، الذين ربطنا مصيرنا بمصير المعارضة الفرنسية ، قد تلقينا أولى الضربات التى كالتها حكومتك — حكومتك ياچول جود — لهذه المعارضة ومن يتصلون بها .

وإنا ليشرفنا نحن ومونات[1] ، ومرهيم[2] ، وسومونو[3] ، وروزمر[4] وبوردرن[5] ، ولوريو[6] ، وجلبو[7] وكثيرين غيرهم أن نتهم جميعاً بأنا من الموالين للألمان . فلقد ظلت صحيفة « باريس » الأسبوعية ، التى يصدرها صديقك بلخانوف[8] الذى قاسمك حظك من المجد كما يقاسمك الآن حظك من السقوط ، أسابيع متتالية تشى بنا إلى شرطة مستر ملفى وتتهمنا بأنا نعمل لحساب هيئة أركان الحرب الألمانية العامة . ولقد كنت فى وقت من الأوقات تعلم قيمة هذه التهم وأمثالها ، لأنك أنت نفسك قد نلت ذلك الشرف الرفيع بأن كنت هدف سهامها . أما الآن فإنك راض عن أعمال مسيو مالفى مؤيد لها ، تقبل أن تلخص لحكومة الدفاع القومى التقريرات التى تحويها قماطره ، ولو أنك اطلعت على ملفاتى السياسية لوجدت فيها حكماً حديثاً بالسجن صادراً على من محكمة ألمانية فى أثناء هذه الحرب ، لأنى هاجمت السلطة الشرعية وازدريتها فى نشرتى « الحرب والدولية » .

لكننى ما زلت أعتقد أن من حقى أن أؤكد أننا نحن الثوريين الدوليين أعداء الرجعية الألمانية وأشد خطراً عليها من حكومات الحلفاء كلها مجتمعة ، حتى إذا غضضنا النظر عن هذا العمل الوحشى الذى يجب أن يكون له بعض الأثر حتى فى عقول المسيو ملفى ومن على شاكلته من رجال الشرطة .

ذلك أن عداء هذه الحكومات ليس فى حقيقة أمره إلا خلافاً بسيطاً بين متنافسين ، أما كراهيتنا الثورية للطبقة الحاكمة الألمانية فهى كراهية أبدية باقية على مر السنين .

وليس ببعيد أن يجمع التنافس الاستعمارى بين الإخوان أعداء اليوم ؛ فإذا ما قدر للخطط التى وضعها الحلفاء للقضاء على ألمانيا أن تنجح ، فإن إنجلترا وفرنسا ستمدان أيديهما بعد عشر سنين إلى دولة آل هوهنزلرن لتستعينا بها على حمايتهما من قوة روسيا الهائلة .

---

(١) Monatte (٢) Merrheim (٣) Soumoneau (٤) Rosmer
(٥) Bourderon (٦) Loriot (٧) Guilbeaux (٨) Plekhanov

وسنرى رئيسا للوزارة الفرنسية ، يشغل المكان الذى يشغله بوانكاريه ، يتبادل برقيات التهنئة مع غليوم أو خليفته ، ورئيسا للوزارة البريطانية من أمثال لويد جورج يرفع عقيرته بلغة القساوسة والمصارعين يسب الروسيا ويتهمها بأنها حصن الهمجية والعسكرية الحصين . وسوف يتقبل ألبرت تومس حين يصبح سفير فرنسا لدى قيصر الألمان طاقات الزهر تقدمها إليه نساء البلاط فى بقصدام كما تقبلها منذ قليل من دوقة ساركو سيلو[1] .

وستزداد خطب هذه الأيام ومقالاتها السخيفة حماسة على حماستها ؛ ولن يحتاج مسيو رنودل إلى أكثر من أن يغير ما فى مقالاته من أسماء ، وهو عمل لا تعجز عنه مواهبه .

أما نحن فسنبقى كما كنا فى الماضى وكما نحن الآن ألد أعداء الطبقة الألمانية الحاكمة ، لأن كرهنا للرجعية الألمانية لا يقل عن كرهنا الثورى الذى تنطوى عليه قلوبنا للقيصرية الروسية أو البلوتوقراطية الفرنسية . وأنت وأتباعك من الصحفيين حين تجرؤون على أن تنظموا عقود المدح لليبنخت[2] ، ومهرنج[3] ، ولكسمبرج[4] ، وزتكين[5] لأنهم ألد أعداء آل هوهنزلرن ، لا تستطيعون أن تنكروا أنهم يعتنقون مبادئنا ، وأنهم رفقاؤنا فى السلاح . فنحن وهم أحلاف وأعداء لكم ولسادتكم ، تجمعنا وحدة الكفاح الثورى التى لا تنفصم عراها أبد الدهر .

ولعلك تعزى نفسك باعتقادك أننا قليلو العدد . لكننا فى واقع الأمر أكثر عددا مما يظن رجال الشرطة على اختلاف طبقاتهم . إن أولئك الموظفين قد عميت بصائرهم فهم لا يشعرون بروح الثورة التى تتأجج نيرانها فى كل قلب معذب ، والتى تنتشر فى جميع أنحاء فرنسا وفى طول أوربا وعرضها ، وفى كل ضاحية يسكنها العمال ، وفى كل قرية من قرى الريف ، وفى كل خندق فى ميدان القتال .

لقد ألقيتَ لويز سومنو[6] فى سجن من سُجونك فهل تظن أنك أضعفت بعملك هذا جهود المستبلدين التى تبذلها نساء هذه البلاد ؟ وفى وسعك أن تقبض على المئات من أتباع

---

(١) Tsarkoe Selo (٢) Liebknecht (٣) Mehring (٤) Luxemburg

(٥) Zetkin (٦) لويز سومنو زعيمة الشعبة النسائية من الاشتراكية الفرنسية ، سجنت بسبب نشاطها المضاد للحرب ثم انضمت إلى الحزب الشيوعى بعد تأليفه ، وأخرجت منه فى عام ١٩٢٥ لمناصرتها لتروتسكى

زمروالد[1] بعد أن أمرت صحافتك أن ترميهم بأشنع السباب التي يندها بها رجال الشرطة ؛ ولكن هل في مقدورك أن ترد الأزواج إلى زوجاتهم ، والأبناء إلى أمهاتهم ، والآباء إلى أبنائهم ؟ وهل في طاقتك أن ترد القوة والصحة إلى الضعفاء والمرضى ؟ وهل تستطيع أن ترد إلى المخدوعين الذين وهنت نفوسهم مافقدوه من ثقة في أولئك الذين غرروا بهم ؟

ألا فاخرج ياجول جود من سيارتك العسكرية ، واترك القفص الذي سجنتك فيه الدولة الرأسمالية ، وانظر حولك لعل الأقدار تشفق لآخر مرة على شيخوختك البائسة ، وتسمعك الزمجرة الصامتة زمجرة الحوادث الرهيبة المقبلة . إنا نتوقعها ، ونتعجلها ونتأهب لها ! وستحل بفرنسا الكوارث المدلهمة إذا لم يثأر العمال للمجازر التي قضت عليهم ، وإذا لم نثأر نحن لهؤلاء العمال بثورة لن يكون لك فيها مكان لا أنت ولا أتباعك ياجول جود .

سأغادر فرنسا بعد أن طردتني منها وأنا عظيم الثقة بانتصارنا ، وأنا أبعث فوق رأسك تحياتي الأخوية للعمال الفرنسيين الذين أخذوا يستيقظون ويتنبهون إلى مصيرهم العظيم ، ولتحيي فرنسا الاشتراكية دونك ورغم إرادتك .

ليون تروتسكي

* * *

وكان من سخريات التاريخ أن عاد ليون تروتسكي إلى فرنسا بعد عشرين سنة من ذلك الوقت ؛ عاد إليها هذه المرة طريداً منفيا من اتحاد جمهوريات السوفييت الاشتراكية التي عمل على إنشائها في أثناء الحوادث الرهيبة التي وقعت بعد كتابة الرسالة السالفة الذكر .

ووصل تروتسكي إلى روسيا في عام ١٩١٧ ، بعد تجوال طويل في أراض كثيرة كان في أثنائها طريداً منفيا من بلاده ، وكان وصوله إليها في الوقت الذي أخذت فيه الجماهير الروسية تستعد « للسيطرة على مصائرها » كما يقول هو نفسه ، وهو الذي نظم ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ وقادها ، وأصبح بعد فوزها مندوب الشعب للشئون الخارجية ، ثم صار بعد معاهدة برست — لتوفسك[2] مندوبا للشئون الحربية . وهو الذي تولى قيادة الجيش الأحمر للدفاع

---

(١) Zimmerwald (٢) Brest Litovsk

عن البلاد ورد القوى المضادة للثورة ، وحارب فى أربع عشرة جبهة ، وفى خط قتال طوله سبعة آلاف ميل .

وخذل تروتسكى فى مجالس السوفيت بعد أن مات لينين فى عام ١٩٢٣ ، ثم طرده استالين من الحزب الشيوعى ونفاه إلى التركستان فى عام ١٩٢٧ .

وحينئذ عاد الرجل إلى تجواله من جديد ، فوجد نفسه فى الآستانة فى عام ١٩٢٩ يكتب تاريخ الثورة الروسية ، وبعد أربع سنين من ذلك الوقت ألغى أمر نفيه من فرنسا وهو الأمر الذى يندد به فى رسالته السابقة لجول جود فقضى زمنا قصيراً فى بربيزون[١] قرب باريس لم يكن فيه مطمئنا آمناً على نفسه .

ثم أعاد التاريخ نفسه ، فتلقى ڤلدمير پوتمكين[٢] أوامر من استالين بأن يبلغ الحكومة الفرنسية « أن الصداقة الجديدة بين باريس وموسكو » تحتم عليها أن تخرج تروتسكى من بلادها . واتهمت الحكومة الروسية تروتسكى ، وكان وقتئذ يستجم فى فرنسا ، بأنه هو الذى دبر قتل كيروف[٣] ، وأنه يتآمر على حكومة استالين . ورد تروتسكى على ذلك بأن اتهم استالين بأنه خان مبادئ الثورة الروسية ، واضطر تروتسكى أن يبدأ طوافه من جديد

فنجده فى عام ١٩٣٦ يقيم فى النرويج ، ثم يخرج منها بعد قليل ، ثم يلجأ إلى المكسيك فى السنة التى تليها حتى إذا كان شهر أغسطس من عام ١٩٤٠ اغتاله جاك مرنار ڤان دن درشد[٤] أحد أتباعه . وكان تروتسكى وهو على فراش الموت يعتقد أن استالين هو الذى دبر أمر قتله ، وكانت آخر كلماته التى أسرها إلى أمين سره « أرجو أن تنبئ أصدقائى أنى لا يخالجنى شك فى انتصار الدولية الرابعة ؛ فإلى الأمام ! »

---

(١) Barbizon (٢) Vladimir Potemkin (٣) Kirov

(٤) Jacques Mornard van den Dreschd

زوجة القيصر نقولا الثانى تؤكد له قبيل الثورة أن الأمور كلها تسير على ما يحب

يستطيع الإنسان أن يستمع بين سطور هذه الرسالة إلى جلجلة الحوادث المنذرة بانهيار الملكية الروسية .

ويقول بعض المؤرخين إن الإمبراطورية الروسية لم تسقط لأن نار الثورة شبت فيها ، بل إن الثورة قد شبت لأن الإمبراطورية سقطت . وكان سبب سقوط آل رومانوف هو آل رومانوف أنفسهم . ذلك أن هؤلاء القياصرة كانوا يظنون أن فى وسعهم أن يصرفوا سدس العالم المأهول كما يصرفون شئون ضيعة من الضياع ، وأن يحكموا مائة وسبعين مليونا من بنى الإنسان من حجرة استقبال السيدات .

وقد كتبت قيصرة الروسيا الرسالة التالية فى أثناء الحرب الأوربية الأولى . وكان صاحب الجلالة الإمبراطورية قيصر روسيا يقيم وقتئذ فى مركز القيادة العام يتشاور مع كبار القواد والأشراف .

وكانت إشاعة قيام الثورة فى قصر الإمبراطور يتردد صداها فى جو البلاد ، ولكن القيصرة كانت تتردى فى حمأة الفجور مع راسبوتين[١] الذى تسميه فى هذه الرسالة «صديقنا العزيز» ، وهى لا تدرك أن الملكية الروسية ستلفظ آخر أنفاسها بعد ثلاثة أشهر من كتابتها . وكانت الأسرة المالكة وقتئذ تنعم بدخل لا يقل عن ألف ألف ريال فى الشهر ، وتملك من الأراضى ما قيمته خمسون مليون ريال ، وتملك فوق هذا كله من الياقوت واللؤلؤ وغيرهما من الجواهر ما يقدر بثمانين مليون ريال .

ويقول تروتسكى فى كتابه تاريخ الثورة الروسية إن « الطبقات الحاكمة كانت تريد أن تنقذ أنفسها من الثورة بالتخلص من القيصر وبطانته . . . كانت تريد هذا ولكنها لم تكن تجرؤ على العمل له ... وكانت الطبقات المالكة ملكية ضميمة بحكم مصالحها وعاداتها

(١) Rasputin

وجبنها . وكانت تريد ملكية بغير راسپوتين ، ولكن الملكية تجيب هذه الطبقات بقولها : « خذونى ومالكا معى ... »

ولما طولب القيصر بتأليف وزارة حسنة السمعة أرسلت إليه القيصرة فى مركز القيادة العام تفاحة من يد راسپوتين ، وألحت عليه أن يأكلها « ليقوى بأكلها إرادته ... » وقالت له : « كن بطرس الأكبر وإيڤان الرهيب وپول الإمبراطور[١] وحطمهم كلهم تحت نعليك » .

ويقول تروتسكى إن هذا كله كان يحدث « والحرب العوان قائمة ، والطبقات الممتازة تنتهب ملذات الحياة انتهابا » ، ويضيف إلى ذلك أن القيصرة التى كان زوجها يخضع لها فى جميع الأمور كانت فى ذلك الوقت تفشى للأعداء أسرار الروسيا الحربية ، ولعلها كانت تأتمر على رؤوس زعماء الدول المتحالفة .

ومما هو جدير بالذكر أن القيصرة كانت قبل زواجها هى الأميرة ألكس أميرة هس دارمستاد[٢] وأنها حفيدة الملكة ڤكتوريا . وكانت الطبقات الحاكمة غير متحمسة لثورة القصر لاعتقادها أن الدواء قد يكون أوخم عاقبة من الداء .

وفى وسعنا بعد هذه المقدمة أن ندرك حق الإدراك ماترمى إليه هذه الرسالة التى كتبتها القيصرة إلى القيصر ، والتى عثر عليها البلاشفة فى صندوق أسود فى سجن الأسرة الإمبراطورية وهم يفحصون عن سجلات آل رومانوف بعد الثورة الكبرى .

— ٦٠ —

« ... أنت السيد ... »

زار سكوچى سيلو[٣] فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩١٦

« ... يا أعز الناس علىّ ... »

تحياتى إليك يا حبيبى !

(١) Peter the Great, Ivan the Terrible و Emperor Paul

(٢) Princess Alex of Hesse-Darmstadt

(٣) Tsarkojie Selo

يؤلمنى أشد الألم أن أفارقك — و يتضاعف هذا الألم بعد الأوقات المصيبة التى كنا نعيش فيها ونحارب فى خلالها — ولكن الله مصدر الحب والرحمة قد أراد أن تتبدل الأمور إلى خير مما كانت ، فما عليك إلا أن تصبر قليلا وأن تكون شديد الايمان بصلوات « صديقنا » ومعونته ، وستستقيم الأمور كلها وتنصلح الأحوال . و إنى لا يخالجنى شك فى أن حكمك و بلاد الروسيا مقبلان على أيام عظيمة سعيدة ، فتشجع ولا تقنط ، ولا تسمح لأحاديث الناس أو رسائلهم بأن تفت فى عضدك ، ولا تعبأ بها ودعها تمر كما تمر السخافات ولا تعلق بذاكرتك .

وأظهر للناس جميعا أنك أنت السيد فيطيعوا أمرك — فلقد مضى عهد التسامح واللين ، وأقبل الآن حكم العزيمة والسلطان ، فليُرغموا على الخضوع لك والاستماع إلى أمرك ، والعمل بما تريد ومع من تريد . يجب أن يتعلموا الطاعة فهم الآن لا يعرفون معنى هذا اللفظ ، لأنك أفسدتهم بعطفك عليهم وعفوك الشامل عن ذنوبهم .

أتعرف لم يكرهوننى ؟ إنهم يكرهوننى لأنهم يعلمون أننى قوية العزيمة ، متى اقتنعت بأنى على حق (و باركه فوق ذلك جرجرى[1]) لا أتحول عنه قط ، وهذا ما لا يطيقونه ، ولكن هؤلاء هم أشرار الناس .

وهل تذكر قول مستر فلبس[2] حين أعطانى الصورة ذات الناقوس ؟ ولما كنت أنت ظريفا شديد الثقة دمث الأخلاق فقد كنت أنا ناقوسك ، فلا يستطيع الخبيثون أن يقتربوا منى ، ومن واجبى أن أحذرك منهم . إن الذين يخافوننى لا يستطيعون أن ينظروا إلى وجهى ...... والذين يريدون الشر لا يحبوننى ، أما الصالحون المخلصون لك ، الأشراف الأطهار ، فهم الذين يحبوننى — ومن هؤلاء رجال العسكرية وطبقات الشعب الساذجة .

أما القساوسة فمنهم الصالح والطالح ، وليس يخفى علىّ شىء من أمرهم ، وهم لذلك لا يضروننى كما كانوا يفعلون وأنا صغيرة السن ، فإذا ما سولت لإنسان نفسه أن يكتب إليك أو إلىّ رسالة قذرة وجب عليك أن تعاقبه .

... ...

---

(١) Gregory (٢) Mr. Philipps

وصديقنا العزيز لا ينقطع عن الدعاء لك ، وما من شك فى أن وجود رجل من رجال الله الصالحين إلى جانب الإنسان يثبت قلبه ويقوى عزيمته ، ويبث فيه روح الإيمان والأمل اللذين يحتاجهما أشد الاحتياج . ومن الناس من لا يستطيعون أن يدركوا كنه هدوئك ولذلك يظنون أنك جاهل بالأمور ، ويحاولون أن يوهنوا قواك ويرهبوك ويؤلموك ، ولكنهم سوف يملون هذه الأعمال .

وإذا كتبت إليك أمنا العزيزة فاذكر أن آل متشل[1] من ورائها — فلا تصدق ما تقوله ولا تعبأ به — واحمد الله على أنها بعيدة عنك ، وإن كان المحبون لا تعوزهم وسائل للكتابة وإيذاء الناس . ولكن الأمور كلها آخذة فى التحسن ، وأحلام صديقنا تبشر بالخير . توجه يا عزيزى إلى عذراء موغليف[2] وانشد السلام والقوة هناك . . . . وخذ الطفل معك حيث الهدوء الشامل ، وضع عندها شموعك حتى يرى الناس أنك ملك مسيحى ، ودع الحياء والخجل — فإن هذه الأفعال نفسها تساعد غيرك من الناس .

إنى لا أستطيع أن أتصور ما ستكون عليه الليالى التى أقضيها وحيدة . لقد كان عزائى أنى سوف أضمك بين ذراعى ، وقد خفف ذلك آلام روحى وقلبى ، وحاولت أن أصب فى عناق حبى الخالد كله ودعواتى وإيمانى وقوتى . ألا ما أكثر إعزازى لك يا زوجى وما أحبك إلى قلبى . بارك الله فيك وفى طفلى العزيز . إنى أغمرك بقبلاتى ؛ وإذا شعرت بشىء من الانقباض فاذهب إلى حجرة الطفل واجلس هناك قليلا فى سكون مع من حوله من الناس الظرفاء . قبل الطفل اللطيف تحس بالنشوة والطمأنينة . إنى أبعث إليك بحبى كله يا شمس حياتى المشرقة .

. . . . . .

— نم هادئا ؛ إن قلبى وروحى معك ، ودعواتى تحيط بك ، والله والعذراء لن يتخليا عنك —

زوجتك المخلصة الوفية أبد الدهر

أون

***

(١) Michels

(٢) Moghilev

وكتبت القيصرة إلى زوجها بعد تسعة أيام من ذلك الوقت رسالة أخرى دعته فيها « ملاكى الأعز » وتشكر له أن بعث إليها ببطاقة من مركز القيادة . وأكدت له فى هذه الرسالة أن الأمور أحسن حالا وأكثر هدوءا مما كانت ، وأضافت إلى ذلك قولها : « وكل ما تحتاج إليه هو يدك القوية — وما أكثر ما قال لى الناس من زمن بعيد — إن الروسيا تحب أن تشعر بالسوط — هذه هى طبيعة الروس . . . ألا ليتنى أستطيع أن أصب إرادتى فى عروقك . إن العذراء من فوقك تباركك ، ولا تنس المعجزة — حلم صديقنا » .

وختمت رسالتها بقولها إنها مشغولة بكتابة بطاقات التهنئة بعيد الميلاد .

ورد القيصر عليها بقوله إنه تسلم رسائلها وشكر لها تعنيفها الشديد له ووقع هذا الرد « زوجك المسكين الصغير الضعيف الإرادة »

و بعد ثلاثة أيام من هذا التاريخ أى فى ليلة ١٦ — ١٧ من ديسمبر قتل راسبوتين غيلة بأن دس له سينور البوتاسيوم فى النبيذ ، وأطلق الرصاص على قلبه . و بعد بضعة أسابيع « هوت الأسرة المالكة كما تهوى الفاكهة الفاسدة » فقد تمردت الجيوش الروسية بعد حرب طاحنة دامت ثلاث سنين ، وثار الشعب يطلب الخبز والأرض ، ويستولى عليهما عنوة ، ونزل القيصر عن العرش وسجن هو وأسرته فى اليوم السابع عشر من مارس سنة ١٩١٧ . وفى ١٦ يولية سنة ١٩١٨ قتلوا جميعا رميا بالرصاص عند سفوح جبال أورال ، وكان مقتلهم ختام تاريخ تلك الأسرة التى خرج منها بطرس الأكبر وفلادمير[١] و إيفان الرهيب وكترين الثانية واسكندر الأول .

(١) Vladimir

رابندرنات(١) طاغور يؤكد إيمانه بعظمة الانسان الخلقية ويثني على المهاتما غاندي

[رسالة إلى تشارلس فرير أندروز]

أهم ما يشتهر به طاغور هو شعره، وهو شعر خليق بأن يرفع من شأن قائله، وهو الذي نال به جائزة نوبل في الأدب. لكن طاغور فضلا عن هذا موسيقي بارع له أكثر من ثلاثة آلاف مقطوعة غنائية. ولما بلغ الثامنة والستين من عمره غزا ميدانا آخر من ميادين الفن وهو ميدان التصوير، وعرضت صوره في برلين ونيويورك وباريس ومسكو.

وليست رسائله أقل هدوءا أو جمالا أو خيالا أو فلسفة من شعره. وقد جاء إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أثناء طوافه حول العالم، وأخذ وهو فيها يتبادل الرسائل مع تشارلس فرير أندروز(٢) أحد مراسلي الصحف وأصدقاء الهند، ونائب رئيس معهد طاغور في سانتنيكتان(٣). ولما أبلغه أندروز ما أحرزه صديقهما وزعيمهما المهاتما غاندي من نجاح في إيقاظ الشعور الوطني بين الهنود، وعن كثرة من اعتنقوا برنامجه القاضي بعدم التعاون مع السلطات الإنجليزية رد عليه طاغور بالرسالة التالية : —

— ٦١ —

« نحن أبناء الشرق الأدنياء الجياع رثى الثياب ... »

تشكاجو في ٢ مارس سنة ١٩٢١

في رسالتك الأخيرة أنباء سارة عن الطلبة الهنود في كلكتا. وأرجو أن تزداد هذه الروح التي وصفتها في هذه الرسالة روح التضحية والرغبة في مقاساة الآلام قوة على قوتها، لأن النجاح في هذا يعد غاية في ذاته، فهو الحرية الحقة وليس ثمة في رأيي شيء أعظم قيمة من الإيمان المنزه عن الغرض بالمثل العليا وبعظمة الإنسان الخلقية، لا أستثني من ذلك الثروة القومية أو الاستقلال.

---

(١) Rabindranath Tagore (٢) Charles Freer Andrews (٣) Santiniktan

إن الغرب إيمانا لا يتزعزع بالقوة المادية والرخاء المادى ، ولهذا فإن وحشيته تزداد دويا كلما دوت صيحة السلم ونزع السلاح ، فتراها تصر بأسنانها وتضرب بذيلها من شدة الضجر والغيظ . فهى أشبه بسمكة آذنها قوة التيار فأعدت عدتها لأن تطير فى الهواء . وما من شك فى أن هذه الفكرة رائعة جميلة ، ولكنها فكرة لا تستطيع السمكة أن تحققها ، وعلينا نحن الهنود أن نكشف للعالم عن تلك الحقيقة التى لا تجعل نزع السلاح مستطاعاً فحسب بل تجعل منه أيضاً قوة .

إن القوم العزل من السلاح هم الذين سيثبتون للعالم أن القوة الخلقية أعظم من القوة الوحشية ، ولقد نبذت الحياة فى أعلى درجات تصورها عبئها الباهظ من الدروع الطبيعية ، وقدراً كبيراً مما كان يثقلها من اللحم ، وبذلك أصبح للإنسان الغلبة على عالم الحيوان . ولا بد من يوم يثبت فيه رجل الروح الضئيل الجسم الأعزل الذى لا يملك أساطيل هوائية أو بوارج حربية أن « الأرض سيرثها الوادعون »

ومن طبيعة الأشياء أن يقوم المهاتما غاندى الضئيل الجسم الذى تعوزه جميع مصادر القوة المادية فيثير قوة الوادعين العظيمة التى ظلت طوال الوقت كامنة فى قلوب أهل الهند البائسين المتقصين . إن الهند قد اختارت قوة الروح لا قوة العضل حليفا لها يعينها على تحقيق أمانيها ، وسيكون فى مقدور الهند أن تنتشل تاريخ الإنسان من وهدة الكفاح المادى المنحطة إلى ذروة الخلق الرفيع .

وهل تعلم ما هو السواراج ؟ إنه مايا[1] ؛ إنه أشبه الأشياء بالضباب الذى لا يلبث أن يتبدد إذا طلعت عليه الشمس الدفيئة ولا يبقى له أثر يلوث بهاء الخلود . ومهما خدعنا أنفسنا بجمال اللفظ الذى أخذناه عن الغرب فليس السواراج هدفنا الذى نرمى إليه ، ذلك أن كفاحنا كفاح روحى ، غايته هى الإنسان نفسه . فنحن نهدف إلى تحرير الإنسان من الشباك التى حاكها حول نفسه ، أى من نظم الأنانية القومية . نريد أن نقنع الفراشة البشرية أن حرية السماء أعظم قدراً من مَلاَذِ الشرنقة . فإذا استطعنا أن نتحدى الأقوياء المسلحين الأثرياء ، وأن نكشف للعالم عن قوة الروح الخالدة ، فسوف تنمحى تلك القلعة الحصينة قلعة الجسم الضخم الجبار وتتطاير هباء ، وإذا انمحت وجد الإنسان السواراج

(١) « السواراج » : الاستقلال الذاتى . ومايا : السراب أو الخداع .

نحن أبناء الشرق الأدنياء الجياع الرثى الثياب سنحقق للإنسانية جميعها حريتها . إنك لا تجد فى لغتنا لفظا يقابل لفظ « الأمة » وإذا ما استعرنا هذا اللفظ من غيرنا لم نجده ملائما لنا . ومن أجل هذا سنتخذ الغرابان[1] حليفا لنا ، ولن ننال من النصر غير النصر نفسه ، وسيكون نصراً لعالم الله . لقد شاهدت الغرب وعرفته ، ولست أحسده على موائده الدنسة التى يولغ فيها كل لحظة ، والتى تزيده تورماً وانتفاخا واحمراراً وهذيانا خطيراً . ليس من شيمتنا هذا التهتك وتلك الخلاعة الجنونية التى تقوم قيامتها فى منتصف الليل ، وسط المشاعل الموقدة ، بل الذى يتفق مع طبيعتنا هو اليقظة فى ضياء الصباح الهادئ الصافى .

* * *

ومع أن مهنداس كرمنشاند غاندى[2] قد زج فى السجن مراراً عقابا له على سياسته العدائية للبريطانيين ، ومع أن الحكم البريطانى فى الهند ليس أفضل كثيراً مما كان عليه من قبل دعوته ، ومع أن الهند لم تنل قبل الحرب الأخيرة شيئا من حريتها واستقلالها ، فإن غاندى لم يتردد عن مد يد المعونة لبريطانيا فى الحرب العالمية الثانية ، كما لم يتردد فى ذلك طاغور نفسه ، وظل طاغور على ولائه لبريطانيا حتى توفى فى عام ١٩٤١ .

---

(١) العنصر القدسى فى الإنسان .

(١) Mohandas Karamanchand Gandhi

عهد لينين وهو على فراش الموت إلى الحزب الشيوعى

هذا الخطاب التاريخى منقول بنصه عن كتاب « بعد أن مات لينين[١] » تأليف ماكس إيستمان[٢] مترجم كتاب « تاريخ الثورة الروسية[٣] » لتروتسكى وقد مهد له بالمقدمة الآتية :

« فى يوم عيد الميلاد من عام ١٩٢٢[٤] كان لينين على فراش الموت معقود اللسان ، فكتب رسالة يتنبأ فيها بالنزاع المحتوم بين تروتسكى واستالين ، و يحلل أخلاق الرجلين ، ويوصى بما يجب على الحزب الشيوعى أن يعمله لتجنب انقسامه على نفسه . وليس ثمة مايدل على حكمة لينين و بعد نظره أكثر مما تدل عليه هـذه الرسالة القصيرة التى يسمونها عهد لينين إلى حزبه . وقد أخفى استالين وأشياعه هـذه الرسالة لأن كاتبها ينقده نقدا شديدا ، ويوصى بعزله من الأمانة العامة للحزب وهى المركز الذى يضع فى يده سلطة قوية . ولقد نقلت بضع فقرات من هـذه الرسالة فى عام ١٩٢٥ فى كتابى (بعد موت لينين) ولـكنى نقلتها على مسئوليتى الخاصة ، غير أن الصحف الشيوعية الرسمية ومنها صحيفة اليوليتبورو[٥] التى تصدر فى مسكو أنكرت ما جاء بها ، وفى ١٨ أكتوبر من عام ١٩٢٦ حين كان حزب المعارضة فى الروسيا يبذل أقصى جهوده لتنفيذ وصية لينين وعزل استالين من الأمانة العامة ، نشرت النص الكامل للعهد فى صحيفة نيويورك تيمز ، واستعنت بما جاءنى به نشرها من المال فى الدعوة إلى المبادىء البلشفية . وهذا النص كامل دقيق يعتمد عليه كل الاعتماد »

وقد ولد نيقولاى لينين (واسمه الأصلى ڤلاديمير إليش إليانوف[٦]) فى عام ١٨٧٠ من أسرة متوسطة الحال ذات ثقافة عالية . وكانت زوجته كرپسكايا[٧] ابنة نبيل أخنى عليه الدهر . ولما أتم لينين دراسة القانون نفى إلى سيبيريا لطعنه فى ولاة الأمور الروس . وجاء

---

(١) Since Lenin Died (٢) Max Eastman

(٣) History of the Russian Rveolution (٤) سبب اختلاف هذا التاريخ عن التاريخ المدون فى أول الرسالة أن ثانيهما يعتمد على التقويم الروسى وأولهما على التقويم الجريجورى .

(٥) Politburo (٦) (Vladimir Ilich Ulyanov) Nicolai Lenin

(٧) Krupskaya

إلى إنجلترا ثم إلى سويسرا بعد ثورة عام ١٩١٥ القصيرة الأجل ، واشتغل في البلدين بإذاعة تعاليم كارل ماركس التى كانت أساس الثورة الروسية والتى عاد إلى روسيا فى عام ١٩١٧ ليعمل على إذاعتها بين أهلها

أما جوزف استالين (واسمه الأصلى جوزف ڤيسار يونوڤتش دزوجشڤيلى[١]) فقد ولد فى تفليس فى عام ١٨٧٩ وكان أبوه إسكافيا ، وأصبح فى السابعة عشرة من عمره من أكبر الدعاة الثوريين ، ذا سلطة واسعة فى مجالس البلاشفة ، ثم عين أمين السر العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى الروسى فى عام ١٩١٧ ، وخلف لينين بعد موته سنة ١٩٢٤ فى رياسة اتحاد جمهوريات السوڤيت الاشتراكية .

— ٦٢ —

« ... إن أمله فى القضاء على الدولة هو أن ينقسم الحزب على نفسه ... »

إن الذى أقصده بثبات اللجنة المركزية — ذلك الثبات الذى ذكرته من قبل — هو ما يستطاع عمله لمنع انقسام الحزب على نفسه ، ولست أشك فى أن الحارس الأبيض فى رواية رسكايا مزل[٢] (وأظنه س . ا . ألدنبرج[٣]) كان على حق حين ذكر فى روايته التى ندد فيها بروسيا السوفيتية أن أمله فى القضاء على الدولة هو أن ينقسم الحزب على نفسه ، وأن أمله فى انقسام الحزب هو أن يختلف أعضاؤه فيما بينهم اختلافا شديداً

والحق أن حزبنا يستند إلى طائفتين ، ومن أجل هذا فإن تزعزعه من الأمور الجائزة ، وإذا لم تتفق هاتان الطائفتان فيما بينهما كان سقوطه أمراً محتوماً . وإذا حدث هذا الاختلاف فلا فائدة من اتخاذ أية إجراءات لمنع انهيار الحزب أو البحث فى الوسائل التى يستطاع بها تدعيم اللجنة المركزية . وفى هذه الحال يكون كل إجراء يتخذ لمنع هذا الانقسام إجراء عقيما لا يجدى نفعاً . ولكنى أعتقد أن هذا إذا وقع سيكون فى المستقبل البعيد ، وأنه حادث بعيد الاحتمال فلا يجدر بنا أن نتحدث عنه الآن .

---

(١) Joseph Stalin (Joseph Vissarionovitch Dzugathvili)

(٢) Ruskaya Mysl. (٣) S. E. Oldenburg

و إنما الذى أفكر فيه هو الاستقرار الذى يضمن عدم انقسام الحزب على نفسه فى المستقبل القريب ، وسأتحدث هنا عن بعض الأمور ذات الصفة الشخصية المحضة .

إنى أظن أن أساس الاستقرار من هذه الوجهة هو العلاقة بين أعضاء اللجنة المركزية ، وبخاصة بين ستالين وتروتسكى .

وفى رأيى أن العلاقة بينهما هى التى يكمن فيها معظم الخطر الذى يهدد بذلك الانقسام ، وهو انقسام يستطاع تجنبه ، وأرى أن الوسيلة إلى ذلك هى زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية إلى خمسين أو مائة .

لقد استحوذ الرفيق ستالين بعد أن صار أمينا للسر العام على سلطة واسعة ، ولست واثقا من أنه يعرف على الدوام كيف يستخدم هذه السلطة بالحذر الواجب عليه . أما الرفيق تروتسكى فيمتاز بكفاياته الفذة التى برهن عليها أثناء نزاعه مع اللجنة المركزية فى مسألة مندوب الشعب لطرق الاتصال . وما من شك فى أنه أقدر رجل فى اللجنة المركزية القائمة الآن ، وأنه يمتاز فوق ذلك بإسرافه فى الثقة بنفسه وبميله إلى الجرى وراء الجانب الإدارى المحض من شئون الحكم .

وهاتان الصفتان اللتان يتصف بهما أقدر زعيمين فى اللجنة المركزية الحالية قد تؤديان من غير قصد منهما إلى انشقاق فيها . فإذا لم يعمل حزبنا على منع هذا الانشقاق فقد يؤخذ به على غرة .

ولست أريد أن أعدد هنا الصفات الشخصية التى يتصف بها سائر أعضاء الحزب . وحسبى أن أذكركم بأن الحادث الذى وقع فى شهر اكتوبر ، حادث زينوفيف[١] ، وكمنيف[٢] لم يكن بطبيعة الحال حادثا عارضا وقع مصادفة ، غير أنه يجب ألا يتخذ وسيلة للنيل منهما شخصيا كما يجب ألا تتخذ صفات تروتسكى السالفة الذكر وسيلة لاتهامه بالخروج على المبادئ البلشفية .

أما من حيث أعضاء اللجنة المركزية من الشبان فيجدر بى أن أقول بضع كلمات عن

---

(١) Zinoviev (٢) Kamenev

بوخارين[١] وبياتاكوف[٢] . فهما فى رأيى أعظم الأعضاء صغار السن قوة ، ويجب عند النظر إليهما أن نذكر ما يأتى :

ليس بوخارين أقدر الرجال النظريين فى الحزب وأنفعهم له فحسب ، ولكنه فضلا عن هذا يعد بحق أحب الأعضاء إلى الحزب كله . غير أن آراءه النظرية لا يمكن أن تعد بحق منطبقة على الآراء المركسية كل الانطباق ، ذلك أنه يعمد قليلا إلى التصنع والتحذلق (وهو لم يتعلم قط طرق الجدل ولم تتح له فرصة فهمها على الوجه الصحيح)

أما بياتاخوف فهو رجل يمتاز بالكفاية وقوة الإرادة ، ولكنه منهمك فى الشئون الإدارية ، والجانب الإدارى المحض من الأمور ، وهو من أجل ذلك لا يمكن الركون إليه فى المسائل السياسية .

ولا حاجة إلى القول بأن ما قلته عن هذين الرجلين لا ينطبق عليهما إلا فى وقتنا الحاضر ، ولست أعنى مطلقا أن هذين الرجلين العاملين القديرين المخلصين لن تتاح لهما فرصة يكملان فيها علمهما ويصححان فيها اقتصارهما على ناحية واحدة من الأمور .

فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

حاشية : ستالين رجل جاف فى معاملاته فوق ما يجب ، وهذا العيب مما يستطاع تحمله فى العلاقات القائمة بيننا نحن الشيوعيين ، ولكنه إذا اتصف به من يشغل منصب أمين السر العام للحزب أصبح مما لا يستطاع تحمله بحال من الأحوال . ولهذا أقترح على الرفاق أن يبحثوا عن وسيلة يبعدون بها ستالين عن هذا المركز ويستبدلون به رجلا آخر له ما لستالين من الصفات الممتازة ولا يختلف عنه إلا فى أن له منها قدرا أكبر مما لستالين . وأقصد بذلك أن يكون الأمين الجديد أشد من ستالين صبرا ، وأعظم ولاء وأرق حاشية ، وأكثر رعاية للرفاق وأقل منه ميلا مع الهوى الخ . وقد تبدو هذه الأمور تافهة لا قيمة لها ولكنى أعتقد أنها إذا نظر إليها من حيث منع الانشقاق فى الحزب ومن حيث العلاقة بين ستالين وتروتسكى وهى العلاقة التى تكلمت عليها من قبل — إذا نظر إليها من هاتين

---

(١) Bukharin (٢) Piatakof

الناحيتين بدت أنها ليست من الأمور التافهة ، أو أنها من الأمور التافهة التى قد يكون لها شأن حاسم فيما بعد ؟

فى ٤ يولية سنة ١٩٢٣ لنين

* * *

ويقول ماكس إيستمن فى تعليقه على هذه الرسالة :

« إن هذا الإنذار الأخير الذى وجهه لينين إلى حزبه ليؤثر فى النفس تأثيرا يزداد على مر الأيام . وقد تبين فيما بعد أنه كان ينطوى على جانب عظيم من بعد النظر وأنه كان مع ذلك عديم النفع . فها نحن أولاء نراه وهو على فراش الموت يحاول منع ستالين من أن يحطم آماله ويستحوذ على السلطة كلها . وقد كان صادق النظر ، فقد نفى ستالين تروتسكى أقدر أعضاء اللجنة التنفيذية . وقتل كل من رأى لينين أنهم جديرون بالذكر فى رسالته . ولم يكتف بهذا بل قتل أو سجن أو نفى جميع زعماء البلاشفة وكل من كان يعتمد عليهم لينين من الزملاء حتى لم يبق منهم أحد . ثم أقام على أنقاض مشروع لينين الذى كان يرمى إلى إنشاء جمهورية للعمال والفلاحين دولة دكتاتورية ، وليس هذا إلا اسما جديدا للاستبداد » .

وقد ظهر حديثا كتاب لستالين فى أمريكا يسمى كفاح ستالين وردت فيه عبارة قالها هو لكامنيف :

« ليس ثمة شىء فى العالم أحلى من . . . أن يختار الإنسان فريسته وأن يحكم وضع خططه ، وأن ينتقم أشد انتقام ، ثم يأوى بعد ذلك إلى فراشه[١] ... »

---

(١) Stalin's Kampf

من أخطاء القضاء

تلك قضية أخطأ فيها القضاة فحكموا بالإعدام على رجلين لم تثبت إدانتهما بالدليل القاطع ، ونفذ فيهما حكم الإعدام ، ولم يستطع الرأى العام إنقاذهما .

وتفصيل ذلك أنه فى الخامس عشر من إبريل عام ١٩٢٠ هاجم رجلان أو ثلاثة رجال فى برينترى الجنوبية من أعمال ولاية مساشوستس[١] موظفين فى أحد مصانع الأحذية كانا يحملان مبلغا كبيرا من المال ، وأصاباهما بجراح بليغة . واستولى اللصان على المال وهربا به فى سيارة . وقبض رجال الشرطة على رجلين مهاجرين مغمورين أحدهما سماك متجول ، والثانى صانع أحذية ، يدعى أحدهما برتولوميو فنزتى[٢] والآخر نيقولا سكو[٣] . وسرعان ما أصبح اسماهما رمزا لضحايا القضاء الأعمى أو الخاطئ .

وظل الرجلان سبع سنين يقاسيان عذاب السجن ، والمحامون عنهما يكافحون كفاحا شديدا لإنقاذهما ؛ وأخذ الأحرار فى العالم كله ، وقد روعهم حكم القضاة على الرجلين من غير أدلة قاطعة أو بأدلة مزورة ، يعملون كل ما يمكن عمله لإطلاق سراحهما .

وفى ٢١ أغسطس من عام ١٩٢٧ كتب فنزتى الرسالة التالية إلى دانتى[٤] ابن صديقه سكو . وكان فنزتى هذا ذا آراء فوضوية ، وكانت هذه الآراء مما أساء إلى مركزه فى القضية وأبعد عنه عطف القضاة .

— ٦٣ —

«... سبع سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يوما قضيناها فى ظلم وعذاب لا يمكن وصفه ..»

فى ١١ أغسطس سنة ١٩٢٧ من دار الموت فى سجن مساشوستس الحكومى .

عزيزى دانتى :

لا يزال لدى بعض الأمل ، وسنجاهد إلى آخر لحظة من حياتنا لنثبت حقنا فى أن نعيش وأن نكون أحرارا ؛ ولكن جميع قوى الدولة والمال والرجعية تقاومنا أشد مقاومة لأنا من ذوى الآراء الحرة أو من الفوضويين .

---

(١) South Braintree, Massachusetts (٢) Bartolomeo Vanzetti

(٣) Nicola Sacco (٤) Dante Saocco

ولن أطيل عليك فى هـذا الموضوع لأنك لا تزال حدثا لا تستطيع أن تفهم هذه الأمور وغيرها مما كنت أود أن أفضى إليك به . ولـكنك إذا وقفت فى حياتك ، سوف تـكبر وتفهم قضيتى وقضية أبيك ، ومبـادئى ومبادئ أبيك التى من أجلها سيقضى على حياتنا بعد قليل .

وسأقول لك الآن إن كل ما أعرفه عن أبيك يثبت أنه غير مجرم ، وأنه من أكثر من عرفتهم من الناس شجاعة . وستعرف فى يوم من الأيام ما أوشك أن أخبرك به ، وهو أن أباك قد ضحى بكل ما هو عزيز على القلب والنفس ، و بكل ما هو مقدس لديهما لينال حظه من الحرية ، وليتمتع الناس جميعا بالعدالة ، وستفخر فى ذلك اليوم بأبيك ، وإذا كان لك من الشجاعة نصيب موفور فستحل مكانه فى الصراع القائم بين الطغيان والحرية ، وستوفق لتطهير اسمينا ودمائنا .

وإذا كان مقدرا علينا أن نموت الآن فستعرف حين تستطيع أن تفهم هـذه المأساة كاملة مقدار ما كان عليـه أبوك من طيبة القلب ، وما أوتى من الشجاعة ، وكيف كانت شجاعتنا نحن الاثنين فى هذه السنين الثمانى ، سنى الحزن والـكرب والألم المبرح والعذاب .

وستـكون من الآن رغم حداثتك طيبا شجاعا مع أمك ، ومع إينيس[1] ومع سوزى[2] — ألا ما أشجعك وما أطيب قلبك يا سوزى — وستبذل جهدك فى مواساتهن ومساعدتهن .

وأحب أيضا أن تذكرنى على أنى زميل وصديق لأبيك ولأمك ، ولإينيس ولسوزى ولك ؛ وثق أنى لم أكن قط مجرما ، ولا لصا ولا سفاكا للدماء ، وأن كل ما فعلته أننى كافحت كفاحا متواضعا للقضاء على الجرائم التى يرتكبها بنو الإنسان ، وعملت على أن يتمتع الناس جميعا بالحرية .

واعـلم يا دانتى أن كل من يقول غير ذلك عنى وعن أبيك كاذب يسوئ سمعة رجلين ميتين كانا فى حياتهما من أشجع الناس . واعلم واذكر يا دانتى أنى لو كنت أنا وأبوك من الجبناء المنافقين الذين يتاجرون بعقيدتهم لما أعدمنا ، وأننا لو كنا كذلك لما رأوا فى الأدلة

---

(١) Ines (٢) Susie وكانت سوزى صديقة وفية لزوجة سكو وكانت هي وأولادها يعيشون معها فى آخر أدوار القضية .

التى اصطنعوها ما يكفى للحكم علينا ، فهى أدلة لا تكفى لإدانة كلب كَلِب أو إعدام عقرب سامة مميتة . ولو كنا من هذا الصنف الذى ذكرت وقدمنا الأدلة التى استندنا إليها لإعادة النظر فى قضيتنا لما ترددوا فى هذا ، ولو كنا ممن قتلوا أمهاتهم أو من اعتادوا الإجرام .

أذكر يا دانتى أذكر هذه الأشياء على الدوام ! لسنا مجرمين . لقد أدانونا بناء على أدلة مصطنعة ، وحرمونا من إعادة النظر فى قضيتنا ، وإذا ما أعدمونا بعد سبع سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يوما قضيناها فى ظلم وعذاب لا يمكن وصفه ، فقد فعلوا ذلك للأسباب التى ذكرتها لك ، ولأنا كنا نناصر الفقراء ونقاوم استغلال الإنسان وظلمه لأخيه الإنسان .

وستجد فى وثائق قضيتنا — وهى الوثائق التى ستجمعها أنت وغيرك وتحتفظون بها — ما يثبت لك أن أباك وأمك وإينيس وأسرتى وأنا قد ضحى بنا من أجل الرجعية البلوتوقراطية الأمريكية والدولة التى تؤيدها .

وسيأتى اليوم الذى تدرك فيه ما ينطقنى بهذه الألفاظ المروعة ، وستدركه وقتئذ كاملا غير منقوص ، وستجلنا فى ذلك الوقت وتفخر بنا .

والآن يا دانتى أوصيك بأن تكون شجاعا وطيبا على الدوام وأعانقك .

حاشية : لقد تركت فى هذه الساعة لأمك نسخة أمريكية من الكتاب المقدس ، فهى تحب أن تقرأ هذا الكتاب ، وستعطيك إياه حين تكبر وتستطيع فهم ما فيه . احتفظ به تذكارا منى فإنه سيكون إلى هذا شاهدا دائما على ما كانت تحبونا به مسز جرترود ونسلو[١] من رعاية وكرم . أستودعك الله يا دانتى : بارتولوميو .

* * *

وأعدم سكو وفنزتى فى اليوم التالى على الكرسى الكهربائى . ولما جلس سكو على هذا الكرسى صاح باللغة الإيطالية : « لتحيى الفوضوية » وودع باللغة الإنجليزية زوجته وابنته وأمه وأصدقاءه . وأعلن فنزتى أنه برىء وأنكر الجريمة ، واعترف ببعض الذنوب ، وكان آخر ما نطق به : « أحب أن أسامح بعض الناس وأعفو عما يفعلونه بى الآن »

(١) Mrs Gertrude Winslow

وقد نشرت تفاصيل هذه القضية ووثائقها فى ستة مجلدات ضخمة ، وقام على نشرها طائفة من المحامين والقضاة والمؤرخين العدول ، وكلهم مجمعون على أن الأدلة التى حكم بمقتضاها على سكو وفنزتى لا تكفى لإدانتهما ، وأن القاضى و بستر تاير[١] رجل متحيز تحيزا شنيعا مفسدا للعدالة ، وأن اللجنة التى عينت لبحث القضية لم تقم بواجبها على الوجه الأكمل . ويعتقد معظم من درسوا هذه القضية أن الجريمة التى اتهم بها الرجلان وأدينا بها وأعدما من أجلها قد ارتكبها فى الحقيقة بعض رجال العصابات الأمريكية التى تعيث فى البلاد فسادا .

(١) Judge Webster Thayer

هـ . ل منكن يقول لأحد الفلاسفة إن الله قد أحسن إليه كل الاحسان

[رسالته إلى ول دوران]

يطلق على هـ . ل . منكن اسم حكيم بلتيمور ، وهو محرر وصحفى ومؤلف وناقد وكاتب رسائل مكثر من كتابتها . ولد هنرى ل . منكن[١] فى بلتيمور فى عام ١٨٨٠ واشترك من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٣ فى تحرير صحيفة سمارت ست[٢] ثم أنشأ فى العام التالى هو وزميل له جريدة ذى أمريكان ميركرى[٣] ، وظل يشرف وحده عليها حتى عام ١٩٣٣ ، وهو أيضا من هواة الموسيقى .

وقد كتب منكن الرسالة التالية فى عام ١٩٣٣ ردا على سؤال وجهه إليه ول دوران[٤] مؤلف « قصة الفلسفة » كما وجهه إلى غيره من الكتاب يسألهم فيه عن معنى الحياة فى رأيه .

— ٦٤ —

« ... البطالة مؤلمة للكائن الحى »

تسألنى بالاختصار عما أناله من متعة فى الحياة ولِمَ أدأب فيها على العمل ؟ وردى على سؤالك هو أنى أدأب على العمل كما تدأب الدجاجة على البيض ؛ ذلك أن فى كل كائن حى دافعا خفيا ولكنه دافع قوى يحفزه إلى العمل بجد . إن الحياة تتطلب من الكائن الحى أن يحيا ، والبطالة مؤلمة للكائن الحى السليم شديدة الخطر عليه إلا إذا كانت وسيلة للاستجمام بين فترات النشاط القوى — بل إن البطالة فى واقع الأمر تكاد تكون مستحيلة — والتعطل الحق لا يستطيعه إلا المحتضر .

أما الصورة التى يتخذها نشاط إنسان ما فالذى يعينها بطبيعة الحال هو الجهاز الذى جاء به إلى هذا العالم ، ومعنى هذا أن الوراثة هى التى تعينه . فأنا لا أبيض كما تبيض الدجاجة لأنى لم أعط جهازا للبيض ، ولهذا السبب عينه لا أنتخب عضوا فى مجلس الأمة

(١) Henry L. Mencken (٢) Smart Set (٣) The American Mercury
(٤) Will Durant (٥) The Story of Philosophy

الأمريكية ، ولا أعزف على الكمان ، ولا أدرس علم ما وراء الطبيعة فى كلية من الكليات ، ولا أعمل فى مصنع من مصانع الصلب ؛ بل الذى أعمله هو أسهل الأشياء إلىّ . وقد حدث أنى ولدت ذا ولع شديد لا يشبع بالآراء والأفكار ، ومن أجل هذا أحب أن أقلبها فى عقلى . ولقد كان من قبيل المصادفة أيضا أنى وهبت من يوم مولدى قدرة أكثر من أوساط الناس على التعبير عن هذه الآراء ، ومن أجل هذا كنت كاتبا ومحررا أى متجرا فى هذه الآراء ومخترعا لها .

وليس فى هذا كله شىء من الإرادة الواعية ، فالذى أفعله من تصاريف الأقدار المجهولة التى لا يعرف الناس أسرارها ، وليس لى يد فى اختياره . وحالتى أنا نفسى شاهد على صدقى ، فقد أحببت فى حداثة سنى أن أكون كيمائيا ، وكان يدفعنى إلى ذلك ما كنت أحس به من رغبة قوية و إن لم تكن جامحة فى الإلمام بالحقائق المحددة . أما والدى المسكين فقد حاول أن يهيئنى لأن أكون من رجال الأعمال . وكانت نفسى تتوق فى بعض الأوقات — كما تتوق نفس كل من كان مثلى رقيق الحال — إلى جمع المال بأحد الأساليب الهينة ، ولكنى رغم هذا كله أصبحت كاتبا وسأظل كاتبا طوال حياتى كما تظل البقرة تدر اللبن طوال حياتها حتى لو كانت مصلحتها هى أن تدر الخمر .

وأنا أسعد حظا من أكثر الناس ، لأنى استطعت من حداثة سنى أن أحيا حياة طيبة بالعمل فيما كنت أريد أن أعمل فيه — أى فيما كنت أعمل فيه راغبا مسرورا من غير أجر لو طلب إلىّ ذلك . ولست أعتقد أن فى الناس كثيرين غيرى قد واتاهم الحظ كما واتانى ؛ فما أكثر من يضطرون إلى العمل لكسب قوتهم فى أشياء لا يسرهم أن يعملوا فيها . أما أنا فقد كانت حياتى سارة إلى حد كبير و إن كان قد أصابنى ما يصيب الناس عادة من أحزان ، وذلك أنى كنت حتى فى هذه الأحزان نفسها أستمتع بتلك المتعة التى لا يخلو منها كل نشاط حر طليق . فقد كنت أعمل فى أغلب الأوقات ما كنت أريد عمله ، ولم أكن أعنى إلا قليلا بما عساه أن يكون لهذا العمل من أثر فى غيرى من الناس . فأنا لم أكتب ولم أنشر لأرضى بذلك غيرى من الناس ، بل فعلت ذلك كله لأرضى نفسى ، كما تدر البقرة اللبن لترضى نفسها لا لتفيد اللبان . ويسرنى أن أفكر فى أن معظم آرائى كان صحيحا ، و إن كان ذلك لا يهمنى

فى واقع الأمر . وسواء علىّ أقبِل العالم كتاباتى أم رفضها فقد استمتعت أنا نفسى بإخراجها .

ويأتى بعد العمل المرغوب فيــه من حيث هو طريق مؤد للسعادة ما يسميه هكسلى بالعواطف المنزلية — أى صلات الإنسان اليومية بأفراد أسرته و بأصدقائه . لقد شهد منزلى أحزانا مريرة ولـكنه لم يشهد منازعات حادة خطيرة ولم يذق للفقر طعما . لقد كنت جد سعيد فى حياتى مع والدتى وأختى وأنا جد سـعيد مع زوجتى ، ومعظم من أتصل بهم من الناس أصدقاء لى من قديم الزمان ، عرفت بعضهم من ثلاثين عاما أو أكثر من ثلاثين ، وقلما تتوثق صداقتى مع من لم تدم معرفتى له عشر سنين . وأنا أسر من صحبة هؤلاء وأفزع إليهم حين أفرغ من عملى ، وأنا شديد الرغبة فى لقائهم ، وأنا وأياهم متفقون فى أذواقنا العامة ، ننظر جميعنا إلى العالم نظرة شديدة التقارب ، وكثيرون منهم مولعون بالموسيقى كما أولع بهـا أنا ، فقد حصلت منها فى الحياة على لذة لا تعادلهـا لذتى من أى شىء آخر خارج عنى ، و يزداد حبى إياها عاما بعد عام .

[و يلى هذا بحث فى الدين و بعض عقائده لا نرى ضرورة لاثباته]

* * *

ولو اتسعت لنا هذه الصفحات لأثبتنا فيها رسالة أخرى لمنكن يصف فيها ولعه الشديد بالموسيقى .

وقد نشر بعد هــذه الرسالة التى وجهها إلى ول دوران رسالة أخرى هى دراسة فلسفية فى الحق والباطل سجل فيها تاريخ الاثنى عشر عاما الأولى من حياته وحنينه إلى هذه السنين ، وسمى هذه الأيام « الأيام السعيدة »

ليون فختفنجر يبعث برسالة إلى ساكن بيته الذى اغتصبه النازيون

[خطاب مفتوح إلى المستر س]

ولد ليون فختفنجر[١] فى عام ١٨٨٤ وهو كاتب روائى وشاعر وفيلسوف .

وبينا كان هـذا الأديب الكبير فى زيارة لأمريكا فى شهر مارس من عام ١٩٣٣ صادر النازيون بيته ، وأتلفوا مكتبته ثم أعطوا المنزل إلى أحد أعضاء الحزب النازى البارزين . فلما سمع بالخبر كتب الرسالة التالية إلى ساكن هذا البيت :

— ٦٥ —

« ستسكن فى بيوت لم تشيدها »

سيدى العزيز

لست أعرف اسمك ولا الطريقة التى امتلكت بها بيتى . وكل الذى أعرفه أن رجال الشرطة فى الريخ الثالث صادروا من عامين أملاكى الثابتة والمنقولة وأسلموها إلى الشركة المساهمة التى أنشأها الريخ لمصادرة أملاك المعارضين السياسيين (ورئيس مجلس إدارة هذه الشركة هو الوزير جورنج[٢]) . وعرفت هـذا من رسالة بعث بها إلىّ أصحاب الرهون ، قالوا فيها إن قوانين الريخ الثالث الخاصة بمصادرة أملاك المعارضين السياسيين لا شأن لها إلا بما يتبقى لأصحابها من أثمان هذه الأملاك بعد أداء ما عليها . ومع أن قيمة بيتي ورصيدى فى المصرف — وقد صودر هذا الرصـيد أيضا — تزيد كثيرا على قيمة الرهن ، فإنى سأضطر إلى أن أستمر على أداء فوائده ، وما تفرضه ألمانيا علىّ من ضرائب ، وذلك ممـا أكسبه من أموال فى خارج ألمانيا . على أنه مهما يكن من هذا الأمر فإنك أنت ياهر س تحتل منزلى ، بينا يرى القضاة الألمان أن من واجبى أن أؤدى أنا ما عليه من الضرائب .

وما رأيك فى منزلى ياهر س ؟ هل أعجبتك السكنى فيه ؟ وهل أصيبت الطنافس ذات

---

(١) Lion Feutchtwanger

(٢) Goering

اللون الفضى — الرمادى التى فى الحجر العليا بسوء حين كان رجال الشرطة ينهبون البيت ؟ لقد فر رئيس الخدم وقتئذ فى هـذه الحجر العليا إذ بدا له أن أولئك الرجال قد اعتزموا أن يصبوا عليه جام غضبهم ما دمت أنا بعيدا عنهم فى أمريكا . إن تلك الطنافس سريعة العطب و إن يكن لونها الأحمر قويا لا يسهل استئصاله ، ولم يكن الذين وضعوا ألواح المطاط فى الدهاليز يظنون أن أولئك الرجال سيطئونها بأحذيتهم الثقيلة .

وهل لاحت لك فكرة عن الغرض الذى من أجله أنشأت شرفة تكاد تكون مغلقة على سطح الدار ؟ لقد كنت أنا وفرو فختفنجر[1] نستخدمها فى تمارين الصباح الرياضية . فلعلك تحرص على ألا يتجمد الماء فى الميازيب ...

ولست أدرى فى أى الأغراض استخدمتَ الحجرتين اللتين كانتا تضمان مكتبتى . لقد قيل لى يا هرس إن الكتب ليست من الأشياء المرغوب فيها كثيرا فى الدولة التى تعيش فى كنفها ، و إن من يظهر شيئاً من الاهتمام بهـا يعرض نفسه للمتاعب . لقد قرأت أنا مثلا كتاب زعيمكم وحكمت وأنا صادق فى حكمى أن المـائة والأربعين ألف كلمة التى يحتويها ليست إلا مائة وأربعين ألف جريمة ارتكبت فى حق روح اللغة الألمانية . وكانت نتيجة حكمى هذا هى وجودك أنت الآن فى منزلى .

و إنى لأعجب أحيانا فى أى الأغراض تستخدم خزائن الكتب فى ظل الريخ الثالث : فإذا بدا لك أن تزيلها من مواضعها فاحذر أن تتلف الجدران فى أثناء عملك هذا ...

وهناك مسألة أخرى أذكرها لك عرضا . هـل لا يزال الشارع الذى به بيتنا يسمى مهلرستراس[2] ؟ هل غفل سادة دولتكم عن أن جستاف مهلر[3] الذى سمى الشارع باسمه كان يهوديا ، أو هل لفت رتشرد استروس[4] نظرهم إلى هذه الحقيقة ؟

وماذا فعلت بمسرح الحيوانات البرية الذى كان قائما عند إحدى نوافذ حجرة مكتبى ؟ هل قتلت كل سلاحفى وكل ضبابى لأن صاحبها « أجنبى » ؟ وهل أصيبت أحواض أزهارى وحدائقى الصخرية بتلف كبير حـين كان رجال الشرطة يطاردون خادمى المنهوك القوى ،

---

(١) Frau Feuchtwanger (٢) Mahlerstrasse
(٣) Gustav Mahler (٤) Richard Strauss

و يطلقون النار عليه وهو يعدو فى الحديقة متجها إلى الغابات التى وراءها ؟

ألا يخيل إليك فى بعض الأحيان أن سكناك فى منزلى أمر غريب ؟ إن زعيمك لا يعد عادة صديقا للآداب اليهودية . أليس من أغرب الأشياء إذن أن يكون مولعاً بكتاب العهد القديم إلى هذا الحد ؟ لقد سمعته بأذنى يردد بحماسة شديدة هذه العبارة : « العين بالعين والسن بالسن » . ولعله كان يعنى بهذه العبارة أن « النقد الأدبى يجزى عليه بمصادرة الملك » . ولقد استطاع الآن على يديكم أن يحقق إحدى نبوءات العهد القديم وهى « ستسكن بيوتا لم تشيدها »

أطيب التمنيات إلى بيتى

ليون فختفنجر

حاشية : لعلك تظن أن قولى إن زعيمكم لا يحسن الكتابة باللغة الألمانية يبرره وجودك الآن فى منزلى ؟

* * *

ولسنا نعرف أن مسترس قد رد على رسالة فختفنجر . وقد نشر هذا الكاتب فى عام ١٩٣٤ رواية سماها The Oppermanns اشتهرت فى أنحاء العالم كله لما وجهه فيها من التهم للحكم الهتلرى . ثم خرج المؤلف بعد كتابتها من ألمانيا إلى فرنسا ، وكتب وهو فى منفاه روايته الأخيرة The Paris Gazette ويقال إنه فر فى عام ١٩٤٠ إلى البرتغال لما غزا الألمان فرنسا .

تومس مان يتهم النظام الهتلرى بجرائمه السرية والعلنية

رسالته إلى عميد كلية الفلسفة بجامعة بُن

هذا ما يقوله أكبر أدباء العصر الحاضر عن الحكم النازى فى رسالة من أقوى الرسائل وأشدها حماسة .

لقد ظل تومس مان فى بدء قيام النازية هادئاً لم يضطرب كثيرا بإرعاد أدولف هتلر وإبراقه ، وبقى حتى عام ١٩٣٠ يعتقد أن هتلر سيختفى فى القريب العاجل من مسرح السياسة العالمية .

ولما أوشكت الموجة الأولى من التعصب النازى أن تبتلع ألمانيا لم يستطع هذا الرجل الهادئ الرزين أن يكظم غيظه فثارت ثائرته ، ولما استولى النازيون على أزمة الحكم فى عام ١٩٣٣ ندد بحكمهم مرة أخرى . وفى عام ١٩٣٧ بينا كان تومس مان يعيش فى مدينة زيورخ[١] بسويسرا شبه منفى من بلاده إذ تلقى رسالة من عميد كلية الفلسفة فى جامعة فردرك وليم[٢] فى بن[٣] هذا نصها :

إلى الهر تومس مان الكاتب : بناء على طلب مدير جامعة بن أبلغك أن كلية الفلسفة ترى نفسها مضطرة إلى أن تمحو اسمك من سجل دكاترة الشرف بها بعد أن فقدت حقوقك الوطنية : وقد ألغى الآن حقك فى التمتع بهذا اللقب حسب نص المادة الثامنة من النظم الخاصة بمنح الدرجات الجامعية :

(التوقيع غير واضح)

العميد

فلما تلقى تومس مان هذه الرسالة الجافة لم يوجه الرد إلى عميد الكلية وحده ، بل وجهه أيضا إلى الشعب الألمانى بأجمعه :

---

(١) Thomas Mann (٢) Zurich (٣) The Philosophical Faculty of Frederick William University (٤) Bonn

« اللهم أعن بلدنا المظلم المدنس .... »

إلى عميد كلية الفلسفة فى جامعة بن :

تلقيت رسالتك المحزنة التى وجهتها إلىّ فى التاسع عشر من ديسمبر ، فاسمح لى أن أبعث إليك بالرد التالى :

إن على الجامعات الألمانية قسطا كبيرا من تبعة المحن الحاضرة ، وهى التبعة الثقيلة التى تحملتها طائعة حينما أساءت فهم واجبها فى تلك الساعة الحاسمة من تاريخها ، وسمحت لتربتها بأن تغذى القوى الغاشمة التى أشاعت الفساد فى ألمانيا من النواحى الخلقية والسياسية والاقتصادية .

وهذه التبعة الخطيرة قد أفسدت علىّ من زمن بعيد ما كنت أجده من الغبطة فيما نلته من ألقاب الشرف العلمية ، وحالت بينى و بين الانتفاع بها بأى وجه من الوجوه . هذا إلى أنى أتمتع فى هذه الأيام بدرجة دكتور فخرى فى الآداب منحتنى إياها جامعة هارفارد[1] من زمن قريب .

ولست أرى بدا من أن أشرح لك الأسباب التى من أجلها منحت هذه الدرجة . إن براءتها تحوى جملة هذا نصها مترجما عن اللاتينية :

« نحن مدير الجامعة والزملاء المجتمعين فى جلسة رسمية قد منحنا بموافقة مجلس الجامعة الموقر درجة دكتور فخرى فى الآداب لتومس مان المؤلف الذائع الصيت الذى أوضح حقيقة الحياة للكثيرين من مواطنينا ، والذى احتفظ مع عدد جد قليل من معاصريه بما للثقافة الألمانية من كرامة ومكانة عالية . ومنحناه كل ما تخوله هذه الدرجة من حقوق ومزايا » .

هذه هى الألفاظ التى يعبر بها الرجال الأحرار المستنيرون وراء المحيط عن رأيهم فىّ ، وهى عبارات تناقض كل المناقضة الآراء السائدة بين الألمان فى هذه الأيام . وهل فى وسعى أن أقول أيضا إنها ليست مقصورة على تلك البلاد ، ولم يكن يدور بخلدى أن أفخر بهذه

(١) Harvard University

العبارات التى نقلتها هنا ، أما الآن وفى هذا المكان فإنه يجوز لى بل يجب علىَّ أن أذكرها وأعيد ذكرها .

وإذا كنتَ ياجناب العميد قد علقت صورة من الرسالة التى بعثت بها إلىَّ على لوحة الإعلانات فى الجامعة (لأنى أجهل الإجراءات التى يتطلبها عملكم هذا) ، فإنى يسرنى أن يحظى ردى بهذا الشرف نفسه . ولعل عضواً من أعضاء الجامعة ، ولعل طالباً أو أستاذاً فيها ، ينتابه خوف مفاجئ ، أو يسرى فى نفسه شعور قوى بخطر داهم ، إذا قرأ هذه الوثيقة التى يرى فيها وهو فى عزلته المشينة وجهله الفاضح المفروضين عليه بصيصاً من عالم الحرية الفكرية الذى لايزال قائما فى خارج بلاده .

ولقد كان فى وسعى أن أكتفى بهذا القدر ، ولكن يخيل إلىَّ فى هذه الساعة أنه يحسن بى ، أو على الأقل يجوز لى ، أن أوضح لكم أموراً أخرى . لقد سكت حين أذيع على الناس حرمانى من حقوقى المدنية ، وإن كنت قد طلب إلىَّ أكثر من مرة ألا أسكت على هذا الحرمان ؛ ولكنى أرى أن تجريدى من الألقاب العلمية ظرف مناسب أقول فيه كلمة قصيرة عن نفسى ؛ ورجائى اليك ياجناب العميد (ولم أحظ بشرف معرفة اسمك) ألا تعد نفسك أكثر من شخص ساقته الظروف لتلقى رسالة لم توجه قط إليه بصفته الشخصية

لقد عشت أربع سنين منفيا من بلادى نفياً لا أستطيع أن أسميه اختياريا ، لأنى لو بقيت فى ألمانيا هذه السنين الأربع أو عدت إليها فى أثنائها لما كنت حيا فى هذا اليوم ، وقد ظللت طوال هذه السنين الأربع فى عناء معنٍ من جراء حظى العاثر الذى ساقنى إلى هذه الحالة التى ظلت على الدوام تقض مضجعى . إنى لم يدر قط فى خلدى ، بل لم يكن فى وسع إنسان أن يتنبأ لى قط وأنا فى مهدى ، أنى سأقضى آخر سنى حياتى طريداً من بلادى ، منتزعة منى أملاكى ، محروماً من حماية القانون ، لا أرى بدًّا من الاحتجاج السياسى على مواطنى .

ولقد كنت أشعر من بدء حياتى الفكرية بأن مزاجى يتفق ومزاج أمتى ، وكنت راضياً عن تقاليدها الفكرية ، سعيداً أعظم السعادة بذينك الرضا والاتفاق ، ويقينى أننى أجدر بأن أكون ممثلا لهذه التقاليد من أن أكون شهيدها ، وأنى أقدر على أن أضيف

شيئاً قليلا إلى بهجة العالم منى على بذر بذور الشقاق والبغضاء فيه . و إذن فلا بد أن خطأ شنيعاً من نوع ما هو الذى جعل حياتى تسير فى هذا الطريق الملتوى الذى لا يلائم طبيعتى . ولقد حاولت أن أقف فى وجه هـذا الخطأ الشنيع ، وبذلت فى ذلك ما لدىّ من جهد قليل — وكانت نتيجة عملى هـذا تلك الحالة التى أعانيها والتى لا أرى مفرا من أن أحاول التوفيق بينها و بين طبيعتى و إن كانت لا تتفق معها فى شىء .

وما من شك فى أنى أثرت غضب أولئك الطغاة ببقائى فى خارج البـلاد ، و باظهار اشمئزازى من أعمالهم ، وهو اشمئزاز لم يكن فى مقدورى أن أكبته . ولـكنى لم أقف فى وجه هذا الخطأ فى الأربع السـنين الأخيرة دون غيرها ؛ لقد كنت أحس هذا الإحساس نفسه قبـل ذلك بزمن طويل ، يدفعنى إلى هـذا أنى رأيت — قبل أن يرى مواطنى البائسون فى هذه الأيام — عاقبة هذا كله وعرفت أى صنف من الناس سيخرج لنا منه . فلما وقعت ألمانيا فى قبضة تلك الأيدى ، فـكرت فى أن أمسـك لسانى ، واعتقدت أن ما بذلته من تضحية يجعل من حقى أن أصمت ، وأن هـذا الصمت سيمكننى من الاحتفاظ بشىء عزيز علىّ محبب إلى قلبى — وهو الاتصال بجمهور الشعب فى داخل ألمانيا . وقلت فى نفسى إن كتبى قد وضعت للألمان قبل غيرهم من الشعوب . أما العالم الخارجى وعطفه علىّ فلم يكن فى نظرى أكثر من مصادفة سعيدة . لقد كانت هذه الـكتب ثمرة اتصال وثيق بين مؤلف وأمته ، تغذيه و يغذيها ، وهى تستمد ما فيها من ظروف عملت أنا نفسى على إيجادها فى ألمانيا . وهـذه الصلة وأمثالها صلات دقيقة ذات خطر عظيم يجب ألا تعمل السياسة على قطعها هذا القطع العنيف . وقد يكون فى داخل ألمـانيا رجال كمت أفواههم فلا يستطيعون النطق ، ولا يطيقون سكوت من كان مثلى طليقا غير مقيد ، ولـكنى كنت أرجو أن تكون الـكثرة الغالبة من الشعب الألمانى ممن يدركون سبب هذا التحفظ ، بل لعلها كانت تشكره لى .

ذلك ما كنت أظنه ، ولـكنى لم أستطع تحقيق هـذه الظنون . فلم يكن فى وسعى أن أعيش أو أعمل — بل كدت أختنق — إذا لم أنفس عن كربى من حين إلى حين ، وأطهر قلبى — إذا صح أن أعبر عن إحساسى هذا التعبير — بالجهر باشمئزازى مما يحدث فى

داخل بلادى — ما كان يقال فيها من ألفاظ محتقرة مرذولة ، وما يعمل فيها من أعمال أجدر من هذه الألفاظ بالاحتقار . وكان من جراء ذلك أن ربط العالم الخارجي اسمى إن خطأ وإن صوابا بصورة للبلاد الألمانية يحبها ويجلها ، وأحسست بصوت داخلى يقض مضجعى ويناديني أن الواجب يقتضيني دون غيرى أن أحول دون هذا الخطر المنذر بتشويه هذه الصورة المحببة المبجلة . وقد أفسد هذا الصوت جميع الأخيلة الحرة المبدعة التى كان يسرنى ويسعدنى أن أسلم لها عنان تفكيرى . لقد كان صوتا مدويا لا يستطيع أن يقاومه من أعطى القدرة على الجهر بما فى ضميره ، ومن اعتاد أن يفرغ ما فى قلبه على قلمه ، ومن كان عمله كله هو « الكلمة » المطهرة المنجية .

إن فى « الكلمة » لسرا عظيما رهيبا ، وإن ما تقتضينا من واجب نحوها ونحو طهارتها لهومن الواجبات المقدسة الروحية . وليست قيمتها مقصورة على ما فيها من جمال فنى بل تشمل أيضا ما فيها من معنى روحى جليل ، ففيها تتمثل التبعة بأكمل معانيها ، تبعة المرء نحو الإنسانية بأكملها ، وتبعته نحو أبناء وطنه ، وواجبه فى أن يحتفظ بصورتها طاهرة أمام أنظار الإنسانية . فى الكلمة تنطوى وحدة الإنسانية ووحدة المشكلة البشرية ، تلك المشكلة التى لا تسمح للمرء فى هذه الأيام على الأخص بأن يفصل الأمور الذهنية والفنية عن الأمور السياسية والاجتماعية ، وأن يعتزل العالم فى داخل برجه العاجي برج « الثقافة » المحضة . إن هذه الوحدة الحقة لتشمل الإنسانية نفسها ؛ وكل من يحاول أن يفصل من هذه الوحدة جزءاً من الحياة البشرية ويقطع الصلة بينه وبين سائر الأجزاء — وأقصد بهذا الجزء السياسة أى الدولة — إنما يعتدى على الإنسانية كلها اعتداء إجراميا .

وهل يسع المؤلف الألمانى الذى أوتى القدرة على التعبير ، وما تلقيه عليه هذه القدرة من تبعات ، والذى تتمثل وطنيته مهما يكن فيها من سذاجة فى اعتقاده أن كل ما يحدث فى ألمانيا يؤثر فى العالم كله أثرا أدبيا لا يقف مداه عن حد — هل يسع هذا المؤلف أن يلزم الصمت ، والصمت المطلق ، وهو يرى ما يحدث كل يوم فى بلادنا من شرور ، وما يرتكب فيها كل يوم من اعتداء شنيع على الأجسام والأرواح والعقول ، وعلى الحق والصدق ، وعلى الأفراد وعلى الإنسانية جمعاء ؟ وهل يليق به أن يسكت وهو يرى الخطر الداهم يحدق بالقارة كلها

من جراء هذا النظام المتلف للأرواح الذى يسود بلادنا ، وقد عميت بصائر القائمين عليه فلم يفطنوا إلى تلك الساعة الرهيبة ، ساعة الخطر التى دقت اليوم فى العالم ؟ إن هذا السكوت لم يكن مستطاعا ، ولهذا نطقت مرغما بما نطقت به وصدرت عنى تلك الألفاظ والحركات المريبة التى أدت إلى تلك النتيجة المحزنة ، وهى حرمانى من حقوق الوطنية . وإن مجرد العلم بأقدار أولئك الناس الذين شاءت الظروف أن تكون فى يدهم القدرة على حرمانى مما هو حق لكل ألمانى — أقول إن مجرد العلم بأقدار أولئك الناس ليكفى وحده لإظهار عملهم هذا فى أبشع صوره . يا عجبا كل العجب ! إنهم يقولون إنى لوثت شرف الدولة الألمانية حين اعترفت بأنى أعارضهم ! لقد كان لهم من صفقة الوجه ما يجيز لهم أن يخلطوا بين أنفسهم وبين ألمانيا ! على حين أنه قد لا يمضى إلا قليل من الوقت حتى يكون من أوجب الواجبات على الشعب الألمانى ألا يخلط بينه وبينهم .

وأى مأزق جروا إليه ألمانيا فى أقل من أربع سنين . لقد خربوها ، وامتصوا دماءها جسما وروحا ليصنعوا الأسلحة التى يهددون بها العالم كله ، فأثاروا بعملهم هذا العالم كله عليها ، وحالوا بينه وبين واجبه السلمى الحق ، حتى أصبح وليس فيه من يحبها ومن لا يخافها ويمقتها ، وأصبحت من الخراب الاقتصادى قاب قوسين أو أدنى ، على حين نرى « أعداءها » يمدون أيديهم إليها فى خوف وهلع لينتشلوا من هذه الهوة السحيقة ذلك العضو الهام من أعضاء أسرة الأمم المستقبلة ، وليعينوها على أمرها . وهم لا يطلبون إليها إلا أن تثوب إلى رشدها وتحاول أن تدرك حاجات العالم الحقة فى تلك الساعة ، بدل ما تتخيله من أحلام عن « حاجاتها المقدسة » الموهومة ..

أجل ! إن ألمانيا لا بد لها فى آخر الأمر أن تتلقى العون من أولئك الذين تهددهم وتعطل مصالحهم ، حتى لا تجر معها سائر القارة إلى الهاوية ، وتسلط عليها نيران الحرب التى تضعها دائما نصب أعينها ، والتى تعدها على الدوام هدفها الأخير . إن الدول الناضجة المثقفة — وأعنى بها الدول التى تدرك تلك الحقيقة الجوهرية وهى أن الحرب قد أصبحت من الأعمال التى لا يسمح العالم بإشعال نارها — تعامل هذا البلد المحدق به الخطر والذى يهدد أمن العالم وسلامته ، تعامله أو تعامل الزعماء المشئومين الذين وقعت مصايره فى أيديهم ، كما يعامل

الأطباء المريض — تعامله بمنتهى الحكمة والحيطة و بصبر لاينفد و إن كان صبرا لا يرفع من شأنه كثيرا في أعين سائر الشعوب . ولكن ألمانيا تظن أن من واجبها أن تصطنع السياسة — سياسة القوة — مع أولئك الأطباء وأن تفرض عليهم زعامتها . وليس هذا صراعا بين ندين ، ذلك أنه إذا كان أحد الطرفين يلجأ إلى هذا الضرب من السياسة ، في حين أن الطرف الآخر يلجأ إلى السلم و يعتصم بها ، فإن أولهما يتفوق على الثاني في بادئ الأمر ، و يجنى من وراء ذلك بعض النفع . والذين يجهلون الحقائق الواقعة ولا يعلمون أن الحرب لم تبق من الأعمال المسموح بها ينالون بعض « النصر » على أولئك الذين يدركون هذه الحقيقة و يعملون بها . ولكن الويل كل الويل لذلك الشعب الذى عميت بصائره فلم يدر أين يولى وجهه ، ثم يضطر إلى أن يجد له في آخر الأمر مخرجا مما يعانيه بالالتجاء إلى الحرب الوحشية البغيضة إلى الله والناس . ذلك شعب سيذوق وبال أمره وستكون عاقبة أمره خسرا ، وستحيق به هزيمة لن تقوم له بعدها قائمة .

وليس للدولة الاشتراكية الوطنية معنى وليس لقيامها غرض إلا أن تعد الشعب الألمانى « للحرب المقبلة » بكتم أنفاس المعارضين من أبنائه و إخراجهم منها ، وقمع كل معارضة مهما تكن ضئيلة ، والقضاء عليها بأقسى الوسائل ، وجعل الشعب الألمانى أداة حرب ذليلة تؤمر فتطيع ، ليس لها فيما تعمله رأى ، يسوقها الجهل والتعصب . ذلك هو معنى الدولة الاشتراكية الوطنية والغرض منها ، ولا يمكن أن يكون لها معنى أو غرض سواهما ، وليس ثمة ما يبرر وجودها إلا هذا المعنى وذاك الغرض ، وكل ما يضحى به الشعب الألمانى من حرية وعدالة وسعادة إنسانية ؛ وكل ما تقترفه هذه الدولة من جرائم سرية وعلنية ترتكبها وهى منشرحة جذلة — كل هذا إنما يرمى إلى غاية واحدة ، هى إعداد الشعب إعداداً كاملا للحرب . ولو أن الفكرة القائلة بأن الحرب غاية فى ذاتها قد انمحت ، لما كان لهذا النظام معنى إلا استغلال هذا الشعب ، ولكان قيامه عبثا وسخافة .

والحق أنه عبث وسخافة معاً ، وليس هذا لأن الحرب لن يسمح بأن تدور رحاها فحسب ، بل لأن الفكرة الأساسية فى هذه الدولة وهى الاستعداد الكامل للحرب ستؤدى بالشعب إلى عكس الغرض الذى نرمى إليه . فليس ثمة شعب آخر على ظهر الأرض عاجز

عن خوض غمار الحرب أو الصبر عليها عجز الشعب الألمانى نفسه . وأول أسباب هذا العجز ، وإن كان أقلها شأنا ، هو أن ألمانيا لن يكون لها حلفاء . فستنبذ ألمانيا وتتخلى الأمم عنها — وهذا أمر رهيب بطبيعة الحال حتى فى عزلتها الحاضرة — ولكن أشد من هذا رهبة أنها قد تخلت هى عن نفسها .

لقد ذلَّت ألمانيا وضعفت من الوجهة المعنوية ، وفسدت أخلاقها ، وتمزقت فى داخلها بسبب سوء ظنها الشديد بزعمائها من كثرة ما أساءوا إليها فى هذه السنين الأخيرة ، وساد القلق نفوس أهلها ، وهم بطبيعة الحال يجهلون ما هو مخبأ لها فى ذمة المستقبل ، ولكن نذر الشر غير خافية عليهم . ولهذا فإنها لن تخوض غمار الحرب بالحالة التى كانت عليها فى عام ١٩١٤ ، بل ستكون حتى من حيث قوتها المادية كما كانت فى عام ١٩١٧ وعام ١٩١٨ . ولن يكفى أنصار هذا النظام — وهم لا يزيدون على عُشر الأمة ، وقد تخلى نصفهم عنه — لأن يحرزوا النصر فى حرب سيكون هم الكثرة الغالبة من الباقين أن تنتهز الفرصة السانحة لتلقى عن كاهلها ذلك النير المخزى ، الذى ناءت به زمناً طويلا ، حرب ستنقلب بعد الهزيمة الأولى المحققة إلى حرب أهلية .

لا . إن تلك الحرب مستحيلة ، وليس فى مقدور ألمانيا أن تخوض غمارها . وإذا كان لطغاتها عقول يفقهون بها ، فإن أقوالهم التى يؤكدون فيها حسن استعدادهم للسلم ليست حيلا وأكاذيب ينطقون بها وهم ينظرون شذراً إلى أشياعهم ، بل هى أقوال أنطقهم بها وهن عزائمهم وعلمهم بهذه الاستحالة .

وإذا كانت الحرب لن يندلع لهيبها ، ولا يمكن أن يندلع لهيبها ، فلم إذن يبقى هؤلاء اللصوص السفاحون ؟ لم إذن هذه العزلة وهذا العداء للعالم كله ؟ ولم هذا الخروج على القانون وهذا الحجر على العقول ؟ ولم هذا الظلام الثقافى المخيم ؟ ولم يرتكب غير هذا كله من الشرور ؟ لم لا تعود ألمانيا باختيارها إلى النظام القائم فى سائر الدول الأوربية ؟ ولم لا تزيل ما بينها و بين أوربا من خلاف فيتمتع شعبها بما يستتبع هذا الزوال من حرية وعدالة ورفاهية وآداب إنسانية راقية ، ويلقى من سائر الشعوب ترحيباً بانضمامه إليها وابتهاجا بقبوله فى أسرتها ؟ وما الذى يمنع هذا ؟ لا شىء إلا أن هذا النظام الذى ينكر

بالقول والفعل حقوق الإنسان المقدسة ، والذى يبغى أولا وآخراً أن يحتفظ بسلطانه ، هذا النظام ستثبت سخافته ويقضى عليه إذا جنح فعلا إلى السلم لأنه عجز عن إيقاد نار الحرب ؛ ولكن هل يُعد هذا سبباً معقولا ؟

لقد نسيت يا جناب العميد أنى ما زلت أخاطبك ، وما من شك فى أنى أستطيع أن أواسى نفسى بأن أفكر أنك قد امتنعت من زمن طويل عن قراءة هذه الرسالة ، بعد أن أزعجتك لغتها التى لا ينطق الناس بمثلها فى ألمانيا من عهد بعيد ، وارتعت لأن إنسانا يجرؤ على استخدام اللغة الألمانية بحريتها القديمة . إنى لم أنطق بما نطقت به مدفوعاً إلى ذلك بالكبرياء والغرور ، وإنما يدفعنى إليه اضطراب نفسى ، وألمى الذى لم ينتزعه من قلبى طغاتكم حين قرروا أننى لم أبق بعد ألمانيًا — ذلك ألم روحى وعقلى لم يفارقنى ساعة واحدة من ساعات حياتى طوال السنين الأربع الماضية ، ألم لم يكن لى بد من أن أكافحه وأنا أقوم بأعمالى العلمية الإنشائية يوماً بعد يوم . لقد كان هذا الكفاح عبئاً ثقيلا علىّ . ولما كان كل إنسان حتى الرجل القليل الإيمان بالأمور الدينية الذى يمنعه ضعف إيمانه أن يجرى اسم الله على لسانه أو قلمه إلا قليلا أو لا يجرى عليهما مطلقا ، لما كان كل إنسان لا يستطيع أن يحجم عن ذكر اسم الله فى أوقات الأزمات النفسية الشديدة ، فلتسمح لى بأن أختم هذه الرسالة — ولا بد لى أن أختمها لأن الإنسان لا يستطيع مهما أطال أن يقول ما فى نفسه — بهذا الدعاء الحار القصير ! اللهم أعن بلدنا المظلم المدنس ، وعلمه أن يسالم العالم ويسالم نفسه .

تومس مان

كشناخت[1] ، زيورخ

فى يوم رأس السنة ، من عام ١٩٣٧

***

وبعد أن كتب تومس مان هذه الرسالة بزمن قصير انتقل إلى أمريكا ليتخذها موطنا دائما له . وفى اليوم الرابع عشر من إبريل سنة ١٩٣٧ عبّرت درثى طمسن عما يجيش فى صدور كل محبى الحرية حين قالت : « يسرنا أن قد جئت يا تومس مان إلى هذا البلد . إن

(١) Cūsnacht, Zurich

أمة من الأمم لا تستطيع أن تنفيك لأنك مواطن عظيم فى بلد عظيم . وحيثما يحب الناس العقل ويبغضون الحجر على الأفكار ، ويجانبون ظلمات الجهل ، ويتجهون نحو النور ، ويقرون بالجميل ، ويمتدحون الفضيلة ، ويحتقرون الدنايا ، وتفيض قلوبهم بحب الجمال ، وحيثما تكون القلوب مرهفة حساسة ، والعقول كريمة والنفوس حرة ، — حيث يكون هذا كله يكون موطنك . وإن بلدا يرحب بك ويعظمك إنما يعظم نفسه . وأما مكانتك فى التاريخ فلسنا فى شك منها . وقد يختلف الناس بعد أجيال من هـذا الوقت فى حكمهم على من اضطهدوك أيا كانت مصايرهم ، أما أنت فسيقولون عنك : إن فضائله لم تكن أقل من مواهبه . لقد كان يخدم الفن المرهق لخدامه متواضعا ، ويعمل لأسمى الأغراض الإنسانية شريفا كريما » .

ولفتت رسالة تومس مان إلى عميد كلية الفلسفة فى جامعة بن أنظار الناس جميعا فى القارات الخمس وأخذ الناس يقرؤونها بشغف ونهم حتى فى ألمانيا نفسها ، وكانوا يعرضون أنفسهم بقراءتها للخطر الشديد .

ويعيش تومس مان فى هذه الأيام فى مدينة برنستن من أعمال نيوجرسى[1] غير بعيد عن رجل آخر ذى شهرة عالمية هو ألبرت أينشتين[2] .

(١) Princeton, New Jersey (٢) Albert Einstein

فرچنيا ولف[1] تشعر بأنها لا تستطيع البقاء على ظهر الأرض

[رسالتها إلى زوجها ليونارد ولف]

فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٤١ قضت الكاتبة الشهيرة فرچنيا ولف نحبها وراحت ضحية الحرب العالمية الثانية .

جلست مسز ولف إلى مكتبها فى صباح ذلك اليوم من أيام شهر مارس وكتبت رسالتى وداع إحداها إلى أختها ڤانسا[2] زوجة الكاتب الناقد كليف بل[3] والأخرى إلى زوجها العالم الاقتصادى ليونارد ولف[4] وهذا نص الرسالة الثانية :

— ٦٧ —

« إنى أسمع أصواتا »

[مارس سنة ١٩٤١]

إنى أحس بأنى مأجن ، وليس فى مقدورى أن أبقى على ظهر الأرض فى هذه الأوقات الرهيبة . إنى أسمع أصواتا ولا أقوى على حصر فكرى فى عملى ؛ لقد قاومت هذا الشعور ولكنى عاجزة عن الاستمرار فى هذا الكفاح . إنى مدينة لك بكل ما تمتعت به من سعادة فى هذه الحياة ، فقد أحسنت إلىّ كل الإحسان ، ولست أستطيع البقاء لأفسد عليك حياتك .

* * *

وماتت فرچنيا ميتة سريعة فى كوخ منعزل يعرف « ببيت الراهب[5] » قائم على الحافة الشرقية لتلال « الدون الجنوبية[6] » . وكان الهواء يموج بأزيز قاذفات القنابل الألمانية . وكان آل ولف قد جاءوا إلى هذا المكان بعد أن تهدم بيتهم الجميل فى لندن ، ولم يكن بيتهم الجديد يبعد عن شاطئ البحر بأكثر من بضعة أميال . وكانت القنابل المحرقة تتساقط هناك على الدوام فتصيب كثيرا من السكان ، وكانت مسز ولف تسعف الجرحى وتقدم لهم كل ما فى وسعها من عناية .

---

(١) Virginia Woolf (٢) Vanessa (٣) Clive Bell
(٤) Leonard Woolf (٥) Monk's House (٦) South Downs

وفى أوائل عام ١٩٤١ فرغت فرچنيا ولف من كتابة رواية قصيرة اسمها « بين الفصول[١] » لـكنها لم ترض عنهـا و إن كان چون لهمن[٢] شريك آل ولف فى مطبعة هوجارث[٣] قد أعجب بها كثيرا . لـكنها لم تقتنع برأيه . وفى صباح اليوم الذى صممت فيـه على الانتحار جلست إلى مكتبها وكتبت الرسالتين اللتين أشرنا إليهما قبل ، وسارت كعادتها فوق التـلال إلى نهر أوز[٤] ووضعت عصاها على الأرض وألقت بنفسها فى تياره الجارف .

وقال المحققون : « إنها انتحرت على أثر اضطراب فى قواها العقلية » . وكانت ڤرچنيا ولف أعظم من كتبن الروايات من النساء فى إنجلترا بعـد چورچ إليت[٥] وأعظم كتاب المقالات فيها رجالا ونساء بعد تشارلس لام[٦] .

(١) Between the Acts
(٢) John Lehman
(٣) Hogarth Press
(٤) River Ouse
(٥) George Eliot
(٦) Charles Lamb

